جورجي امادو

الدونافلور وزوجاها الاثنان

الجزء الثاني

نقلها الى العربية عوض شعبان




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدونا فلورا وزوجاها الاثنان

JORGE AMADO

DONA FLOR E SEUS DOIS MARIDOS ROMANCE

TRADUÇÃO ARABE

POR

AWAD CHABAN

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

بيروت ١٩٩٢

جورجي امادو

الدونا فلورا وزوجاها الاثنان

الجزء الثاني

نقلها الى العربية عوض شعبان



١٩٩٢

الرواية	الدُّونا فلور وزوجاها الإثنان/ج - ٢
المؤلف	جورجي آمادو
الترجمة	عوض شعبان
الناشر	دار الفارابي - بيروت - لبنان ص.ب: ١١/٣١٨١ - ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة	الأولى ١٩٩٢
تصميم الغلاف	نجاح طاهر

القسم الرابع

حياة الدونا فلور مستَقَرَّة ووادعة بلا مخاوف ولا منغّصات، مع زوجها الثاني الطيّب في عالم الصيدلة وموسيقى الهواة، لامعاً في الصالونات، وجوقة الجيران تذكره بالسعادة
(مع الدكتور تيودورو مادوريرا في عزف منفرد على البوق)



البرنامج

أوركسترا الهواة أبناء أورفيو

لديها الفخر الشديد بدعـوة سعـادتكـم وسعـادة عـائلتكـم الفـائقـة الاحترام لكونسرتو احتفالي بعيد تأسيسها السادس الذي سيقام في حدائق قصر الزوجين تافيرا بيريس القائم في ساحة غراسا ، رقم ٥ ، عند الساعة ٢٠,٣٠

القسم الأول

١ ـ بيرجر ـ AMOUREUSE ـ فالس

٢ ـ فران. شوبيرت ـ MARCHE MILITAIRE ـ فالس

٣ ـ أوجيّيه ـ LOIN DU BAL ـ فالس

٤ ـ فرانز دردلا ـ ذكريات ـ عزف منفرد على الكمان برفقة البيانو ـ العازف المنفرد : الدكتور فينسزلاو فيغا ـ على البيانو : السيد إيليو باستو

٥ ـ أوسكار شتراوس ـ حلم الفالس ـ POT-PURRI

القسم الثاني

١ ـ فرانسيس تومیه ـ SIMPLE AVEU

٢ ـ أوتيلو آراووجو ـ مرثاة ـ عزف منفرد على الفيولونسيل برفقة الأوركسترا ـ العازف المنفرد : السيد الكوميندادور أدريانو بيريس

٣ ـ غراتسيانو ـ فالتر ـ GEMITO PASSIONATO

٤ ـ آجينور غوميس ـ تغريد فلوريبيدس ـ أغنية بصوت واحد مع عزف منفرد على البوق برفقة الأوركسترا ـ العازف المنفرد : الدكتور تيودورو مادوريرا

٥ ـ فرانز ليهارت ـ الأرملة الطروب ـ POT - PURRI عازف البيانو : المايسترو آجينور غوميس



١

بعدما أكدت مرة أخرى ترتيبها المطلق ونظافتها الخالية من العيب، مضت الدونا فيلو خارجة ببطء، في خطوتها كامرأة بدينة:

ـ كونا على سجيتكما، يا ملاكيّ... لست بحاجة إلى أن أقول لكما: طابت ليلتكما...
ـ حتى مع كونها تريد أن تغدو خبيثة فما كانت إلاّ طيّبة القلب وذات مشاعر أموميّة، عرفت الدكتور تيودورو عندما كان لا يزال طالباً، مزاماً ورفيقاً لإبنها، الطبيب جوان باتيستا ـ هل تعلمان كم زوجاً من العرسان، وأنتما معهم، قد قضوا شهر العسل في هذه الحجرة، بعد حلولنا سان توميه؟ سبعة عشر... أو ثمانية عشر؟ حتى إنني لا أدري، لا سبيل إلى ذلك إلاّ بالعدّ...

إمتنان في وجه الدونا فلور، وغمزة من عينيها إلى الصيدلي:

ـ أرقدا نوماً غير متقطّع، مطمئناً... الضحكة العريضة، هزّت لها وجنتيها، وتركت صداها في المنزل، جالبة من الحجرة الأمامية صوت الدكتور بنمنتا في توبيخ («إنها هناك، فيلو تعذّب الضيفين»):

ـ إذهبي ونامي أيتها المرأة... دعي الآخرين بسلام...

ـ إني أرى فقط ما إذا كانا بحاجة إلى شيء ما... ـ نظرة أخيرة، عند الباب: ـ يا حمامتيّ الصغيرتين..

ألفى كل من الدونا فلور والدكتور تيودورو نفسيهما الواحد أمام الآخر في حجرة فسيحة، خجلين، مضطربين. اضطراب يتراكم أثناء النهار مع نكات الإشبينات، مع مزاح التلميذات. المزحات البلهاء، نوادر الجيران. وكما في الإجراء المدني كذلك في الكنيسة، كل واحد من المدعوين تبدّى أكثر مهزاراً وإلحاحاً على خبثه. المصرفي سيليستينو قال كل واحدة يقشعرّ لها البدن، فبورتغاليّنا ذو الفم القذر، كان ما يزال، وسيارة الأجرة تغادر به، في استهزاء وسماجة. هي دائماً هكذا وقائع زفاف المرأة الأرملة، في توابل المزحة الخشنة، مع ملح الأمثال السوقية. إذ حتى الدونا فيلو، الشخص الأفضل والمضيافة كانت هي تخرج عن جديتها لتأتي بإزعاج، موصيّة الصيدلي بالتبصّر. وهناك في الحجرة تزايد الاضطراب. وهما شديدا الاضطراب، بقيا أبكمين، من دون أن ينظر كل منهما إلى الآخر، كمرتابين.

مشى الدكتور تيودورو إلى النوافذ الكبيرة المفتوحة على الحديقة، في قصد غير مرئي لإغلاقها. بالنسبة إليهما، الليل قد تسرّب إلى داخل الحجرة بأكملها؛ ضوء القمر، النجوم، نقيق الضفادع، أصوات أعداد من السرطان الكبير والسرطان الصغير، لمعان السمك كشفرة من الفولاذ في حلكة البحر، والفراشة باللون الأزرق البحري ببقع ذهبية، المصرّة على الحوم حول الثريا. النسيم كان يأتي من بين أشجار جوز الهند والمانغا. وفي سقوط صامت كانت الخفافيش تسقط ثمار السابوتي في طيران منبسط ذي ظلال وأشباح في مستنقع الجداجد والضفادع.

الدونا فلور في اندفاع ـ كان لازماً إخفاء ذلك الحاجز بفصلها عن المأزق البدائي والسخيف ـ قدمت إلى مقربة من زوجها، الباسط ذراعيه على إطار النافذة. وإذ تغلّب الدكتور تيودورو على الوجل، مقرباً إياها من صدره، وبيده الطليقة أشار إلى الليل ذي القمر، في اتجاه المدى:

ـ هل ترين، يا عزيزتي ـ قال «عزيزتي» أيضاً بخوف، بجهد ـ هناك في الأعلى؟ إنه نجم الجنوب العابر...

هذا ما كانت تريد رؤيته دائماً، منذ كانت بنتاً:

ـ أين؟ أره لي، يا عزيزي...

رفعت صوتها لتقول «عزيزي» ورددت بعد ذلك، بصوت خفيض: «عزيزي...» أضاء وجه الدكتور تيودورو:

ـ هناك... أنظري ـ يا عزيزتي...

لماذا يا عزيزي، هذا الخوف، هذا الرعب؟ لماذا لا تأخذني بذراعيك، لماذا لا تقبلني من فمي، لماذا لا تحملني إلى السرير؟ ألا ترى كيف إنني أنتظر فاقدة الصبر، ألا تتبيّن الجوع في وجهي، ولا تسمع قلبي الفاقد اعتداله، ألا تتكهن باشتياقي؟ كان لدى الدونا فلور أيضاً اكتشافات النجوم في سمائها الليلية، علم فلك سرّي.

إلى جانبه، في النافذة، احتضنها بصدره، وفكر الدكتور تيودورو كيف سيتصرّف كي لا يؤلمها، كي لا يجرحها بتصرّف غير محتشم أو فظ. كن حذراً يا تيودورو، لا تتعثّر، ولا تتسرّع، بقلة حياء تكون قادرة على إضاعة كل شيء. قد تسبب لهذه المخلوقة المستقيمة جداً، صدمة لن تبرأ منها أبداً. لا تخلط في السرير، زوجتك مع امرأة بغي، مع عاهرة عديمة الحياء. مع مومس يُدْفَع لها لإرضاء الرجل، من أجل الرذيلة، لمن يسيء التصرّف ومن يستطيع الإقدام على شيء من دون أن يأخذ في الحسبان التهذيب والعفّة. من أجل التهتك توجد البغايا ومهنتهن البائسة. الزوجات هنّ مصونات للحب. والحب، أنت تعرفه، يا تيودورو، إنه مُنشأ من ألف شيء مختلف ومهم. خصوصاً الرغبة، لكن رغبة في الروح كما في المادة. كن حذراً بألاّ تحوّلها منتهكة للحياء قذرة. فالزوجة تتطلّب التبصّر، وفوق كل شيء في التعامل مع الأمور التي تتطلّب مثل هذه الرقة، وليلة الزفاف هي دائماً نقطة محددة للانطلاق إلى حياة سعيدة أو تعيسة. وأكثر من ذلك أيضاً عندما تكون الزوجة قد عانت تجربة مريرة في زواج أول كارثي.

حسب ما أخبروه، ما كانت فقط مريرة إنما موجعة وقاسية تلك التجربة الأولى، كان الأمر عذاباً خالصاً وامتهانات. يجب أن تكون، لهذا بالضبط، زوجاً جد رقيق وحنون بحيث تقدر على انتزاع من قلب المرأة المعاني، حتى آخر ذكرى من السفالة أو من انعدام الاحترام. نعم، إنه سيعطيها بقدر ما نقصها، وهو ليس أبداً عاملاً للعذاب والامتهانات.

في تلك الساعة من الرغبة القلقة، من السعي إلى الإدراك والرقة، وكل منها مع أضاليلها، في شبكة من الالتباسات، متلمساً، على طريقة العميان، درباً في السماء يرحلان كملاحيْ فضاء رابطيْ الجأش، وهكذا يستطيعان الالتقاء ثانية في مدار النجوم بالهدوء اللازم وبعض الحميمية.

كان الدكتور تيودورو أليفاً لرسالة السماء، لخريطة الكون، يعلم أسماء الأبراج، الأقمار التابعة والنجوم المذنّبة، عدد وعظمة النجوم في المجرّات - بإصبعه يشير، في زوايا اللانهائي، إلى النجمة الأشد صفاءً - وفي الحال ينكمش بمعرفته وبيده الكبيرة. وهناك يضعها على يد زوجته الصغيرة، في إطار النافذة.

في تلك الليلة من الزفاف أعطاها الذي لا يستطيع عاشق ما أبداً إعطاءه لمعشوقته، عقداً من النجوم بنور إلّهي وبأحجامها، أوزانها ومعاييرها، موضعها في الفضاء، إهليلجها وبعدها الدقيق. بإصبعه الحامل خاتم الدكتوراه هو في السماء اصطفاها، واضعاً إياها في نظام من العظمة؛ في حضن الدونا فلور النجوم شبه الشفافة كانت تلمع.

تلك النجمة الكبيرة في شعرها، تلك الزرقاء تقريباً، المقطوفة من حاشية الأفق، التي تلمع أكثر، أكبر من الجميع، آه! يا عزيزتي، إنكِ كوكب الزهراء [1]، المسماة على وجه الخصوص نجمة المساء أو المسائية، حين تشتعل في الشفق وفي الليل، ونجمة الصباح أو النجمة الصباحية، أو نجمة دالفا، عندما تظهر مع الفجر فوق البحر. في اللاتينية، أوه! أيتها المحبوبة، يقال STELLA-MARIS، النجمة التي ترشد الملاحين...

لا لدرس وصف الكون، المتحذلق والساذج، لا. فالغزل الحار، طريقتها في استيعاب الخجل وتقديم سحر الليلة وحبها له. الدونا فلور، كلها ذات نجوم وعلم تغطي رأسها المنحنية على صدر الدكتور، عادت من جديد إلى الإطمئنان وإلى فرح مثل هذه المعارف، وأرادت أن تعرف:

- أليست فينوس أيضاً إلّهة الحب؟ امرأة بلا ذراعين؟...

---

(١) VENUS: تطلق على كوكب يدعى الزهرة أيضاً.

شيء آخر كانت ترغب في قوله له: « بنورها تتوهّج هي فوق سريرنا، إنها نجمتنا الطيّبة، فلا يعترينك الخوف، يا عزيزي، فلن تُلحِق بي الإهانة إذا أخذتني باحتدام مجنون، إذا انتزعت في اشتياق، في تمزيق، هذا الثوب الذي أرسلته اليّ روزاليا من الريو، إذا جعلتني عارية مغطّاة فقط بالنجوم، وإذا امتطيتني ورحلنا، بغلة وحصان فحل، في هذا الحقل من أشجار المانغا والكاجو، في هذا البحر من الزوارق والمراكب[1].

لكن أين هي الشجاعة لتقول له؟

شدّ الدكتور المبتسم على يدها في حركة جريئة. كانت يده ترتعد. « أجل، كانت ربّة الحب في الميتولوجيا اليونانية، والتمثال المشهور، إبداع العبقرية الكلاسيكية... »

تحققت الدونا فلور من جديد، كما هو أيضاً بالضبط، من أن ما ينقصه هو الإقدام ليغدو متوحشاً مجنوناً، لكي يهدم السور الذي يفصلهما. رجل جد عظيم في المعرفة الغزيرة ولا يعرف كيف يأخذها ويمتلكها. فيما هي، آه! تيودورو، رغم إنك ترغب كثيراً، لا تقدم على أدنى مبادرة. ها قد اجتازت تقريباً حدود اللازم، إذ ليس من حق الزوجة تقديم نفسها لإثارة الزوج من دون أن تغدو عديمة الحياء، أن تضاهي امرأة بغياً، متحللة من الحشمة: أن أنبري لزوجي تيودورو.

بالقفزات والوهاد هناك كان يمضي هو بجهده. لقد أعطاها عقداً من النجوم كزينة، ويقدّم لها الآن ثروات الاحتكارات في هذا العالم، والإنكسار، صراع الشعوب ضد النروستات[2].

ـ يقال إن ههنا مستودع تحت الأرض للنفط، كبير جداً، ثروة مثل هذه كافية ليتحوّل شعبنا قادراً...

أنهار من النفط، أبراج، حفّارات وآبار، كلها عند قدميْ الدونا فلور؟ ما الذي لم يعطه لها في هذه الليلة الزوجية؟

---

(١) SAVEIRO : زورق ضيق مستطيل الشكل يستخدم في عبور الأنهار بالناس والحاجيات.
(٢) TRUSTE : الشركة ذات النفوذ في المفهوم الاحتكاري التي تنتعش مواردها بإفقار الناس.

ـ لقد سمعت أيضاً قولاً ... كان العم بورتو، يعلّم ههنا.

أراحت الدونا فلور رأسها على صدر الزوج. وفي الخارج استمرّت الليلة عابقة بأريج الياسمين، نفسها التي رافقتها في سيارة الأجرة[1] في الطريق إلى المنزل الكبير الذي يقطنه الدكتور بيمنتا والدونا فيلو في مكان بعيد عن سان تومية ده باريبي. ليلة مقمرة في سماء قريبة ومتوهّجة حيث النجوم تتوالد، البعض من الآخر، مجهولة، بيد أنها في الحال كانت مصنَّفة من قبل العلم الغزير المتعدد الأشكال للصيدلي («الدونا جيزا وحدها توازيه في المعرفة»):

ـ حسناً هنا فوق، فوق أشجار الجينيبابو، نجمات ماريا الثلاث...

القمر الكامل كان يمزّق مياه البحر المعتمة والكثيفة، حلكة النفط، بحر الخليج في وداعة مطمئنة. مصابيح القوارب، مذنبات ضالة وحمراء في اتجاه مزروعات قصب السكر الخضراء والتبغ، عند ضفتيْ نهر باراغواسو، حيث احتضرت مدن وقرى في القديم.

بحر داخلي، وديع في صفاء، فاتر وهادىء، والنسيم الرقيق بين شجرة الجاكيرا وجذع شجرة فروتا ـ باون. الدونا فلور تأملت جمال ضوء القمر مغطياً المياه، الرمال، الزوارق، المراكب، بحر الخلود إلى الراحة والسلام.

ليس البحر المحيط، خارج الميناء، الشرس والخطر، ذو اللجج والتيارات الغوّاصة، ذو حالات المدّ المضللة؛ بحر طليق ذو رياح منفلتة، ذو أعاصير مجنونة، بحر العواصف ـ مفككاً في طريق البيوت الصغيرة اللاشرعية في ايتابووا، حيث الحب يندفع في هللويا[2] ـ بحر العنف غير المنضبط، ليس هذا عطر الياسمين الشذيّ، لكنها رائحة البحر، رائحة نفّاذة للطحالب والمحار، مذاق الملح. لماذا تذكرها؟

لماذا تذكرها، إذا كانت الليلة جد مبهجة في باريبي، مع نجوم، وقمر كامل، بحر أسود ومطمئن، وسلام العالم فوق الزوجين المحبطين؟ تيودورو، أرني بسرعة نجوماً أكثر، إسحق

---

(١) TAXI

(٢) من صلوات النصارى في القدس.

بصوتك ومعرفتك ذكريات وقت مظلم، متوفٍ ومدفون. خطّ في مجرّتك ذات الضوء طريقنا العريض والمسرّ، هذا النهر الهادىء، هذا الراكد، هذا العيش في الخليج، عيش سعيد ندشّنه اليوم بتمهل. ارتعدت الدونا فلور، وعيناها نديتان.

إنكِ تشعرين ببرد، فأنتِ ترتجفين، يا عزيزتي. أي جنون في البقاء هنا بادية في رطوبة الليل؛ خطر، بالوسع أن تلتقطي نزلة [1]، رشحاً. هيّا بنا ندخل ونغلق هذه النوافذ. ابتسم الدكتور تيودورو بابتسامته الطيّبة ثم سألها وهو مرتاب جداً: ـ ألا ترين أنه قد حانت الساعة، يا حبي؟

ضحكت هي أيضاً، وراءه تخفي الوسيلة في لعبة الخفر والخبث: «أنت الذي يأمر، يا سيدي». كان جد لطيف ورشيق، عملاقاً طيّباً، أحسّت بدعمه، بحمايته. أعطته ذراعها، إنه زوجها؛ رجل خيّر، قويّ وهادىء، كم كانت تفتقده. زوج حقيقي، ملائم. مثل بحر الخليج هذا، من دون عنف، من دون هياج، لكن، من يدري؟ ربما مع نجوم مخبأة، مع ثروات غير مشبوهة، طارئة.

وضعا دعامات الخشب في النوافذ، وهي ساعدته. واستحالت الليلة صغيرة وحميمة في الحجرة، اقتراب في معيار خجل الزوجين. كيف سيصير الآن، يا ربي؟ سألت الدونا فلور نفسها، عندما انتهيا.

ولكي تفعل شيئاً ما، أخذت الدونا ترتّب ثيابها وثيابه في خزانتيْ الملابس عند قوائم السرير، زوجا الأخفاف [2]. وفوق الشرشف، المنامة [3] البهيّة الصفراء للدكتور وقميص النوم ذو الدانتيل والمطرّزات، هدية الدونا إينايدي وبهذه المطرّزات الرفيعة المستوى تصالحت والصديقة، واضعة قيد النسيان ذلك الشأن بخصوص الدكتور آلويزيو المحامي بالممارسة والموّبَخ، الدكتور الزائف...

---

(١) GRIPE: أنفلونزا.
(٢) جمع خف: الشبشب.
(٣) PIJAMA

الدكتور تيودورو، آه! دكتور حقيقي، ذو شارة وخاتم، وكان يلاحظها ذاهبة وقادمة من الخزانة. وعرضت عليه قميص النوم، متناولة إياه من الكتفين: «جميل، ألا ترى ذلك؟» وهو عند رؤيته أحسّ برداً في أعلى رقبته. «حاذر يا عزيزي، لا تضع كل شيء قيد الضياع بتصرف فظ، كلمة قوية...» أوصى العريس نفسه مرة أخرى. فالحيطة والتبصّر موظفان في هذه الأيام السبعة من شهر العسل، في فردوس سان تومية في الأماكن النائية من باريبي، في بيت آل بيمنتا. سبعة أيام هناك، مع البحر والحديقة، الكسل، التنعّم، لكن شهر العسل هذا سيدوم العمر كلّه.

أراد القول للدونا فلور: «شهر عسلنا سيدوم العمر بأكمله». فلماذا هما جد وجلين ومحبطين؟ كان الأمر كما لو أنهما قد استهلكا كل الحميمية فجأة في عقوبات قاسية حازاها حينما كانا خطيبين. مع هذا، كانا متزوجين، مع تبريك قس القديس بينتو، وتهاني القاضي الأعجف والموسيقي، وقبل الزواج كانا قد تبادلا القبل، الشرهة والمتأوّهة، في السينما وفي البيت، شاعرين بالاشتياق والحمى، مصعوقين في الرغبة الفجّة. لماذا إذن هذا الخفر، لماذا البقاء هناك بلا صوت وبلا عمل، كشخصين أخرقين، حينما صارا في النهاية بمفردهما، رجلاً وامرأة في ساعة اكتمالها وسيرورتها؟ إنه يريد أن يقول لها، لحبه: «شهر عسلنا سيدوم العمر بأكمله»، لكنه قال فقط في نيّة حل تلك النواة من الألم المبرح، والصمت:

- فيما أنتِ تبدلين ملابسكِ، سأدخل هناك...

خرج إلى الحمّام حاملاً المنامة والخفّين، كما لو أنه في هروب على وجه التقريب.

أعدّت الدونا فلور نفسها أمام المرآة بعجلة من أمرها، صاغية إلى الماء يجري في حمّام الزوج. بينما هي تعطّرت بماء الكولونيا وعطر دوّار الشمس (الذي قالت لها الدونا داغمار إنه أكثر دلالة على لونها). على الجسم العاري، على الفرج ذي الشعر لا يوجد إلاّ العطر والدانتيل الأسود في قميص النوم الشفاف المصنوع من القطن الرفيع. وبريق من الرغبة الوقحة على وجه التقريب تريد السيطرة على الحياء الشريف، يخفّض عينيها، ويجعلها مرتعدة وخائفة. غطت الرغبة والفتنة بالدانتيل والمطرّزات الشفافة، بالملاءة العفيفة حيث الخزامى تفوح برائحة العائلة والبراءة.

عاد الدكتور تيودورو بلباس أصفر ساحر؛ نما في المنامة، فكرت الدونا فلور: «أي ضنخم هو!» وبما أنه كان قد علّق البذلة الجديدة للزفاف ـ سروال ذو خطوط وسترة قماش خليط من الألوان ـ فقد أطفأ مصابيح الثريا البلّورية، تاركاً فقط اللمعان المهتز والضئيل من فانوس الزيت أمام صور القديسين، في مرتبة[1] عتيقة.

«لن تراني عندما أتعرّى من قميص النوم». لن يرى جسدها الفتي، مثل جسد الفتاة العذراء، ثدييْ الفتاة العزباء إذ أنهما لم يُرْضِعا، فرج بلا تشوّهات الحبل، بلا علامة الوضع، وردة من النحاس والمخمل.

لكن، ماذا يهم؟ فهو سيرى جسدها في نهاية امتطاء الجياد، في بزوغ الفجر، في إشراقها الصباحي. إن ما يهم فقط الآن هو ما يشعره الشاب والمشتعل ناراً إلى الأبد. وإذ تكهّنت الدونا فلور بالاقتراب، أطبقت عينيها، وقلبها في اضطراب.

كانت تتخيّل مع هذا كيف سيغدو الأمر، إذ كانت متزوجة، وحتى قبل أن تكون، رحلت في المتعة في سرير من رائحة البحر والعاصفة. كان لديها تأكيد بالكيفية التي ستصير إليها، إذ تحتفظ بذكرى وفيّة ودقيقة، في الفكر وفي كل شيء زهيد في جسدها. لكن لحظة واحدة، وهو، زوجها الجديد يعبر حدود التهذيب الرفيع والخجل، منتزعاً ملاءات وقميص نوم، في زحمة مداعبات وكلمات، في حماقة، في إعصار الفمين الجائعين، اليدين العليمتين، يسحب منها الخجل والشعور بالعار، مدركاً أرضية حقيقتها النديّة. تحسّ بجسد زوجها لصق جسدها، في السرير.

كان الأمر يتطلّب دائماً غزوها في كل مرة. انكمشت على نفسها، وانغلقت في الحياء يغلّفها كقشرة ذات عقد تغلّف جذع الرغبة. من اللازم اجتياز هذا الحاجز، جالبة إلى السطح شراهتها كأنثى، شهوتها العميقة. الآن، على كل حال، بعد شهور كثيرة كأرملة شريفة (آه! شابة ومحرومة)، شهور كانت ليلة لا حدّ لها وباعثة على الأرق، حين لا تكون زاخرة بالأحلام المؤلمة في شارع الفسق، ليلة تحدٍ، سهاد مميت، الآن هذه اللفّة الصلبة من الخجل يحوّلها غطاءً هشّاً ورقيقاً، غير قادرة على المقاومة إزاء أقل نداء.

---

(١) ORATORIO : أداة من الخشب توضع عليها صور القديسين على الحائط في بيوت النصارى.

القلب يخفق عالياً، العينان مطبقتان، وهي تنتظر حركة خشنة من الزوج فينتزع الملاءة وقميص النوم، مستعرضاً إياها بأكملها. حسناً، مثلما تعلمت على حساب حياتها الضائع، أين شوهد تمتّع بقميص النوم، الجسد يرتدي ملابس أو مغطى أيضاً حتى بنسيج قطني خفيف جداً وشفاف، أين شوهد مثل هذا العبث؟

وفي الحال أُتيح لها أن ترى، ليس أمراً عبثياً، بل أمر مختلف. فبدلاً من أن يزيل الغطاء عنها، غطّى هو نفسه أيضاً، وتحت الملاءات، ثم احتواها بذراعيه. أخذ رأسها (الشعر أزرق تقريباً لشدة ما هو أسود) وأراح رأسها على صدره العريض كرصيف مرفأ، مقبلاً إياها برقة، من الخدّ وبعد ذلك الفم في قبلة كما الدونا فلور في النهاية تقدّمها وتنتظرها.

وإذ أُخذت بالمفاجأة، تركته يمضي في سبيله، وفي القبلة خُرقت القشرة الهشّة والرقيقة للحياء. نزلت يد الزوج من الورك إلى الساق، من فرق قميص النوم، ولمس حاشية النسيج القطني؛ وما كاد يمنح الوقت الكافي للدونا فلور لكي تنفتح وتقفز كليّاً من الخجل، فأزال الدانتيل والمطرّزات. ومن دون ان يستهلك وقتاً في تعريتها وفي أن يتعرّى هو، أو في المداعبة والغنج، والملاءة دائماً تغطيه، ركّز نفسه فوقها وامتلكها في التو، بإرادة، بقوة وإغواء. مضى كل شيء سريعاً جداً وباعثاً على الخجل، حتى ليقال: شديد الاختلاف عما عرفته الدونا فلور، ولهذا بالضبط ضاعت هي ولم تدركه في امتلاكه إياها وهو جد أبكم وعابس. إنها فقط حلّت وثاقها في مرعى الرغبة وقد سمعت نشيد النصر من الزوج في الناحية النائية جداً من الحقل الفسيح. وبقيت الدونا فلور كضائعة، مسحوقة، مع رغبة في البكاء.

تلك المناسبة ذات التنافر الشديد سمحت للدونا فلور بأن تقيس بمتر الغم والاستعجال، سلّم المشاعر كلّه والرقة لدى الدكتور تيودورو.

وكما عُلم، كان بلا أية تجربة في التعامل، في السرير، مع الزوجة (بصفته عزباً) وعلى وجه التقريب ولا أية تجربة مع عشيقة أو مع حبيبة، لكونه قد تردد فقط على بغايا، وفي خشية من أن يجازف بالتزامه فهو قادر على أن يخلف بوعده. حتى نفسها الخلاسية والنظيفة أوتافيانا، ولوقت طويل خُصص بابها المفتوح لرغبته، بئراً كان يودع فيها كل أسبوع

أهليته كرجل، حتى ولا هي كانت أبداً رباطاً حنوناً أو غراماً متقداً، إنما فقط حاجة لطيفة، عادة مسرّة للطبيعة الوحدانية الزوجة عند الدكتور.

إضافة إلى ذلك، من المعروف أيضاً أنه من أجل مبادىء راسخة وقناعات إيديولوجية، كان الصيدلي يتضرّع عن طريق كتاب أصول الدين (DEO GRATIAS) ذاك، متغلّباً اليوم، ليضمن كون الزوجة فلور الحسّاسة، المخلوقة من العفّة والبراءة، خليقة بأقصى حدّ من الاحترام؛ فمن أجل قلّة الاحتشام، من أجل المتعة الجامحة، لـذّة الجسد، توجد المومسات، ولهذا يتقاضين الثمن. معهن، أجل، بالوسع متى دُفع لهن، أن يحلّ مكابح الفسق من دون أن يسبب لهن إهانة أو غماً، فهن أراضٍ جدباء، ذات زرع يابس. مع الزوجة أبداً، فلها الوصف، الحب النقي، الجميل والنزيه (وهو خالٍ من الملح)، الزوجة هي أم أبنائنا.

وهكذا إذاً، وهو معقّد بمثل هذه العقائد المهجورة، مع كثير من التحديدات والجهل، أخذ في حسبانه كيف ترك الدونا فلور غير راضية ومتوترة.

حسناً، مثلما عُرف بأنه مكتوب قبلاً، في الزيارة الأسبوعية لأوتافيانا، لعدة مرات كرر الدكتور تيودورو فعله بمرح. هكذا أيضاً فعله مع الدونا فلور في السرير الاحتفالي المصنوع من الجاكاراندا [1] الناعمة ورائحة الخزامى، في تلك الليلة من الزفاف، في منزل آل بيمنتا، وينبغي القول، مع هذا، إنه كرره بسرور أفضل، وليس بإلزام، أجل، راضياً بالفرصة السانحة لهذا التكرار. وهو فطن ومسؤول، لكي لا يتركها هذه المرة في حاشية المتعة، وقد تمكن من ذلك.

تمكن من ذلك بالرغم من كونها في حدّها الأدنى تجربته ذات الحسابات والمقاييس الدقيقة جداً، فهو لم يكن مهتماً أبداً بأن يعلم إذا كانت أوتافيانا أو أية امرأة أخرى، مدركة للنشوة، مع إدراكه هو للنشوة بدراية، إذ كان يسعى ويدفع ثمن نشوته وليس نشوة البغي.

---

(١) JACARANDA : شجر ينبت في البرازيل من فصيلة PAPILIONACEAS .

عرف، مع هذا، المضي بتمهل مع الدونا فلور في ازدياد استسلامها، فكل هذا اللعب بدا له إمتاعاً في حدوده القصوى، في نشوة لم يحسّها أبداً من قبل، حتى ولا عندما كان يستجيب لنزوة تافينيا في ليالي الرخاوة حيث بدافع المبادرة الذاتية، تهبه ممارسات داعرة، هي هذه التي قد يسمح الرجل لنفسه بحصولها مع عشيقة أو مومس، وليس أبداً مع الزوجة. فمع الزوجة الأمر مختلف، فلها يحتفظ بالحب المكوّن من مواد نظيفة، إمتلاك هادىء يا سرّ تقريباً، لنقل نقياً، حيياً. لكن حتى في هذا ليس حيياً جداً، وأقلّ إثارة للنشوة، كما تبيّن الدكتور تيودورو عند سماعه الدونا فلور في تنهدة مفرحة تهمس باسمه:

- تيودورو، يا حبي...

فأسرع في إدراكها وأدركها، حيث التقيا معاً أخيراً موحَّدين في عناق لصيق وفي قبلة عميقة. إنهما مغلّفان بالتأوّه، التنهدات والإرتخاء، وفي البرد، إذ أن الملاءة، في ذلك الارتطام المضطرم، انزلقت تحت السرير، تاركة الزوجين منكشفين، الدونا فلور المتفتحة عسلاً، يعتريها الخجل إذ تبدو ظاهرة للعيان (وأي خجل لطيف! وكما لو أنه لمحها في نظرة منحرفة حييّة، انتبه الدكتور تيودورو إلى نفسه).

وإذ أبدى امتناناً لكثرة ما منحته من نفسها ومن متعة، قبّلها من الخدّ في حمى، وغطى جسدها وبردها بالملاءة الخجلى والشرشف الدافىء. آنئذٍ، في النهاية، بوسعه أن يقول لها كل ما يريد وقد قاله الزوج السعيد بجميع حنايا النفس:

- شهر عسلنا سوف يدوم وقتاً لانهائياً... سأكون وفياً لكِ العمر بأسره يا عزيزتي، ولن أنظر أبداً إلى امرأة أخرى، وسأحبكِ حتى ساعة موتي.

- آمين! - رددت ضفادع في ليلة مقمرة وفي زفاف في باريبي - آمين! آمين! - كان سيقولها عزفاً منفرداً من البوق.

- وأنا أيضاً، العمر بأكمله - أكدت هي، مثّبتة عليها التأكيد، شاعرة بالنشوة ومنقذة من المحنة، لكنها غير متعبة، خلاف ذلك، قادرة على سباقات جديدة، إذ أراد الإثارة.

بيد أن الدكتور تيودورو قد انسجم مع نفسه تحت الملاءة والشرشف، معلّقاً:

- غريب... حينما أرادت الدونا فيلو منذ فترة قصيرة، إجبارنا على الأكل، ما كنت جائعاً الآن، إني لقادر على علك حلوى، يا للحماقة...

- إذا شئت فإني أذهب إلى هناك في الداخل وأجلب شيئاً ما. يوجد كثير من الحلوى وكثير من الفاكهة... سأذهب...

- ولا بأي شكل... لا تفكري في هذا...

أخذ في الحسبان، ما كان جوعاً، بل عادة طبق الحلوى، قبل الخروج ليلاً إلى تافينيا، المعدة الرذيلة تشكو. انتهاك العلاقات مع الزوجة، محتفظاً بعادة متأصّلة من بيت عمومي لإمرأة بغي، لينجّه الله ويحفظه. في قبلة أخيرة (عفيفة) انصرف عنها:

- نامي يا عزيزتي، لابد أنكِ ميتة من التعب، كان يوماً مرهقاً...

كاد أن يقول لها: «كانت ليلة متعبة...» لكنه ما يزال خائفاً من أن يلحق بها الإهانة، فاحتفظ بالخبث لنفسه، واسترخى وعلى الفور نام.

لم تنم الدونا فلور في الحال؛ في الحقيقة ظلت مستيقظة طيلة الليل، حتى الفجر، بصحبة الشعلات التي تجري كيلومترات عن السرير الذي يمتطيه جسدها. وقربها كان الدكتور تيودورو يغطّ، في تنفّس كثيف، أبحّ وقوي. ذلك الصوت الأبح أكمل ملامحه كرجل؛ قوي، نبيل، رجل جميل هو زوجها.

لمست بيدها صدره العريض، وجهه المطمئن، في دغدغة خفيفة كيلا توقظه. وكانت لديها الرغبة في أن تختبيء فيه، أن تنام بين ذراعيه، حبيسة ساقيه. لم تجرؤ. فكل رجل كان مختلفاً، لا يوجد اثنان متشابهان، حسبما أكدت تلميذات معيّنات ذوات تجربة واسعة، مثل المغناجة ماريا أنطونيا التي أعلنت:

- لا يوجد رجلان متشابهان في السرير، فكل واحد له طريقته، ميله، قدرته، البعض عارفون وآخرون ليسوا بعارفين. لكن إذا عرفنا الاستفادة، آه! جميعهم طيبون، ومع أي منهم، أبله أو عليم. متوحش أو رقيق، يُطفأ الظمأ وتتفتح الزهرة...

إنه رجل آخر، مختلف، مناهض. زاخر بالكياسة، بالإدراك، ودود جداً، يا لها من رقة! يستوعب الزوجة فتتأطر في الشكل الذي يرغبه الزوج، ففيه تتماسك كلياً وباستقامة. كانت المرة السابقة مع الآخر أشد صعوبة، وقد أدركت بغيتها. فلماذا لا تدرك بغيتها الآن، وهي أكثر يسراً؟

كان لديها الاثنان، الدكتور تيودورو والدونا فلور، كل ما هو ضروري لحياة أكثر عذوبة وأكثر سعادة. وليس الجميع وحدهم يقولون ذلك، في أغلبيتهم. فهي أيضاً الدونا فلور كانت تأخذ هذا في اعتبارها.

عطر الحديقة يتسرّب من شقوق النوافذ. وفي الخارج ليل الخليج الساجي، من دون رياح هوجاء، من دون عواصف طارئة، من دون شغب، من دون ما هو غير مألوف؛ خليج الهدوء. حياة سعيدة، توازنٌ وضمانة، لا عوزٌ ولا تبذيرٌ، ولا خوفٌ ولا مرارةٌ، ولا عذابٌ مذل. أخيراً، بعد دورات كثيرة وسير كثير، سوف تعرف الدونا فلور طعم السعادة.

ـ تيودورو... ـ همست من قلب فرح وواثق ـ ستكون طيّباً، ستكون مستقيماً، مستقيماً جداً...

جوقة الضفادع بأبواق السحر وفي انسجام:

ـ آمين! آمين! كان ذلك في ليل باريبي، مع نجوم ومصابيح القوارب.

٢

كانت الدونا فلور معتَبَرة دائماً ، وهي تعتبر نفسها ، ربّة بيت ، منظمة ودقيقة ، وحذرة. ربّة بيت جيدة ومديرة لمدرستها في الطهي جيدة ، حيث تتجمع كل الأحمال ، معتمدة فقط على مساعدة الخادم المعتوهة والمحبطة ومساعدة صديقة من ماريلدا الصغيرة ، المهتمة بالأطباق والتوابل . لم تردها أبداً شكاوى من التلميذة ، حادث يسيء إلى اطمئنان التلميذات . إلاّ ما كانت ، هذا واضح ، هي الأحداث الناجمة عن زوجها الأول حيث أن المرحوم ، بما أنه كان متخماً بما يعرف ، لم يكن يعير تقديراً لجدول المواعيد ، لعمل الغير أو من أجل تكلّف المجازفة ؛ تصرّفاته الماجنة مع تلميذات أكثر من مرة خلقت مصاعب ومشكلات للدونا فلور ، أوجاع رأس ، حينما لا تزيّن الرأس بقرن صلب .

آه ! في الحقيقة ، إنها الدونا فلور ، ما كانت تحوز دراية بالقاعدة والمنهج ، فتمضي بعيداً عن أن يكون لديها انضباط في المنزل وفي المدرسة ، وفي وجودها ، مقياس وأنموذج ، كما يجب ! كان لازماً العيش مع الدكتور تيودورو لكي تنتبه وتعلم كيف كانت انضباطيتها فوضى ، واعتناؤها ضئيلاً وغير كافٍ ، كيف أن كل ذلك كان يمضي تقريباً كيفما كان ، عرضاً ، بلا قانون وبلا رقابة .

لم يسن الدكتور تيودورو قانوناً ورقابة في الحال وبصرامة ، حتى أنه لم يتكلم في مثل هذا . ولكونه رجلاً مطمئناً ومرتاباً ، ذا ثقافة مهمة ، ما كان يعلم كيف يوهم ، ولم يوهم ؛ مع هذا فقد حصل على كل شيء بلا مباهاة ، من دون أن يشعر الآخرون أنهم قد اغتُصبوا ؛ إنه رجل وديع عزيزنا الصيدلي .

كان لازماً ان يُرى البيت بعد شهر ونصف من شهر العسل، أي فرق! والدونا فلور أيضاً فعلت شيئاً مختلفاً، محاولة التلاؤم مع زوجها، سيدها، استيعاب مقياسه الدقيق بتقويم ودقة. وإذا كان التغيير فيها من داخل، أكثر رسوخاً، وأقل رؤية، ففي البيت جعلته واضحاً، يكفي أن ينظر المرء.

بدأت بالخادم. فقد استقبلت الدونا فلور، المدبّرة حينما كانت أرملة فقط، بإلحاح ونصح من الجيران: «منذ متى تستطيع أرملة شابة ورصينة البقاء وحيدة في بيت، من دون رفقة، من دون دفاع ضد لص أو متشرّد؟» ما كانت سعيدة في الاختيار، إذ تقبلّت توسّل الدونا جاسي، فصوفيا تلك ذات المظهر الموحي ببطء الفهم، هي في أعماقها غشّاشة، تقوم بالعمل في وقت الفراغ وفي الاسترخاء، وفي إهمال كلّي كمن تشعر بالضمانة. فالدونا فلور لا تعرف شخصاً ما، فكيف إذا كان موصّى به من جارة وصديقة. حتى ولو أنها غير راضية من الكسولة وخدمتها، فإن الدونا فلور تتدبّر أمرها معها، متحسّرة على البائسة؛ إنها عاجزة، هذا مؤكد، لكنها غير رديئة من ناحية القلب.

حسناً، في اليوم الخامس بعد العودة من شهر العسل في نواحي باريبي المنعزلة، إثر ذلك الأسبوع من المعاشرة الرقيقة، خرجت الدونا فلور مسرعة إلى ريو فيرميليو حيث الدونا ليتا تختنق من الربو. ومضى الدكتور تيودورو ليلاً لزيارة المريضة وليأتي بالزوجة. لكن عندما وجدت الدونا فلور الخالة ما تزال عسيرة التنفّس ولكون اليوم يوم جمعة (لا توجد دروس أيام السبت) قررت التريث لكي تعتني بالعجوزين. وقد عادت يوم الأحد مساءً، حينما انتهت الأزمة وعادت الخالة ليتا إلى حديقتها.

دامت غيبة الدونا فلور أقلّ من ثلاثة أيام وفي هذاالوقت القصير تغيّر البيت، حتى ليبدو بيتاً آخر. فبدأت بالخادم، في الواقع خادم أخرى. وبدلاً من صوفيا، القذرة والخلاسية، بجوّها الحزين كبلهاء، سلّمت مركزها لسوداء هي مادالينا، امرأة ذات عمر معيّن، نظيفة وقوية. ولولا البشرة السمراء، المدلهمة، والشعر الجعد، لقيل إنها قريبة للدكتور، طويلة ورشيقة مثله، ومثله أيضاً مجاملة في التعامل وراسخة في العمل.

أوضح الدكتور تيودورو، بصوته المؤكد إنما اللطيف، أنه اضطر لصرف صوفيا؛

فعلاوة على كونها خادماً رديئة، ما كانت تطيعه، وتجيب بنبرات استخفاف وبزمجرات سليطة على أوامره القاطعة بتنفيذ نظافة جدية في البيت الرديء التكنيس دائماً. لم يستبشر الدونا فلور، لأنه لم يشأ إزعاجها بهذا الأمر التافه، فما كانت هي مستنفَدَة مغتمّة عند قدميْ المريضة، والآخر، بوجوب طرد ناكرة الجميل فوراً، غير مستعد لسماع غش وتعسّف الخادم. فحين أعطاها أوامر بكنس البيت، خرجت الفاضحة إلى الممر ساخرة، ملقبة إياه بالدكتور مسهّل [1].

شعرت الدونا فلور أنها مضطربة؟ فما مرّت في رأسها قط فكرة طرد صوفيا، رغم إهمالها وتصرفاتها الفظة.

ـ مسكينة...

كانت حزينة لها وكيف تصرفها، من دون توضيح للدونا جاسي، التي استقبلتها؟ وفي الوقت نفسه، كيف تتجاهل كل الحق للدكتور تيودورو؟ لم يكن ممكناً لزوجها، الرجل المحترم وذي المركز، تحمّل طباع معيّنة من المدبّرة، وهي، الدونا فلور، المرأة الصبورة، تغفرها.

ـ مسكينة؟ ـ أبدى الدكتور تيودورو عجباً ـ وقحة، غير خليقة بطيبتك، يا حبي... أحياناً يا فلور، يريد الشخص أن يغدو طيّباً، فينتهي به الأمر إلى أن يغدو أخرق..

الدونا جاسي؟ إذا كان ينبغي لأحد ما الاعتذار إلى أحد فهي الدونا جاسي التي يجب أن تعتذر من الدونا فلور من أجل الصفاقة في أن تطلب أمراً من سقط المتاع كذلك لم تكن راضية بانتهاك طيبة السيّدة [2]، فشاءت المذكورة السخرية من السيّد.

فهمت الدونا فلور أن الدكتور لم يكن قد عبّر عن الموضوع في نيّة مناقشته؛ أعلم فقط كيف حلّ المسألة. يوجد رجل في البيت، مالك وسيّد، فكرت هي. ثم ابتسمت: «زوجي، سيّدي». حسناً فعل، وهي أيضاً ما كانت تسمح بأي انتقاص من الاحترام لزوجها.

---

(١) PURGANTE: مسهل المعدة في حالات الإمساك.

(٢) PATROA: ربّة البيت وصاحبة العمل.

«الدكتور مسهّل»، أين شوهدت مثل هذه الوقاحة؟

بالنسبة إلى الآخرين، لم يكن ثمة نقاش ممكناً حيال هذه النقطة؛ فالمدبّرة الجديدة قادرة في العمل. والدكتور تيودورو لم يتعاقد معها بتوسّل من جارة. أصرّ على شهادات إثبات الشخصية مع إفادات حسنة، وبالهاتف تثبّت منها. هذا، أجل، كان ترتيباً وفعالية.

لم تكن فقط النظافة المثلى، إنجاز الخادم الجديدة؛ وأيضاً كل شيء في مكانه، في الواقع في مكانه المحدد، ليس اليوم هنا وغداً هناك، من دون أن تعلم أين تعثر على الحاجيات ذات الاستعمال الفوري، حيث أن الدونا فلور في ارتباك أثناء الدروس:

ـ ماريلدا، يا ابنتي، هل رأيتِ كتاب الوصفات؟ صوفيا لا تعلم أين وضعته، أعطت سبباً...

تحتج ويداها في المرق:

ـ صوفيا، أين وضعتِ أنتِ الخفّاقة؟ رباه، في هذا البيت يختفي كل شيء...

لقد اختار الدكتور، بكفاءة نادرة وذوق، لكل شيء موضعه وأصدر أوامر دقيقة إلى الخادم؛ في نهاية الدروس، بعد تنظيف المطبخ، كان يريد كل قطعة في موضعها المحدد من قبله مع قصاصة من الورق كُتب عليها بشكل ينم عن نزوة وبحرف طباعي: ؟« سكين الخبز»، «قاطع البيض»، «حجر التفتيت»، «هاون» وإلخ، وهكذا، ليست فقط حاجيات المدرسة إنما حاجيات البيت: «مذياع»، «أصيص الزهور»، «زجاجات المشروب»، «درج قمصان د. تيودورو»، «درج الملابس الحميمة للسيّدة».

ـ ربّاه! ـ قالت الدونا فلور إزاءَ كل هذه الكفاءة ـ وأنا التي كنت أظن أني أعددت البيت مرتباً... كان فعلاً فوضى، عدم ترتيب. تيودورو يا عزيزي، لقد فعلت معجزة...

ـ ولا أية معجزة يا عزيزتي، إنما فقط قليلٌ من النهج الذي كان مفتقراً. حدث أني، مع أمي المقعدة كنت ملزماً بالاعتناء في البيت واعتدت على النظام. في بيتنا يبقى أيضاً من اللازم أن يكون المرء منهجياً لكون الأمر يتعلّق ببيت أسرة ومدرسة، في الوقت نفسه...

ما دمتِ مصرّة على الاحتفاظ بالمدرسة. وبالنسبة إليّ، كما سبق وقلت لكِ، انتهي من هذا الشغل... فأنتِ لستِ بحاجة، أكسب ما يكفي من أجل...

- لقد تناقشنا حول هذا، يا تيودورو، وقررنا ألاّ نتكلم في الموضوع. لماذا العودة إلى هذا النقاش؟

- لديكِ الحق، يا فلور واعذريني إذا ألححت... لن أعود إلى المداولة في هذه المادة ما لم يكن الأمر بدعوة منكِ. كوني مرتاحة، يا عزيـزتي، واغفـري لي، فلم أشـأ الإسـاءة إليـكِ..

كانت « يا عزيزي » من هنا و« يا عزيزتي » من هناك، بود وتهذيب، حيث أن من رأي الدكتور تيودورو التعامل اللطيف والمجاملة هما تكملتان للحب، لا غنى عنهما. ومـا تـوجـه إلى الزوجة قط من دون التفاتة وديّة، مترقباً منها ذات التهذيب البشوش في التعامل. قدم إليها وقبّلها من خدها، معتذراً عن جلب الموضوع المزعج إلى حيّز المداولة.

اقترح على الدونا فلور، وهو لا يزال خاطباً، كما قاس خطواته قبلاً بإغلاق المدرسة، توثيق الدروس والتلميذات، الدبـلومات والوصفات، دورة الصباح والدورة المسائية. في حساب مفصّل لممتلكاته ومركزه في شركة الأدوية والعقاقير المركّبة في الصيدلية، أظهر الدكتور تيودورو عدم جدوى الاحتفاظ بالمدرسة حيث أن الدونا فلور ما عادت بحاجة للمال من أجل النفقات والنزوات؛ فهو كان، لحسن الحظ، في شروط تتيح له ضمانة الذي لا غنى عنه والذي يمكن الاستغناء عنه، حتى ترف محتشم معيّن، من دون تبذير متلاف، إنما بلا ضائقات التقتير. فهي لم تعد بحاجة إلى أن تعمل، فالصيدلي حين طلب يدها، التزم بأن يعيلها، يغطي المصاريف، جميعها. وما كان يسهّل الأمر، هو أنها لم تكن ذات تبذير وتبديد.

لم تقبل الدونا فلور. ضربت بقدمها الأرض وأبقت المدرسة، معلّقة الدروس فقط خلال الأيام القصيرة من شهر العسل في سان تومية. انتُهزت فرصة ترك التلميذات، ليقال كيف إن التلميذات، في عـودة الزوجين، وهـن راغبـات في التسليـة، وضعـن المدرّسـة قيـد التهكم، في لهو من الضحكات والنكات الخبيثة، وأحياناً رقصات شعبية مع غناء، وفي ضرب على الطبل من ماريا أنطونيا، حيث أنها أرادت أن تعرف أياً من الزوجين « الأفضل

في المصّ، والتصرف غير المألوف الأشد قوة ولذة».

وفي العودة إلى الحديث مع الدكتور إبان الخطوبة، أغلقت الدونا فلور المسألة؛ كانت تفضّل البقاء أرملة على إنهاء المدرسة. فمذ كانت بنتاً في اعتيادها على العمل، اعتادت على امتلاك نقودها. ولو لم يكن هذا، كيف تدبّرت أمرها في الاحتفال بالزواج الأول وفي مناسبة الترمل؟

حينما هربت من المنزل كان معها نقود وبها دفعت ثمن الأثاث وأوراق الزواج، عقد الإيجار ونفقات الأيام الأولى. ولولا المدرسة، كيف تسنّى لها أن تفعل عندما ترملت بغتةً؟ فالمرحوم لم يترك لها شيئاً إلاّ الديون؛ فلم يوجد فرع لمصرف في سالفادور ولا يُعثر فيه على سند بتوقيعه الأنيق، ولا صديق أو أحد من معارفه لم يطعنه السافل. وفوق كل هذا مضى إلى عالم الروح في معمعان الكرنفال، فترة النفقات الكثيفة والمميتة.

لولا المدرسة، لشوهدت الدونا فلور في بؤس كامل، بلا قرش[1] من أجل الدفن وغيره. لهذا كله كانت تولي أهمية كبيرة لعملها، لتوفيراتها، نقودها النحاسية في مخبأ سرّي.

لا إغلاق للمدرسة يا عزيزي، إذا أردتني فليكن مع تذوّق وفن يقومان بوظيفتها. كـنْ حلياً، فلن أقضي لبانتك، أطلب شيئاً آخر، أسدده لك بألف قبلة، أرتمي بين ذراعيك، إنما المدرسة لن أعطيها لك بائنة، فهي ضمانتي. هل تدرك يا تيودورو؟

لم يكن العمل الشاق ليقتل أحداً ما. خلاف ذلك، بهجة، تدريب. ساعـدهـا على تحمّـل وقت الترمل الفارغ، وقبلاً، آه! قبلاً، في سنوات زواجها الأول حال دون يأسها. وجدت في الدروس والتلميذات راحة لتحمّل الأيام السوداء والمضطربة. كم من صديقة رائعة لم تحظ بها حول الطبّاخ وكتاب الوصفات، وهن ذوات قيمة أكثر من المال؟ كلا، لا تمدّ يدها إلى المدرسة، التي تكسب بها خبزها وتقضي وقتها المحتشم.

حين كان الدكتور في الصيدلية (وهو يخرج من البيت قبل الثامنة، يأتي لتناول الغداء ثم

---

(١) في الأصل VINTEM: أدنى وحدة نقدية في العملة البرازيلية.

القيلولة، ويعود حيث يتأخر هناك إلى ما بعد السادسة مساءً) كانت المدرسة إنهاكاً مسراً ومرجاً. من دون دروس الطهي، قل لي أيها الدكتور، في أي شيء أوظف الوقت الخاوي؟ في الوشوشات والوشايات مع الإشبينات، تحت أمرة الدونا دينورا، في المهنة المقرفة بمعاقبة الجميع، وتملّق حياة الغير؟ أو في شبك ذراعيها على النافذة، عارضة أزياء[1] في واجهة لإبهاج المارّة، مستمعة لكلمات شائنة، ملقية محادثة مع البعض والآخرين، فتغدو في الحال في أفواه الناس، مع شهرة المرأة مضرمة النار؟

وُجدت من تحب هذا الكسل المعروض، هذه الإثارة. وحتى هناك في الشارع، عند الناصية بالضبط، وفي إطار النافذة، كانت الدونا ماغنوليا وهي خلاسية[2] توهم نفسها بأنها شقراء على حساب البابونج، تقضي وقتها، بابتسامتها الثابتة كدمى السيلولويد، ونقطة على خدها الأيسر، وعينيْ العنزة النافقة. كانت هناك منتصبة في إغواء النهار بطواله، وكلها مغلّفة بإغواء سافر مع عبور المارّة الوديع. إنها جارة حديثة القدوم، انتقلت منذ وقت قصير مع زوجها، الشرطي السرّي، الأنيق في تفاخره بقرنيه[3] الجميلين. وحسب ما تقوله الدونا دينورا وإشبينات أُخَر ذوات حاسّة شم رفيعة المستوى ومعلومات دقيقة، كان المخبر عشيقا وليس زوجاً، وقد حصل على ماغنوليا المشقرّة بالوراثة عن سالفيه في المركز المختلف والمتنوّع الخصائص، لكن الجميع بلا استثناء، كانوا مشابهين له في القرون، في مواظبة وانسجام خليقين بكل تمجيد.

إذا ما كانت الدونا فلور قط ملازمة النافذة ولا ذات مكائد، كيف تقضي وقتها يا دكتوري؟ فهل يريدها مع التلميذات في المدرسة أم تقوم بعرض نفسها في شارع تشيلي، وهو طريق مستقيم، درب قصير يختصر مسافات، إلى شقق العازبين[4] هناك في القرب، في منعرجات أجودا؟ احتفظ بما عندك إذاً، لا تكرر مثل ذلك الاقتراح، فالدونا فلور

---

(١) MANEQUIM : دمية لعرض الأزياء.

(٢) SARARA : تطلق على كل رجل وامرأة مهجنين فاتحي اللون الضارب إلى الحمرة.

(٣) CHIFRE : قرن، يقال في البرازيل للرجل الديوث، ذا القرن أو المقرن.

(٤) CASTELO : عش الغرام.

فخورة بالمدرسة، بشهرتها، بمفهومها الحسن. فقد كلّفها هذا الصيت جهداً ومثابرة، إنه رأس مال.

وافق الدكتور لكنه ترك حالاً وبشكل واضح تعبيراً واتفاقاً على عاتقه الوفاء بجميع نفقات البيت والحاجيات الشخصية للدونا فلور، على عاتقه وحده، بماله. وأرباح المدرسة هي لها بالتخصيص وما كان يقبلها في نفقات الزوجين.

وفي شكل آخر، اتخذ الدكتور تدابير اخرى بالنسبة لهذا المال. إنه عبثٌ، وجوده في المنزل، لصق صمامات المذياع أو موضوعاً في صندوق قديم للأحذية أو خلف مرآة مقصورة الزينة أو تحت الفراش، دعوة للصوص، عادة الغجري، عُرف الناس التافهين. خصوصاً الآن، حيث أن هذا المال السليم يتزايد شهرياً في كسب محترم. ذهب الدكتور تيودورو مع الدونا فلور إلى الصندوق الاقتصادي[١] وهناك فتح حساباً بدفتر يحمل الاسم الشخصي[٢] لزوجته، حيث أودعت توفيراتها.

ـ هكذا يدرّ عليكِ فوائد يا عزيزتي، ثلاثة في المائة، بصورة دائمة يعني شيئاً ما. إن مالكِ في الصندوق مضمون، من دون الخوف من اللصوص.

ماذا تفعل بهذا المال المودع في المصرف، حباً بالله؟ شعرت الدونا فلور بغتةً كأن المال شيء غير نافع، إذ لم يكن في متناول يدها، لا تستطيع البحث عنه خلف المذياع، من أجل شراء، صدقة أو دفع. بيد أن الدونا نورما، المجرّبة في هذه الأمور، ضحكت من المفهوم المصرفي الباطل للجارة. راكمي مالكِ في الصندوق ودعي النفقات على حساب الزوج. وما دمتِ تحوزين دفتر حسابكِ ودفتر الشيكات فلن تصبحي معتمدة على الدكتور من أجل كل دبوس، من أجل فستان تفاهة، قبعة قمامة. لا تعيشي خلف الزوج، توشوشين له، والصينية في يدكِ، للحصول على قروش[٣] من أجل هذه النفقات الصغيرة والمتضاعفة، فالنقود

---

(١) نوع من المصارف، تابع للدولة خاص بالتوفير.
(٢) المرأة المتزوجة في البرازيل تحمل اسم زوجها، وإذا شاءت تحتفظ باسمها عند الولادة مقروناً باسم عائلة الزوج.
(٣) TOSTAO: وحدة نقدية معدنية في العملة البرازيلية.

بتوسل كهذا لها مذاق الإحسان المذل.

كانت الدونا نورما تعرف هذا الطعم المرّ، حيث أن السيد زيه سامبايو كثير الزمجرة وبخيل نوعاً ما. لهذا السبب بالذات، وعلى حساب ميزانية جنبازية خليقة باختصاصي في المال، - مع مضايقات، وشوشات، حسابات، توفيرات، خبطات متنوعة، أخطاء في العد، في الجمع، في الطرح: في المجموع، عشرون ألف ريس هنا، خمسون هناك، - وإذا لزم الأمر، اليد الليلية في جيب الزوج، كانت الدونا نورما تحوز هي الأخرى، على جوارب نادرة تتيح لها جوانب معيّنة من الأناقة وإثارة اهتمام زبائنها الكثيرين من الإشبينات والأولاد المتبنّين، الهرمين، المرضى، العمال العاطلين، السكارى والمحتالين، ودزينات الأولاد، المفضّلين لديها.

- على سبيل المثال يا قديستي، الدكتور يكمل سنة من عمره وأنتِ لا تملكين كروزادو [١] ولا فينتين. هل ستطلبين منه مالاً لتبتاعي هدية؟ هل فكرتِ: «تيودورو، يا بني [٢]، إعطني بعض النقود لكي أشتري لك سروالاً داخلياً وأقدّمه لك في عيد ميلادك؟ أنا يا حلوتي، لا أعطي زيه سامبايو هذه الوقاحة.

كانت الدونا فلور موافقة على هذا، إنه واضح. بيد أن ضيقها هو في وضع المال في المصرف، رقماً مسجلاً في دفتر صغير وليس نقداً حيّاً في متناول يدها فوراً. اختفت جواربها عن نظرها فجأة؛ كيف تعالج الأمر في هذا الدفتر الصغير البارد: في هذا الحساب ذي الفوائد؟ كانت لديها عاداتها القديمة، يجب أن تغيّرها الآن، إذ أن في قول الصديقة، عاداتها القديمة كانت عادات إنسان فقير، عادات امرأة موظف بائس وفوق هذا كله مقامر يبدد لها مكاسب المدرسة، عائشاً في ممارساته على حسابها، قوّاداً [٣] أكثر منه زوجاً؛ كانت عادات أرملة بلا سند يعيلها بعمله، منتزعة منه ما يدفع للأكل، للملبس، لإيجار البيت وللنفقات الأخرى. عادات الغجري، الناس التافهين، ولقد قال الدكتور؛ عادات الفقر، بلا مال للمصرف، للفوائد ودفتر الشيكات، حسب ما أكدته الدونا نورما.

---

(١) CRUZADO: عملة قديمة قيمتها أربعمائة ريس، أعيد تقييمها منذ الستينات بدلاً عن الكروزيرو.

(٢) تقال للزوج تحبباً.

(٣) GIGOLO: الرجل الذي يعتاش من جهد امرأته بطريقة غير محتشمة.

أما الآن، فقد تغيّر المركز الاجتماعي للدونا فلور وثروتها. وإذا لم تكن ثرية قادرة على التبذير، فهي أيضاً ليست فقيرة كما كانت قبلاً؛ حينما كانت في أكثر الأحوال، وبدافع التواضع، عائشة في الكفاف وجد مكتفية. لقد ارتقت دفعة واحدة عدة درجات، من أرضية الفقراء إلى المراتب العليا للجيران الأكثر نمواً؛ الأرجنتينيين أصحاب معمل السيراميك، الدكتور إيفيس مع عيادته الطبيّة ووظيفته العامة، آل سامبايو مع متجرهم الجيّد للأحذية، آل رواس ذوي المظهر الباعث على الحسد- وفي الوقت نفسه مع الارستقراطية في الجوار، من أجل فرح الدونا روزيلدا. أخيراً صهر حسب مقاسها وحسب قول السيد فيفالدو صاحب منشأة دفن الموتى، المحقق بشكل محترم، والمتطفّل دائماً على الوضع المالي للأصدقاء، فإن الدكتور تيودورو منوازن، رصين ومحب للعمل، ويمضي بعيداً.

- لن يلبث أن يستولي على الصيدلية كلها...

هكذا فُتح حساب للدونا فلور في الصندوق الاقتصادي، يتزايد كل شهر، وهكذا كانت بداية تدبير مضمون للمبادىء في حياتها. وكما كان يقول الصيدلي، الفوضى، الاضطراب، العادات غير المألوفة تحمل الزوجين على النقاش، على عدم التفاهم، وهما الخطوة الأولى للتنافر الزوجي، للمصاعب وللتباعد بين الزوجين.

كانت الدونا نورما تعتبره أقل من نظامي وأكثر من منهجي، مصرّاً على أن يكون كل شيء في موضعه وفي يومه بالضبط، عدواً للارتجال والمفاجأة، وحيداً إنما (إنما كما تراه الدونا فلور) في الرجل ذي الخصائص الكثيرة مستقيم، طيّب، ذو تهذيب رفيع، يعامل امرأته بكل احترام. خلاف ذلك تماماً، إنه ذو نظامية قاسية، من التي تثير المرء، كما هي بالنسبة إلى الدونا نورما، في تأخير أزلي، من دون عقرب تحديد الوقت في الساعة، أم الفوضى.

ضحكت الدونا فلور وهي تصغي إلى الصديقة التي تطري، في انفعالها غير المنضبط، توازن ونظام الدكتور: «زوج من هذا النوع أيتها المحظوظة، ليس ميزة ههنا، فقد سقط من السماء بسبب غفلة». حتى أن الدونا جيزا نفسها، الحقيقة العلمية الفجّة التي تزيّن الحي،

مع اتهامها إياه بالإقطاعي، اعترفت له بالخصائص:

- بالنسبة إليكِ فلورزينيا [1]، من تسعين قبل كل شيء إلى الأمان، من المحال أن تجدي أفضل منه.

في الواقع، في نظام باعث على السرور، بمساندة وإدارة من زوجها الطيّب، مع جميع التفاصيل في المحاور اللازمة، في اليوم المحدد لكل شيء، الساعة الدقيقة، كانت الدونا فلور تعطي الانطباع عن نفسها كمثال الزوجة السعيدة، لجميع الجيران.

جرت حياتها مطمئنة وبلا طوارىء، حياة هادئة وناعمة، وادعة، وقتها يخضع لتبسيط دقيق، برمجة كاملة؛ السينما مرّة في الأسبوع، أيام الثلاثاء، في عرض الساعة العشرين. وإذا وُجد أكثر من فيلم أحدث إثارة في الرأي العام وفي رأي جريدة «المساء» كانا يذهبان مرّتين، لكنْ نادراً وليس أبداً في العروض النهارية [2]؛ فالدكتور ما كان يحتمل الفوضى ذات الضوضاء من الفتيات والفتيان، الشباب الصاخب.

مرّتان في الأسبوع، على الأقل، بعد العشاء كان يجرّب بوقه لمساء أيام السبت، وهو مساء مقدّس، حين تجتمع الأوركسترا في منزل أحد الموسيقيين. كانت اجتماعات مرحة جداً وودودة، حول المائدة الثخينة لوجبات العصر - ربّة المنزل تبالغ في ضيافة الهواة - مع مرطبات وعصير الفاكهة للسيدات، وجعة بلا حساب للسادة، وأحياناً كأس عرق إذا كان الطقس بارداً أو إذا كان الطقس حارّاً جداً. فيجلس الحضور، من المعجبين بالمايسترو أو المقدّمين، «حضور منتقى» من الأصدقاء يصغون إلى مقاطع من الصوناتا والغافوتا [3]، الفالس والأغاني المنفردة، في انفعال التسلسل الموسيقي والألحان المتسقة، الذكية والمهيبة، من العزف المنفرد المعتنى به؛ ساعة سامية من الفن.

في الليالي الأخرى الخالية من الارتباطات يقومان بزيارات أو يستقبلان زواراً. وإذا

---

(١) تصغير لاسم فلور، ومعناها في العربية: الوردة الصغيرة.

(٢) MATINE: في الأصل «الصباحية»، وتستخدم العبارة للعروض الأولى التي تتم في النهار عادة.

(٣) GAVOTA: رقصة فرنسية جماعية يصاحبها الغناء.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صورة متخيَّلة مستحيلة، تفاهة.

مطبقاً عينيه كي لا يرى، وكانت الدونا فلور عندئذٍ تراه، زوجها تيودورو، مثل طائر هائل الجناحين وذي مخلب قوي، نسر أو كوندور[1] في طيران متوازٍ فوقها، ليأخذها ويعتليها ويمتلكها في الجو. انفتحت الدونا فلور شيئاً فشيئا للطائر الجارح. وإذ أحسّت به يتسرّب فيها، مخلباً قوياً لا يُقاس في رحمها ذي العصارة، وهي الحبيسة والطليقة، معها ارتقت سماء برونزية من النشوة المجزّأة.

إنما لم تكن النشوة كلها عفيفة لأن الدونا فلور عندما فكّت وثاقها تحللت أيضاً من التفكير الذي كان يمضي بها.

كانت هكذا ليالي الحب لدى زوجيها الطيّبين هذين، مع ضمان التكرار أيام السبت وجعل الأمر اختيارياً أيام الأربعاء.

---

(١) نوع من النسور الكبيرة الحجم تعيش في جبال الأندس في أميركا الجنوبية.

٣

عند عودتها إلى نازاريت داس فارينياس، بعد إقامة طويلة في باهيّا[1]، شهدت الدونا روزيلدا اليقظة الأوقات الأولى للحياة الزوجية الجديدة للدونا فلور، وأسرّت للدونا نورما بقلقها وعدم وثوقها.

صهر ممتاز، تحت جميع المظاهر، هو الدكتور تيودورو. لا يوجد أي شك حيال هذا. لكن هل ستكون الدونا فلـور على مستـوى القـريـن ذي الخصـائـص الكثيرة؟ لماذا لا؟ - إهتاجت الدونا نورما، الوفيّة لصديقتها، غير قابلة لها أقل انتقاد. فالدونا فلور في رأيها خليقة بالزوج الأكثر تكاملاً، الأكثر جمالاً وثراءً.

ومع هذا، ما كان يندلع في الدونا روزيلدا لهيب الحماس المتقد ذاته. فرغم أنها أم، ولهذا تميل إلى إعطاء العذر لابنتها وتقف إلى جانبها، ما كانت تعثر على الضمان اللازم لمرحلة نهائية ممكنة، ما كانت تشعر أنها جشعة للنفوذ الاجتماعي، قادرة على الاستفادة من مركز الزوج، من رصيده، من اعتباره، من علاقاته. كانت الدونا روزيلدا قد خرجت من البيت، وهي الآن متأبطة ذراع الدكتور، متنقلة بسهولة بين القاعات، الحدائق، حميمية قصور غراسا وبارّا، معاشرة أفضل الناس في باهيا، من النخبة، وهو حلم السيدة العجوز. أما قُدّمت الدونا فلور إلى آل تافيراس بيريس، أولم يقبّل يدها المليونير آدريانو، الحصان

---

(١) يطلق أهل ولاية باهيا اسم الولاية على عاصمتها سالفادور مجازاً مثلما يطلق المصريون اسم «مصر» على القاهرة.





بعد ذلك بأيام.

أُحبط مرّة أخرى مخطط الدونا روزيلدا في الإقامة مع ابنتها، فلم تردها قبلاً، وهي أرملة، ولا تريدها الآن وهي حديثة الزواج. وإذا كانت الدونا روزيلدا في المحاولة الأولى أظهرت نفسها مُهانة، قاطعة علاقاتها عملياً بالدونا فلور، فقد بلعت الآن الصفعة. فإغواء الحياة الجديدة لابنتها، مع بريق علاقاتها وسهراتها، كان طاغياً أكثر من اللازم، عادت إلى نازاريت، هذه حقيقة، لكنها قللت من زياراتها إلى العاصمة. وإذ حلّت ضيفة في « إست العالم » في ريو فيرميليو ذاك فقد كانت تجيء باكراً، قبل الغداء، إلى منزل الإبنة، لتثير حفيظة الجوار، في تزعّم عصبة الكائدات. وكانت تلبث ثمانية، عشرة أيام، الوقت الذي تجعله غير محتمل، من المشاجرات مع أختها، ثم تمضي مجدداً لتحيل حياة ابنها وكنّتها في ريكونكافو إلى جحيم. في نازاريت، كانت انهاكاتها المختلفة تُلخّص في وصف المستوى الاجتماعي السعيد للدونا فلور (« تعيش في مآدب غداء وحفلات، صديقة حميمة للدونا إيماكولادا تافيرا بيريس »)، في مديح للصهر الدكتور وكل ما يمثله، من قسطه الوافر في الذكاء إلى حالته المالية التي يُحْسَد عليها، الحضور الخليق بالبوق الخارق للمألوف، راوية بتفاصيل التمارين الأسبوعية لأوركسترا الهواة، وتذوب في ابتسامات، ويسيل لعابها في تعليقات:

ـ تلك، أجل، إنها لموسيقى...

كانت تقول ذلك لتمجّد الأغاني ذات الصوت الواحد [1]، وذات الإيقاع المنفرد [2]، الكونشرتو [3] من مجموعة راقية، يتعايش هويندل، ليهار وشتراوس مع أوتيلو آراووجو ومع المايسترو آجينور غوميس، وهما مؤلفان موسيقيان محليّان أقل شهرة في العالم الخارجي، لكنهما ليسا أقل إلهاماً. كانت تقولها أيضاً في تظاهرات ازدراء للموسيقى الأخرى، موسيقى السامبا والأغاني، موسيقى الأغاني الشعبية، موسيقى « زيه بوفينيو » ـ مع بصقة

---

(١) ARIA

(٢) ROMANZA

(٣) CONCERTO : حفلة موسيقية تحييها أوركسترا.

احتقار - ولعازفي القيثارات [١] والكافاكينيو [٢] الأكورديون والطبول، زمرة المشرّدين. عندما تقول ذلك، تضع مسافة، تسجل فرقاً بين أوركسترا الهواة - التي ينتسب إليها الدكتور فينسزلاو بيريس دافيغا، الطبيب الجرّاح المشهور، الدكتور بينيو بيدريرا، قاضي العاصمة، والمليونير صاحب شركة لبيع السلع بالجملة، مع قصر في غراسا وسيارة مع سائق وحامل لقب الكوميندادور من البابا آدريانو بيريس - الحصان الأبيض - زوج إيما كولادا النبيلة، «التي هي الأولى من قبل والأولى دائماً، القمة الأوبالية» [٣] (في التعبير السعيد لسيلفينيو لامينيا، مذيع الراديو ومحرر «الاجتماعيات» في جريدة الشاعر الخجول أودوريكو تافاريس)، عن الدونا إيماكولادا تافيرا بيريس، بوجهها الشبيه بوجه الحصان الهرم ونظارتيها [٤] فوق الأنف ومدبّرة منزلها السويسرية والمشردين الذين يقومون بالعزف على أدوات موسيقية في الهواء الطلق وفي اضطراب، وهم سكارى حتى الثمالة.

في ما خص الزواج الأول لابنتها (إذا كان بالوسع تسمية ذلك زواجاً) كان عليها أن تتحمل العرق والكلام البذيء من أولئك العاطلين، يا لها من سفالة، خدود تنم عن المجون والدلع ؛ جينر آوغوستو، كارلينيوس ماسكارينياس، دوريفال كايمي. ومن مرّة لأخرى، كان رجل متخرّج من جامعة وينتمي إلى عائلة يحشر نفسه في تلك الزمرة وفي الحال يكون أسوأ الجميع مثل الدكتور فالتر دا سيلفيرا، ذلك من تذكر الدونا روزيلدا وجهه الصقيل بالحقد. فقد سمعت وهي في نازاريت ثناءً على معارف سيلفيرا القضائية، مستوى رفيع في القوانين وهو رجل مهيب. ليصدق من يشاء، إلاّ هي، الدونا روزيلدا، التي رأته ينفخ في المزمار وصلة من السيري - بوسيتا، فيا له من صفيق!

لقد صارت مناهضة للموسيقى، بسبب هذا السافل، بحيث جعلها تتخذ ردة فعل عنيفة إزاء أول نبأ عن المزايا التي يحوزها الصهر: «شخص لا يرجى منه إصلاح، عازف المزمار». مرّة أخرى بالتأكيد، البنت البلهاء، بلا عقل وبلا حياء، سوف تقيّد نفسها

---

(١) VIOLAO : نوع من الغيتار له ستة أوتار، قريب الشكل من حرف 8 .

(٢) CAVAQUINHO : آلة موسيقية ذات أوتار يعزف عليها بالأصابع، شبيهة الشكل بـ VIOLAO وصوتها شبيه بالغيتار.

(٣) نسبة إلى OPAL : حجر كريم يعرف بعين الهر.

(٤) LORNHAO : نوع من المونوكل المزدوج البصريات يعلق فوق الأنف.





إلى النفقات ولا إلى الجهد.

كانت على ما يرام في نازاريت، لكنْ مع هذا الصهر الجديد، تفضّل سالفادور، ولكي تبقى هناك أعدت الدونا روزيلدا خطة حملتها. جعلت نفسها مداهنة وموعزة بأنها على أتم الاستعداد للخدمة وطيبة القلب، مكرّسة نفهسا للصيدلي. والدكتور تيودورو، مبدئياً، قد تأثر. في حديث مع صديقه روزالفو ميديروس، ممثل[1] المختبرات، قال له إنه قد كسب بزواجه، ليس الزوجة الأكثر اكتمالاً وحسب، إنما أيضاً أمّاً ثانية، حماته، تلك العجوز القديسة.

- مَنْ؟ - ما كان روزالفو الفالح يصدّق أسماعه - من هي العجوز القديسة؟ الدونا روزيلدا؟ - أخذ في الضحك مثلما فعلت الدونا آميليا في يوم الخطوبة. يسمع المرء كل واحدة... الدونا روزيلدا، مخلوقة مقدسة، إنه فقط تيودورو بالذات مع سذاجته...

لكنْ حتى ولا الدكتور تيودورو نفسه خُدع لوقت طويل. فسلاطة اللسان، والميزة بالمكيدة، الإثارة الدائمة للدونا روزيلدا فرضت نفسها على ابتساماتها المعسولة وكلماتها الماكرة، فبدأ الصهر يدرك لماذا الضحكة المنفلتة والخبيثة من الدونا آميليا وروزالفو. حدث هذا عندما كلّمته الدونا روزيلدا، بكثير من الأدب، عن عدم ملاءمة البيت الصغير، مع الحجرات القليلة جداً. فلماذا لا يستأجر مسكناً خليقاً بإمكاناته وعلاقاته؟ أكثر اتساعاً، مع غرف أكثر عدداً؟

وأفهمته، بمهارة، أن الدونا فلور لم تكن قانعة بذلك البيت الضئيل بأسباب الراحة، المليء بالذكريات الرديئة، وانها فقط ما كانت تريد إزعاج الزوج، فلاذت بالصمت محبطة.

استغرب الدكتور تيودورو الاقتراح الفاسد من الحماة، وأكثر من ذلك أيضاً، الغضب المزعوم للزوجة. وما كان عرضاً أن كانت الدونا فلور الأولى في إبراز ملاءمة ومزايا البقاء هناك؛ الإيجار رخيص، نفس الإيجار منذ ثماني سنوات، وموقع البيت، على بعد خطوتين من مستودع الأدوية، علاوة على أنه صار عنواناً معروفاً لمدرسة الطهي تذوّقٌ وفنٌ، وفيه

---

(١) REPRESENTANTE ممثل مؤسسات تجارية أو غيرها، وكيل أو معتمد.

مطبخها الموافق للتلميذات، مع موقد على الغاز وموقد على الحطب. فلماذا بيت أكبر إذا كانا إثنين فقط؟ لماذا السعي إلى مزيد من الجهد والنفقات، إذا كانا هناك قادرين على استيعاب المرح، هي وزوجها ورغبتها في السعادة؟ هكذا ناقشت الدونا فلور وهي ما زالت عروساً، متواضعة ومتعقلة.

لماذا إذاً هو التبدل المفاجىء؟ لماذا المضيُّ إلى التبذير في بيت كبير يتطلّب جهداً كثيراً وهو غالٍ؟ لماذا هذا الترف فوق قدراتها؟ لكي يجعل المرء نفسه شخصاً مهماً؟

الدونا روزيلدا، في فصاحتها المضطربة تكلّمت عن ميزة أن يجعل المرء نفسه «شخصية معتبرة». وكان الدكتور تيودورو حسّاساً إزاء النقاش، شاعراً بغيرة ناتجة عن الامتياز والتقدير، خائفاً من نقد المجتمع. بينما الدونا فلور لم تكن تبدي اهتماماً إلى مثل هذه الأمور، فقالت له ـ حينما تناقشا حول المدرسة ـ لا تُقاس قيمة رجل ما بالشكل، بمظهره، بل بما يساوي هو في الواقع.

ما دامت هكذا، كيف تبدو مغايرة، مع شكاوى ومطالبات؟ أصغى الدكتور تيودورو بانتباه إلى كلام الحماة السمج، ولم يشأ التداول في الموضوع:

ـ ما كنت أدري، يا حماتي العزيزة، بهذا القصد لزوجتي العزيزة ولا أرغب في مناقشته، لكنْ بوسعي القول لها سلفاً إن كل شيء سيُحَل وفق ما ترغب فلور.

ترك الدونا روزيلدا مغلّفة بالتفاؤل، وانسحب حزيناً إلى مستودع الأدوية. وإذا كان تبدل رأي الدونا فلور قد باغت الدكتور تيودورو، فإن تصرّفها أزعجه. فلماذا لم تقل له هي بالذات، بإخلاص وصراحة؟ لماذا أوفدت الدونا روزيلدا ناطقة باسمها؟ وما كان الصيدلي يرغب في أي شك، في أي سوء تفاهم على أقل الأمور شأناً بينه وبين الزوجة. كان يعدّ نفسه ليزوّدها حين يستطيع بما يرضي رغباتها، حتى ولو بدت له نزوات، ضمن حدود إمكانياته وحتى مع بعض التضحية. لكنه يلحُّ على الإخلاص، الصراحة، الثقة. لماذا الثالثون، لماذا الوسطاء بينهما إذا كانا زوجاً وامرأة؟

كان الدكتور تيودورو، في قعر الصيدلية يحرّك سكيناً لسحق العقاقير، يجزىء مواد،





ـ في هذا البيت يا عزيزي، أنا وأنت فقط، ولا أحد سوانا. فمن هنا لا نخرج إلاّ إلى بيت يكون خاصتنا. وبالحري، الأفضل، حينما يكون بقدرتنا، هو شراء هذا المنزل ذاته...

تنفّس الصيدلي مخففاً عنه ما يحسّ به من ضيق. فمن أجل الدونا فلور سيكون قادراً على التضحية، حتى احتمال الدونا روزيلدا ومكائدها. لكن لحسن الحظ، فقد اتضح كل شيء. إن الدونا فلور لن تتغيّر، المتواضعة في رغباتها، والمقتصدة في نفقاتها، الفطنة. وعندما وقفت الدونا روزيلدا على تطوّر رأي الدكتور تيودورو، تحللت القديسة العجوز إلى سم. وما كان زوج الأخت، المدعو موررايس، بلا سبب، بقي في الريو، غير مستعد للعودة إلى باهيّا إلا حين تغادر الحياة. حيث الأمل الوحيد المتبقي هو الموت. إذ في مسألة الدونا روزيلدا، في رأيه، لا يوجد أي تعديل.

الدكتور تيودورو، مع هذا، أقل تجربة وأكثر لطفاً، ذو تهذيب رائع، قال في رقة أخيرة:

ـ أمور المرأة العجوز... مسكينة... في عمرها...

داعبت الدونا فلور يد زوجها، الرجل الكثير الطيبة:

ـ ليست مسألة عمر يا عزيزي... فهي هكذا دائماً... إنها أمي، ليس بوسعي الكلام عنها، فالإبنة لا تستطيع... لكنها دائماً في مثل هذا الطبع، مذ كنت فتاة صغيرة... حتى ولا أبي تحمّلها وكان قديساً. فإذا دسّت نفسها ههنا يا تيودورو فإننا سننتهي إلى الخصام...

ـ نحن الإثنين؟ أبداً، يا عزيزتي، أبداً...

تطلّع إليها وهو متأثر تقريباً، في حنان:

ـ لن نتخاصم أبداً... فلن يخبىء أحدنا شيئاً عن الآخر، مهما حدث. سنأخذ في الحسبان كل شيء، كل شيء...

قبّلها من شفتيها بشكل خفيف.

ورددت الدونا فلور بهمس:

- كل شيء ...

ابتسم الدكتور تيودورو وهو راضٍ كلياً، ونهض ثم مضى يطفىء النور. «كل شيء يا تيودورو؟ هل تعتقد أن هذا ممكن؟ حتى الأفكار الخفيّة أكثر من غيرها، حتى تلك التي يخفيها الشخص عن نفسه ذاتها، يا تيودورو؟» رأت الدونا فلور صدر زوجها القوي تحت المنامة، عظمتيْ الكتفين العريضتين، قمة الرأس الصلبة، عضلات الذراعين. فعضّت على شفتيها، وحاولت إبعاد تفكيرها، إذ أن اليوم هو الإثنين ولم يكن يوم هذه الأمور. فالدكتور نظامي يواظب على هذا وفي كل نظام كامل. إنه جد طيّب وسخي، إنما جد مرهف ويقظ، ومتيّم جداً بها إلى درجة تحمّل الدونا روزيلدا... مثل هذه العبادة تكافأ بنظاميته، بتوقيته الصلب، قواعده، أعرافه.

- «ليس كل شيء يا تيودورو، فأنت لا تعلم أي بئر معتمة هو قلب المرء».

٤

اكتشفت الدونا فلور عوالم مجهولة لا تكتنفها الريبة، وتسللت إليها تحت ذراع زوجها، لتغدو شخصية لامعة، «زينة لطيفة»، كما كتب عنها، بشكل عادل ولطيف، آخذاً في الحسبان حفلة آل تافيراس بيريس، صديقنا المتطلّب سيلفينيو، في إشارة لا بد منها.

لم يسبق لها أبداً أن وُجد كونٌ مقتصر على الصيادلة، محكم الإغلاق وساحر؛ بمواضيعهم الخاصة، نظرتهم المميّزة إلى الحياة، لغتهم الذاتية، جوّهم العابق بالنيترات وكلوريد الزئبقوز. كونٌ عاصمته وقبّته الجمعية الباهيّانية للصيدلية، مع مقر خاص، طبقة بكاملها من مبنى، محدد مع عوالم أخرى، مهمة تقريباً مثل الأطباء، طائفة كفوءة وقادرة، مفيدة لعمل الآخرين. أجل، ماذا يساوي الأطباء ـ كان قادة علم الصيدلة يتساءلون ـ إذا لم يُوجد الصيادلة؟ لماذا إذاً هذا الوضع المختال، هذا التبجح؟ ومثلهم بالتساوي متكبرون، ممثلو المختبرات؛ مجاملون ووضيعون، مع الكبار وفي ساعة البيع، غير مبالين بالصغار وأحياناً غليظون في ساعة تحصيل سند متأخر السداد. وكانوا أكثر لطفاً مع الباعة الجوالين [1]، مع حقائب العقاقير والنكات الأخيرة. جميع هؤلاء الناس، من الجامعة والتجارة، بألقابهم، أموالهم، موقعهم، كانوا ينتصبون فوق أرضية شاسعة من الرسميين والباعة في الصيدلية، بمرتبات بائسة.

في عبورها أمام الصيدلية العلمية، عند اجتياز رصيفها، عند حصولها على أنبوب

(١) CAIXEIRO-VIAJANTE: البائع الذي يسافر في المناطق الداخلية يحمل نماذج من البضاعة يعرضها على المتاجر بأسعار الجملة.

معجون الأسنان أو صابونة معطّرة، ما كانت الدونا فلور تتبيّن قبلاً قط الرائحة القوية لدلك العالم من العقاقير في تنفسها.

عالم كان يعمل فيه بجد زوجها، مدعوماً بشارة الدكتور (وأكثر من ذلك في المعارف الناتجة عن المارسة الطويلة في المختبرات ومنصّات البيع)، في مقدرته على العمل وفي استقامته، ساعياً إلى الحصول على مركز مالي وشهرة علمية معيّنة. مركز متواضع، إسم متواضع، لكنهما كافيان في الوقت ذاته ليفتحا للدونا فلور أبواب ذلك العالم من اليود والسولفات، ليجعلها نافعة للبرامج الثقافية والمسلّية للجمعية الباهيّانية للصيدلة، الجمعيات العمومية في المركز الخاص، مع مطالعة ومداولة للمقترحات والأعمال حول مواضيع علمية أو مهنية، مآدب الغداء، في أوقات احتفالية ـ تسلّم الإدارة الجديدة، يوم الصيدلي ـ حفلات يجتمع فيها المدراء والمشتركون (مع عائلاتهم) في «أخوية الطبقة» الصاخبة كما يردد المعصوم الدكتور فيريرا، في خطابه المنزّه عن الخطأ. من غير نسيان حفلة الرقص التي تقام في نهاية السنة، في كانون الأول، قبل عيد الميلاد.

ترددت الدونا فلور بمواظبة معيّنة بلا مغالاة، على المكان لسماع المقترحات وحضور المآدب. وأقامت علاقات مع زوجات زملاء زوجها، فزارت بعضهن وزارها البعض الآخر، مثمّرة تبادل الود هذا مع ثلاث أو أربع صديقات وتلميذة فقط.

الدونا سيباستيانا، الزوجة والذراع القوية للدكتور سيلفيو فيريرا، الأمين العام للجمعية ومشجعها الإعلامي [١] الرئيسي، وهي امرأة ضخمة الجسم مرحة، لها صوت راعد وضحكة معدية. الدونا ريتا، السيدة زوجة تانكريدو فينياس، صاحب صيدلية سانتا ريتا، كوّنت مع الزوج زوجين هزيلين لطيفين، هو يدخن السيجارة إثر السيجارة، وهي بسعال خفيف من سلّ ما عولجت منه نهائياً. الدونا نيوزا، نيوزوكا الشقراء ذات العينين الفرحتين، كانت امرأة ر. ماسيدو وشركاه. وقد تأسست الشركة من قبل موظفين في التجارة، وقد قذفت الدونا نيوزا نفسها إلى موظف ناشىء في التجارة. وجُمع منهم مجموعة وأعادوا تعميدها بأسماء الأدوية الأكثر رواجا حسب الموضة. فقد وجد إكسير الإنيامي [٢]، الخلاسي الغليظ،

(١) ANIMADOR

(٢) INHAME: نبات طبي وغذائي من فصيلة ARACEA.

« بروميل » يشبه ولداً يافعاً جداً وهشاً ، لا يزال أمرد وبريئاً ، جوهرة ثمينة من مجموعة نـادرة . « ليندو » كان مرهم سكوت [1] ، « لابريغو » حديث الوصول من أراضي قشطلة [2] ، بخدّين كالتفاحة . صحة المرأة كانت « فريازا » الصغيرة التي ترافقها عندما تكون هي في طور النقاهة من التهاب الكبد . وكان موجوداً أيضاً منظّم عملية الهضم « جيستيرا » ، صابون « كابوكلو » - زنجي صغير أزرق ، آه يا سيدتي العذراء ! « الطلق المضمون » ، « الشافي العجيب » . هذا الأخير مثّل إغراءً من الدونا نيوزا لطبقة الباعة النشيطة في الصيدلة ، التي كانت حتى ذلك الحين احتكاراً ؛ طالب في معهد أبحاث فاجر في عطلة في الجوار ، كان يحوز لنيوزوكا الشرهة مذاقاً مضاعفاً للخطيئة ضد قانون البشر وضد شريعة الله .

الدونا باولا زوجة الدكتور آنجيلو كوستا صاحب صيدلية غواياس ، قدمت لدراسة الطهي في « التذوّق والفن » مظهرة ميلاً كافياً . كانت هي التلميذة الوحيدة المتحدّرة من عصبة الصيدلة . أخرى ، هي الدونا بيرينيسي ، بدأت المرحلة الدراسية لكنها سرعان ما تنازلت ، غير قادرة على التمييز بين الفيليه وشريحة من فخذ العجل .

مع الدونا جيرتروديس بيكر ، زوجة الدكتور فـريـديـريكـو بيكـر ، مـالـك شبكـة مستودعات الأدوية [3] هامبورغ - أربعة في المدينة العلوية وواحد في المدينة السفلى ، وآخر في إيتاباجيبي - ممثل المختبرات الكبرى الأجنبية والرئيس الدائم تقريباً للجمعية ، ملك المغنيسيا [4] والأوروتروبين ، لم تتبادل والدونا فلور الزيارات . إنما كانت الدونا جيرتـروديس تنزل فقط عن عرشها مرّة واحدة في السنة ، حينما تلمس في حفلة كانون الأول الراقصة ، بأطراف أصابع يدها تلك البرجوازية الصغيرة المحزونة والجشعة التي كـان زوجها يمارس ذاتيته في العمل معها . أما بالنسبة إلى الدكتور فريديريكو ، فإذا ما كان يأتي إلى مآدب الغداء مع المياه الغازية والنبيذ من ريو غراندي [5] ، فإنه ما كان يتخلّف عن اجتماعات الجمعية ، مترئساً لها ، معطياً الكلمة الأخيرة حيال أي شأن .

---

(١) EMULSAO DE SCOTT : مرهم شائع الاستعمال في البرازيل في معالجة الروماتيزم بالتدليك .
(٢) GALICIA : مقاطعة في إسبانيا .
(٣) DROGARIA : تطلق على الصيدلية أيضاً .
(٤) MAGNESIA : أكسيد المغنيسيوم .
(٥) ولاية في الجنوب البرازيلي مشهورة بصنع الخمور .

كان ألمانياً قصير القامة، ذا عينين زرقاوين وعذبتين ونبرة فظّة. وقد راجت أساطير حول ثروته وأيضاً عن لقبه كصيدلي، المزوّد به من المدرسة الألمانية البعيدة حينما كان صاحب ثلاث صيدليات. وكان يعبد الأطفال، فيتوقف في الشارع ليعطيهم أقراص الحلوى[1] التي كان يجلبها دائماً في جيوبه الملأى.

ما كادت الدونا فلور تكمل الشهرين على زواجها حينما ارتقت للمرّة الأولى السلالم التي تؤدي إلى قاعات الجمعية الباهيّانية للصيدلة، في الطبقة الثانية من مبنى على النمط الكولونيالي في «تيريرو يسوع». وفي الطبقة السفلى أقيم «مركز الإيمان الروحاني»، «أمل وإحسان» في منافسة ضارية مع الصيادلة، حيث أن وسطاء روحانيين وإخوان النجوم يقومون بشفاء جذري من جميع الأمراض على قاعدة وصفات ميتافيزيقية، مهملين العقاقير المنزلية، الأدوية المصنّعة والحقن.

وكانت الدونا فلور ستحظى بفرصة وحيدة تشهد فيها المداولة المؤثرة التي ستثار تلك الليلة في اجتماع الجمعية الباهيّانية للصيدلة، حول عمل الدكتور دجالما نورونيا، خازن النادي: «عن الممارسة النامية من قبل طبقة الأطباء في المنتجات الصناعية، مع انحدار متتال لعملية الوصفات الطبية اليدوية، والعواقب غير المتوقعة الناتجة».

لقد وجدت طبقة الصيادلة نفسها منقسمة إزاء تلك النزعة من أغلبية طبقة الأطباء، حيث أن البعض متحمسون للأدوية المصنّعة والمعبأة في مختبرات الجنوب[2]، وآخرين من أنصار العقاقير المركّبة التقليدية، المعدّة مقاديرها بصبر في أعماق الصيدليات، التراكيب المكتوبة والملصقة على الزجاجات والعلب، ويضمن الصيدلي الإنتاج بضمان إحتياطي لتوقيعه.

خلال الأسبوع لم يكن لدى الدكتور تيودورو موضوع آخر، حيث أنه نفسه أحد أبطال المدرسة التقليدية. «ما قيمة الصيدلي، عندما تتواجد منتجات مصنّعة؟ لن يغدو أكثر من

---

(١) BOMBOM

(٢) المقصود في الجنوب هنا، جنوبي ولاية باهيا، أي ولاية سان باولو وولاية الريو.

بائع على منصّة البيع، مجرد بائع في صيدلية»، كان سيصرّح بذلك في الاجتماع وهو مثير للشجون.

في الميدان المضاد، المدافع عن تصنيع الأدوية (وحتى عن تأميمها) اتفاقاً مع الأزمنة العصرية والتقنية المتقدمة، كانت للدونا فلور فرصة سماع الدكتور سينفال كوستاليا، الذي كانت اكتشافاته الخاصة بكليات الطب عن نبات الجوروبيبا[1] قد منحته شهرة واسعة، والكلمة السيّالة والحماسية لإيميليو دينيز الذائع الصيت.

ـ إنه ديموستين[2]! برادو فالاديس!

ومثله بالتساوي الحزب الذي فيه الصفوف العلمية الميّالة إلى القتال، القوي بذوي الإدراك، اصطفت إلى جانب عزيزنا مادوريرا، وتكفي الإشارة إلى إسم الدكتور أنيتوجينيس دياس، المدير السابق للكلية، مؤلف الكتب، العجوز ابن الثماني والثمانين من عمره، إنما لا يزال يتمتع بقوى ليؤكد:

ـ أدوية مصنوعة بالآلة لا تدخل صيدليتي...

لم يكن يدسّ نفسه في صيدليته منذ عشرين سنة والأبناء ما كانوا فقط يشترون ويبيعون أدوية مصنّعة، إنما كانوا أيضاً ممثلي المختبرات القادرة في سان باولو، في باهيّا. وكانوا يوضحون: «إن العجوز لرجل خرف».

ربما كان الجاحدون مصيبين، فالعجوز كان ذا عقل رخو، يضحك بلا سبب. لكنّ الدكتورين آرليندو بيسووا وميلو نوبري كانا لامعين وكفوئين ـ رأسان من الدرجة الأولى! ـ والدكتور تيودورو نفسه، من اسمه يجب ألاّ يكون موضوعاً للنسيان غير العادل بالواقع البسيط للغايات كبطل شهير لهذه الوقائع التاريخية المتواضعة للعادات. علاوة على ذلك حينما اعترف هو بالذات للزوجة بامتلاك سيطرة كاملة على المادة المتداول فيها، مبرزاً مرةً أخرى أهمية الجمعية العمومية؛ كان على الدونا فلور أن تعتبر نفسها سعيدة لكون

---

(١) JURUBEBA: شجيرة من فصيلة «سولانوم غرانديفلوروم».

(٢) من خطباء الاغريق المشهورين في العصر القديم.

الفرصة قد أُتيحت لها في حضور المداولة التاريخية.

تاريخية وأكاديمية، حسناً، مثلما قال الدكتور تيودورو نفسه للدونا فلور، فلا هو ولا أي كان من المدافعين الأشد حرارة عن عملية الوصفات الطبية المركّبة باليد يتركون أمر الحصول في صيدلياتهم على منتجات المختبرات. ما العمل أمام المنافسة، إذا أهملوا الاستفادة في منشآتهم من هذه الأدوية اللعينة الرائجة حسب الموضة؟ فمركزه في المداولة كان هكذا بنقاء، ذو مبادىء، مجاني، نظري، فلا شيء بالوسع مع الممارسات الملحّة للتجارة، إذ ليس دائماً يا عزيزتي فلور، ممكن التوافق بين النظرية والممارسة، والحياة ذات مقتضيات قذرة.

لم تشأ الدونا فلور تعميق هذا التناقض بين النظرية والممارسة، قابلة تأكيد الدكتور: «ولهذا السبب بالتأكيد لا يزال مركز المدافعين عن عملية الوصفات الطبية التقليدية جديراً بالثناء». وفي ما خصها هي، كانت مقلّة في الأدوية وفي عافية جيدة، ولا تذكر متى كانت مريضة (ما عدا الأرق أيام كانت أرملة).

كانت في الواقع ليلة تستحق الذكر، كما أعلن الدكتور تيودورو وأخذوا في الحسبان الجرائد. اهتمام مقتضب، موجز ـ شكا دكتورنا عند رؤيته خطبه الحاسمة وجميع خطب الآخرين عُصرت في جملة واحدة باهتة مع أسماء غير مكتملة: «قام بالمداخلة في النقاش، بين آخرين، الدكاترة كارفاليو، كوستاليما، أ. دينيز، مادوريرا، بيسووا، نوبري، تريغيروس». خطاب الدكتور فريديريكو بيكر فقط استحق بعض البروز، الثناء على «وضوح بيانه، معارفه القيّمة، منطق تفكيره». لماذا كل هذا الازدراء. من الصحافة للثقافة، لماذا كل هذا الاقتصاد في المساحة ـ كانت ردة فعل الدكتور تيودورو ـ فيما كانت تفيض صفحات الجرائم الأشد نتانة والفضائح العارية لكواكب السينما، طلاقهن العبثي. نموذج سيّىء لفتياتنا؟

محضر واسع، مع تحليل رحب للمداولة عُثر عليه في المجلة البرازيلية للصيدلة في سان باولو (السنة الثانية عشرة، المجلد الرابع، صفحة ١٧٩ إلى ١٨١) المموّلة من قبل المختبرات الكبيرة، غير مخفية موقع المجلة لمصلحة المنتجات المصنّعة. ولم تهمل، مع هذا، منح إبراز عادل «للمداخلات اللامعة من الدكتور مادوريرا، الخصم الذي لا يلين

والعلاّمة » ـ من قالت هذا ، بكل سلطتها ، هي المجلة البرازيلية للصيدلة ، وليس نحن ، الذين لا نشترط شيئاً على الدكتور.

لقد بذلت الدونا فلور جهداً كثيراً لتتابع ولتفهم المداولة المندفعة ؛ وتحكم الحقيقة بأن تقال إن هذا لم يكن ممكناً حباً بالزوج وحباً بنفسها . كانت تحب إبقاء اهتمامها حبيساً للخطباء ، لكنها تجهل استخلاص المخارج النظرية والتراكيب ، وترنّ في سمعها تلك الكلمات والجمل في لغة ميتة قاسية ، ولم تستطع تركيز انتباهها في الخطب.

أضاع تفكيرها نفسه متشرداً في مواد أقل فلسفة ، ذاهباً إلى مشكلات المدرسة ، مع القال والقيل من ماريا أنطونيا المسلّي جداً (حدا بها الأمر أن تبتسم في وسط المجادلات القوية من الدكتور سينفال كوستاليا ، ذي نبتة الجوروبيبا) والقلق على ماريلدا التي هي في كل مرّة أكثر عناداً وقلّة اصطبار في تصميمها على عرض نفسها أمام مكبرات الصوت ، نموذج ـ حسب الدكتور تيودورو ـ التأثير السيّيء لممثلات السينما على الشبيبة . لقد غدت وقحة وغير مطيعة ، وأقامت علاقات مع شخص من الوسط الإذاعي . أوزفالدينيو ميندونسا ، هو الشخص الذي لوّح لها ببرامج ومخبوءات . الدونا ماريا دو كارمو بدورها : كانت تمارس مراقبة كلّية على أقل الخطوات والحركات شأناً من التلميذة ، فارضة عليها العقاب مانعة إياها من الخروج من المنزل.

حينما تنبهت الدونا فلور إلى ذلك ، فإن الذي كان أمام مكبّر الصوت ليس ماريلدا ، بل هو الدكتور تيودورو . حاولت تتبع مجادلته متفهمة النقاشات التي فيها كان يربك الخصوم . الوجه الحزين ، المحيّا الحذر ، الحركات المهذبة حتى عندما تكون نارية ، كان صورة رجل وقور ، صورة مواطن متكامل يقوم بواجبه ـ في هذه اللحظة ـ واجبه كصيدلي ، مشرّفاً دبلومه كدكتور (حتى ضد مصلحته كتاجر).

دائماً يقوم بواجبه ، دائماً مواطن متكامل . في العشية ، ليلاً ، بنفس الكفاءة والرصانة ، قام بواجبه كزوج أمام الزوجة في السرير . لكونها متوترة ، ذات حساسية إزاء الزهرة غير المتفتحة (قدمت ماريلدا وهي تعاني نوبة من الدموع والشهقات وتتكلم في الإنتحار : « إما الغناء في الإذاعة أو الموت » ، هنا هو مكانها الذي تتعصّب له) كان ذلك يعني بشكل

متعقل للزوج، في الدلع والمكر، رغبتها في التكرار، في تلك الليلة الإختيارية، إذ كانت الأربعاء.

أحسّت بالهزّة السريعة للدكتور، لكنْ بما أنها قد قطعت صلاتها بالوجل والخجل، مظهرة اشتياقها، تمسّكت به. ومن دون تردد بعد، لبّى الدكتور رغبتها وللمرّة الثانية قام بواجبه بشكل لذيذ.

فهمت الآن الدونا فلور، في قاعة المداولات، سبب عدم تصميم زوجها: كان يرغب تجنّب التعب، يريد إبقاء جسده وعقله براحة من أجل الليلة التالية، في الجمعية. فبين واجباته المختلفة يقسّم هو الوقت والجهد.

إن تكرار العشية لم يتعبه، مع كل هذا، حيث أنه كان ثابتاً في المنبر يثابر بلغة لاتينية سيّئة (أم لعلها الفرنسية تلك اللغة؟): «لاناتاغلو كوزيدا ث مساوية لإيتانويكو غلوكوز ثم ديجيتو كسوس ثم ديغو كسيجينوليدا»، تركيبات ترن في السمع كقصائد بربرية.

كانت تراه مهيباً وحزيناً، الدكتور، بيونانيته ولاتّينيته، والأصبع مشيراً، والزملاء يصغون إليه بانتباه واهتمام، فقدّرت الدونا فلور ما للزوج من أهمية. إنه ليس أياً كان، حسناً ما قالته الدونا روزيلدا، والجيران على حق. يجب أن تفتخر به، تشكر العناية الإلّهيـة التي بعثت إليها زوجاً طيّباً جداً، إنها عطية من السماء. إنها بلغت أكثر مما ترجو في الوقت اللازم، حين لم تحتمل حالتها كـأرملـة، وهـي على أهبـة شحـن زنبرك أي رجـل وقـح وتشجيعه، على فتح أبواب بيتها وفخذيها لأول متشرد باهت اللون متضرّع، مثل الأمير إدواردو المختص بالأرامل. ولقد حانا الله، حيث أنقذنا!

لو لم يظهر الصيدلي على منصة البيع في الصيدلية العلمية في يوم المهرجان الكرنفالي للطلبة الجامعيين الجدد، لكانت هي، الدونا فلور، بدلاً من أن تكون هناك، محاطة بالتقدير، في تلك القاعة حيث يناقش دكاترة لامعون مواضيع في المعرفة، لكانت من المحتمل تنتقل من يـد إلى يـد في شقـق العـازبين، في تحلـل وشـذوذ، مضيعـة شرفهـا، صديقاتها، تلميذاتها، ومنتهية من يدري أين... ترتعد رعباً من ذلك التفكير. كفّاهـا في نهاية خطاب الدكتور تيودورو لم تصفقا حماساً وحسب إنما امتناناً. فقد أنقذها هو، إنه

رجل محترم. يجب أن تعتز بزوجها.

من الطاولة التي يجلس إليها الرئيس وأمناء السرّ حيث عاد، بحث الدكتور تيودورو بعينيه عن الزوجة وتقبّل الحافز لابتسامة، مكافأة أكبر لجهده وبريقه. واستمرت المناقشة؛ يشغل المنبر الدكتور نوبري، الرأس ذو المخ الكبير من دون شك، لكنّ الصوت هامس وغير منتمٍ إلى جنس[1]، في نغمة ضعيفة، دعوة لا تقاوَم للنعاس.

أرادت الدونا فلور التحرك لكنَّ جفونها تثقل في كل مرّة أكثر من ذي قبل. كان أملها الأخير هو الدكتور دينيز، الخطيب المشهور منذ أوقات التلمذة، الأستاذ الملحوظ، مؤلف «غالينيكا ديجيتاليس ـ كومونيا وستابيليستا»، رسالة محددة. لكنّ لا هو ولا الآخرون الذين شاركوا في المداولة استطاعوا تجنّب نعاس الدونا فلور. وليس الدونا فلور وحدها، فالدونا سيباستيانا تغفو في نعاس منفلت؛ صدرها العظيم يرتفع ويهبط والهواء يهرب من فمها بصفير. والدونا ريتا ذات عينين ضيقتين، ومن آن لآخر تحرّك جفناً فتستيقظ بوجل. والدونا باولا تقاوم ذات وقت، ثم تستسلم، ورأسها على كتف زوجها. وحدها الدونا نيوزا، بعينيها العميقتين اللتين تحيط بهما بقع صفراء، نضرة ومرتاحة إنما هي لا تحسّ حرارة ولا رتابة التراكيب والمفاهيم، كما لو أن جميع ذلك العلم كان مألوفاً لديها. فعيناها تصاحبان الغلام الموظف في الجمعية في ذهابه وإيابه يعبىء بالماء كأساً موضوعاً على المنبر، من أجل الخطباء. وقد اختارت له لقب: ٩١٤، وهو حقنة مشهورة جداً ضد السفلس.

مالت الدونا فلور برأسها، وقد تركز النعاس في قمة رأسها. وبدا لها أنها من بعيد تصغي لصوت زوجها. وثمة جهد يجلب الصوت إليها، فالدكتور تيودورو يخطب للمرّة الثانية. إني لا أفهم شيئاً من هذا يا عزيزي، تراكيب الكيمياء وعلم النبات، نقاشات مكثّفة. إغفر لي إذا ما استطعت مقاومة النعاس، فأنا مجرّد سوقية ربة بيت، حارة، وأكثر من ذلك جاهلة، ولم أُخلق لهذه المرتقيات.

أيقظها التصفيق، ضرب الأكف، فابتسمت لزوجها وأرسلت له قبلة بطرف أصابعها.

---

(١) NEUTRO: لا ذكر ولا أنثى.

لم تدم الجلسة طويلاً، والنساء المتحررات اجتمعن في جمع مبتسم للتوديع.

ـ الدكتور تيودورو كان رائعاً... علّقت الدونا سيباستيانا (كما هو معروف فقد نامت طيلة الوقت).

ـ الدكتور إيميليو، يا له من أعجوبة! كررت الدونا باولا جملاً سمعتها في اجتماعات سابقة؛ الدكتور تيودورو رجل عالم.

وإذ هبطت السلّم متأبطة ذراع زوجها، قالت له الدونا فلور:

ـ جميع الناس أطروك، يا تيودورو. شحنوك بالثناء. الجميع أحبوك وقالوا إنك كنت على ما يرام...

ابتسم بتواضع:

ـ إنها طيبة من الزملاء... لكنْ ربما قلت شيئاً ما غير مجدٍ... وأنتِ، ماذا ترين؟

ضغطت الدونا فلور على يده الكبيرة المشرّفة، زوجها الطيّب:

ـ إنها لروعة. ما فهمت كثيراً، لكنني أعجبت. ولقد استبدت بي الخيلاء حينما كانوا يثنون عليك...

وكادت تقول له: «إني لا أستحقك يا تيودورو»، لكن ربما هو، مع كل يونانيته ولاتينيته، لم يفهمها.

٥

إذا كان عالم الصيادلة اكتشافاً غير متوقع، فتخيّل كم هو سرّي وغامض تقريباً الكون الموسيقي ذو أوركسترا الهواة حيث تسللت إليه الدونا فلور من الباب الضيّق للبوق.

أولئك السادة الوقورون والمحترمون، وجميعهم مستقرّون في الحياة، مع ألقاب جامعية أو ذوو محلاّت، شركات، مكاتب ـ الجميع ما عدا أوربانو بوبري أومين، صاحب الألحان على الكمان، وهو بائع بسيط في متجر بيروت ـ أنشأوا نوعاً من جماعة مغلقة، بخصائص طائفة دينية. « ديانة الموسيقى السامية، تصوّف الأنغام، بآلهتهم، معابدهم، مؤمنيهم ونبيّهم، والمؤلف الملهم والمايسترو آجينور غوميس »، حسب التحقيق الصحافي الذي أعدّه فلافيو كوستا، الصحافي الشاب جاعلاً فترة تمرينه مجاناً على صفحات « أو لوجيستا مودرنو » التي يملكها الكريم ناصيف (ما كان يأخذ مقابلاً من الصحافي الناشىء على تعليمه). وقد احتل التحقيق حول الهواة الصفحة الأخيرة من « أولوجيستا » بأكملها، وفي الوسط كليشيه[1] على ثلاثة أعمدة للأوركسترا بكاملها وفي بذلات توحي بالصرامة في حدائق قصر الكوميندادور أدريانو بيريس، الذي استقبل على الفور في اليوم التالي لصدور الجريدة الدورية، الزيارة اللطيفة لمديرها، الذي جاء ليكلّمه حول المصاعب التي لا تُحصى لجريدة رصينة كجريدته. من المحال البقاء، إذا لم يكن بالوسع الاعتماد على تفهّم الرجال الذين هم مثل صاحب اللقب الممنوح من الفاتيكان[2]. القلب والحقيبة الشفيقين على هذه

---

(١) CLICHE: صورة محفورة بالزنكوغراف، كانت تستخدم في الصحافة قبل ابتكار طريقة الأوفست.

(٢) في البلاد الكاثوليكية يمنح البابا لقب كوميندادور لبعض الشخصيات المهمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المآسي التي تعانيها الصحافة.

كان يعرض المنشور مع التحقيق («ولد ذكي هذا المحرر، موهبة، لكنَّ صبياً كهولاء، أيها الكوميندادور، في هذه الأيام، يتقاضى ثروة في الشهر»)، ففك المليونير الحقيبة، متحنناً، لرؤيته لصق الفيولونسيل في وسط إخوانه في الطائفة. طائفة لها إلزاماتها، عاداتها، طقسها الصارم وفرح أسبوعي كفرح العصافير؛ التمرين في أمسيات أيام السبت.

وإذ اقتربت الدونا فلور من القدور، أداة الفرز، أدوات التجزئة، المناخل، أصص البورسلان، مع الأوكسيد والسموم، مع الزئبق، واليود، فإنها تابعت بين الزغاريد، الأنغام الرنّانة، البافانا [1] والغافوتا [2]، العزف المنفرد والرقيق جداً، في آثار الفيلونسيل والمزمار [3]، الكمان والبوق الصغير [4]، الناي [5] والنفير [6]، الجوقة الموسيقية وبوق الزوج، مطيعة القائد على البيانو المايسترو آجينور غوميس، ورشاقة الشخص. وقدمت الدونا سيباستيانا والدونا باولا، والدونا ريتا، والنهمة نيوزوكا ملتهمة الباعة في المتاجر، من أجل معايشة السيدات الأكثر أناقة في النخبة، زوجات أولئك اللوردات. وعنهم اعتاد المصرفي سيليستينو القول، حينما يضطر إلى الإصغاء إليهم في كونسرتو (آه! حياة مصرفي... هناك من يفترض أنه يتمتع باللذائذ، من دون تصوّر الإزعاجات، الصفعات..).

ـ كل تنافر من مهووس من هؤلاء يساوي ملايين...

أولئك السادة العظام يتحوّلون في أمسيات ايام السبت إلى أطفال مرحين لا يقلقهم شيء، طليقين من الالتزامات والإلزامات، من الزبائن والأشغال، من المال الذي يكسبونه بسرعة وشهيّة. يضعون جانباً المسافات الاجتماعية، فيتآخى بائع الجملة مع المهندس في البلدية ذي المرتب الهزيل، الجرّاح الشهير مع الصيدلي المتواضع، القاضي الشديد الوقار أو

(١) PAVANA: رقصة شعبية إيطالية قديمة.
(٢) GAVOTA: رقصة فرنسية قديمة تنسب إلى مدينة غاب.
(٣) OBOE
(٤) CLARINETA
(٥) FLAUTA
(٦) TROMPETE

صاحب « المتاجر الشمالية » ـ ثمانية مخازن في المدينة ـ مع البائع الأجير في متجر صغير.

وأيضاً السيدات الملحوظات جداً والأنيقات كنَّ يفتحن بيوتهن بصميميتها لزوجات الموسيقيين الآخرين من دون أن يقسن لهن الثروة والأصل الاجتماعي، مستقبلات الجميع بذات الود، بمن بينهن سيّا[1] ماريكوتا (لماذا سيّا وليس دونا ؟ لأنها هي نفسها تباهت: « أنا لست دونا، إني فقط سيّا ماريكوتا وحسبي هذا »)

وبالحري فإن السيّا ماريكوتا كانت تقريباً لا تظهر أبداً، إذ لم يكن لديها ملابس ولا أحاديث على قياس أولئك « نبيلات الغائط » كما كانت توضح لجيرانها في زاوية شارع، في تخوم لابينيا مع ليبردادي:

ـ ما الذي أفعله هناك؟ لا يتكلمن إلاّ على الحفلة، الاستقبالات، مآدب الغداء والعشاء، شراهة تسبب حزناً لي. فأظل مفكرة في الأولاد ههنا في البيت من دون أن يستطيعوا إملاء بطونهم بشكل سليم... وحينما هنَّ لا يتكلمن على الطعام والشراب، فليس إلاّ الحديث غير المحتشم. إن امرأة فلان متورّطة مع رجل ما، وإن فلانة ضُبطت في إحدى الشقق المشبوهة، وإن أخرى خالعة العذار. وبطريقة ما فإن هؤلاء السيدات يحسنّ الأكل والتدحرج على السرير، بشكل لم أرَ مثيلاً لهن...

في ثورتها، ما كانت الدونا ماريكوتا (« لست دونا ولا شيء، قولي لي سيّا ماريكوتا مثل أية امرأة خادمة في منزل ») سيّا ماريكوتا لا تقيس الكلمات، ذات فم قاس وواقعي:

ـ كلهن في الترف، في الحرير، في الملابس الأنيقة... ليبقين هناك في العلياء من التغوّط، مع زيفهن، إذ إنني أواصل العيش من دونهن... إن أوربانو يذهب إلى هناك، لأنه لا يستطيع العيش دون مثل هذا التمرين... لو كان الأمر عائداً إليّ لما ذهبت إلى بيت أي ثري، ولعزف ههنا بالذات، في دكان السيد بيبه، مع مانيه سابو والسيد بيبي إيه كوسي ـ كانت تفتح ذراعيها في حركة وهن ـ لكنْ ما بوسعي فعله؟... فهو حقاً رجل فقير...

---

(١) SIA: لقب السيدة الذي كان يطلقه العبيد على « الدونا » في زمن العبودية، وهو أقل تقديراً من لقب الدونا.

ولكثرة ما رددت اللقب المزدري، فإن السيد أوربانو بات معروفاً كرجل فقير[1]، ومنها جاءت الشهرة الوضيعة. أما في ما خص مانيه سابو[2]، فكان معلماً في العزف على الأكورديون، والسيد بيبي إيه كوسبي[3] هو صاحب سانفونا[4] عتيقة. والاثنان كانا في أيام الآحاد يعزفان ألحان الأغاني الشعبية ويجرعان عرقهما في دكان السيد بيبه، نقطة التقاء المجتمع الأكثر أناقة لتلك الأزقة. وكان السيد أوربانو أيضاً يظهر في أحيان متعددة ويحوز على التصفيق هناك بكمانه، مع أنّ ذلك الجمهور يعطي الأفضلية لأكورديون مانيه سابو ولسانفونا بيبي إيه كوسبي. ولا تفهم سيّا ماريكوتا شيئاً في الموسيقى، فكانت تدمدم لكوتها كوت بذلة الزوج الزرقاء، الوحيدة والعتيقة (بدأ السروال يتهرأ عند الوركين):

ـ إذا لا يستطيعون التمرين من دونه، فعلى الأقل يجب أن يدفعوا بدل النشاء... هذه الأوركسترا لا تقدّم إلاّ الإنفاق، ولا أرى الرجل الفقير يكسب شيئاً منها...

كان يكسب سلام الروح، وتحلّق في الموسيقى ماريكوتا الممتعضة، مع رائحة الثوم، والنتوءات في البشرة وصخبها في الكلام. في التمرين، أيام السبت، مكرراً الموسيقى ذاتها بصورة دائمة، بادئاً درس لحن جديد آخر من أجل المجموعة المختارة، كان أوربانو بوبري أومين يرتاح من بؤس الحياة، ومثله جميع السادةالآخرين في الأوركسترا، الفالحين، الرجال الأثرياء. كان البعض يحتفظ بالوقار في سلوكه، وآخرون يتجرّدون من جميع الوقار الزائف مع تركيز أنفسهم وهم بلا سترات للتمرين، وتناول الآلات الموسيقية، وكلهم يبدون نفس الفرح الداخلي، وإلهام صافٍ يكنّس من تفكيرهم الشقاء اليومي والمسكنة.

الدكتور فينسزلاو فيغا، الجرّاح الجليل، ابتسم برضا من الحياة والإنسانية، بعد النغمات الأولى وكأس الجعة الأول. فكل تعب الأسبوع في قاعة العمليات، يشق صدوراً وبطوناً، يلبي طلبات المرضى، وهو مشبّك الذراعين فوق الموت، في صراع في كل لحظة، القاسي والعبثي، كل التعب المتراكم يمضي في

---

(١) POBRE HOMEM

(٢) في الأصل SAPO: ضفدع

(٣) في الأصل BEBE E COSPE: اشرب وابصق.

(٤) SAN FONA: آلة موسيقية ذات نغمات شبيهة بنغمات الأوكورديون لكنها لا تشبه هذه الآلة الأخيرة.

النغمات الأولى، حالما يهتزّ قوس الكمان. والدكتور بينيو بيدريرا يقطع مواصلة وحدته، وهو عازب مبغض للبشر، يعثر في مزماره مجدداً على ذكرى حب في عهد المراهقة، عينين مائلتين إلى اللون الأزرق، ومتصنعتين. آدريانو بيريس، الحصان الأبيض، المليونير، تاجر الجملة الكبير، الشريك في مصارف، المدير في شركات وصناعات، الكوميندادور من قبل البابا، يظل وضيعاً إلى جانب الفيلونسيل القادر، مكافئاً نفسه هناك على أسبوع من الطموح الضاري والمضاربات الضارية، من العمل مع الزبائن، المساهمين، الموظفين - جميعهم لصوص! - في اللهفة إلى أن يربح في كل مرّة أكثر، في الخوف من أن يصير مختلساً، في الحزن على الوقت القصير لكل هذه اللهفة إلى المال والسلطان، وأيضاً على التعايش الإلزامي مع الدونا إيماكولادا تافيرا، كارثة. لم يغدَ وضيعاً فقط، بل سخي وإنساني، مبتسماً للبائع الفقير جداً إلى جانبه، متحرراً من الفاضلة جداً الدونا إيماكولادا، والآخر متحرر من السيّا ماريكوتا.

وكما السيّا ماريكوتا، كانت الكوميندادورة تأتي نادراً إلى التمارين. ليس ذلك لنقص في الفساتين والمحادثة، هذا واضح. بل لنقص في الوقت، فساعاتها ملتزمة بألف إلزام، حيث أنها الأولى في الأهمية بين سيدات المجتمع الراقي، وأيضاً لأنها كانت ترى تلك التمارين بلا نكهة، إزعاجاً لا ينتهي، تكراراً أزلياً للأنغام، نفس الموسيقى خلال شهور، شيء لا يُحتمل!

هكذا أفضل، من دون حضورها، من دون الرؤية المحزنة لمجاملتها البارزة الأركان، المغطاة بالكريم، الصدر ذو الجواهر والبشرة المترهلة، والظهر الفاسد. هكذا كان أكثر سهولة للسيد آدريانو بأن يطفئها من عينيه ومن ذاكرته؛ هي والبنتين والصهرين. البنتان، فشلان؟ مسكينتان تعستان لمن الحياة له تقتصر على الفساتين وحفلات الرقص. الصهران، عبارة عن اثنين من الجيغولو [1] كل منهما بلا نفع وسافل، واحد في الريو يبذّر المال، والآخر يبعثر في باهيّا مال السيد آدريانو، عرقه، دمه، حياته. من كل هذا كان تاجر الجملة مرتاحاً؛ من ملايينه المتراكمة، من منافسيه في التصفيات [2] التجارية القانونية

---

(١) GIGOLO: الرجل الذي يستفيد من ذكورته.

(٢) CONCORDATA: اتفاق بين التاجر المفلس والدائنين على الاستمرار في العمل مع التسهيلات في تسديد الديون.

والتفليسات، من الفراغ، من الأنانية، من الحزن الناتج عن أناسه. هناك، إلى جانب الفيلونسيل، كان يرتاح. إلى جانب السيد أوربانو. الاثنان متساويان كما كانتا متساويتين، في الحقيقة، السيدة السامية الدونا إيماكولادا والخلقة الثياب السيّا ماريكوتا، وكلاهما فظّتان وقبيحتان.

أيام السبت، التي لا يُخطَأ فيها، يجتمع أولئك السادة[1] المشهورين، متروكين للموسيقى والجعة، منبسطين وضاحكين. في كل يوم سبت في بيت مختلف وتقدم ربّة البيت وجبة العصر[2] الوفيرة، مائدة مركّزة في منتصف فترة ما بعد الظهر. ويأتي دائماً زوجتان أو ثلاث، بعض الأصدقاء وكثير من المعجبين الآخرين إذ «هناك مذاق لكل شيء» (كما همس السيد زيه سامبايو، في عودته من إحدى هذه السبتيات التي قدم إليها ليلبي الالتماس الموسيقي من الصيدلي). الدونا فلور مؤثرة وراسخة في الأوقات الأولى، قد استُقبلت بتودد لطيف وهناك لمعت كامرأة وديعة وبشوشة.

في العالم المنقّى من الموسيقى ذات المعرفة ـ وهنا يأتي التوصيف لما يساويه، وقد اختلفت فيه الدونا جيزا كما سيُرى لاحقاً ـ، في هذا الوسط المشبّع بالمشاعر الملحوظة، لا يوجد مكان لعدم المساواة في المال والأصل الاجتماعي، فهناك تذوب الفوارق الطبقية وفوارق الثروة لتشكل طائفة عليا من أبناء أورفيو، إخواناً في الفن. في حميمية أخوية، يتعامل الجميع، وبشكل خاص، بوبري أومين[3] الذي كان هناك «الكمان العبقري»، وبالأسماء الأولى والألقاب: لالاو، بينيوزينيو، آزينيابري وراوول داس مينيناس[4]، كافالو بامبو[5]، والشيء ذاته يجري بين السيدات أو تقريباً نفس الشيء. يقلن عن أنفسهن إيلينينيا، جيلدوكا، سوسوكا، توكينيا، ودعين الدونا فلور بـ «قديستي»، السمراء الجميلة، الرائعة الحسن، وكنّ يطلبن منها مشورات في فن الطهي. ولا يغفرن للدونا فلور الذنب إذا اقتصرت في بعض المناسبات على الإفاضة في الحديث، من دون الخوض في

(١) في الأصل CAVALHEIRO: الفارس الذي يتحلى بأخلاق الفروسية.

(٢) MERINDA: عصرونية في العامية.

(٣) الرجل الفقير، وردت سابقاً.

(٤) راوول ذو البنات.

(٥) الحصان الأبيض.

مسألة، جاهلة مواضيع معيّنة سارّة ومستديمة في ذلك الوسط. وفي النهاية، فهي ما كانت تلعب البريدج، وما كانت عضواً في الأندية وليس حضورها إلزامياً في الجمعية. في فجوات الصمت هذه كانت الدونا فلور تبحث عن زوجها بعينيها وهو ينفخ في مزماره، سحنتها مطمئنة وسعيدة. فتبتسم آنئذٍ، قليلة الاهتمام بمحادثة السيدات، من غير أن يسبّب إزعاجاً لعزلتها.

وإذ أعلن لها الدكتور تيودورو أن بيته قد أختير للتمرين المقبل، استشاطت الدونا فلور اندفاعاً؛ فلن تبقى خلف أيٍ كان. وحينما أعدّ الزوج للأمر عدته، كانت هي قد دعت الجميع، مستعدة لإنفاق حتى توفيراتها في هدر على الطعام والشراب. كان من الصعب إمساكها. أرادت أن تظهر لأولئك الثريات أن في بيت الفقراء أيضاً يحسنون الاستقبال.

حاول الدكتور تيودورو اختزال الحفلة؛ تقدّم في الحدود القصوى بعض الحلوى والأطعمة المالحة، علاوة على الجعة الإلزامية. وإذا شاءت أن تغدو لطيفة وباعثة على السرور لدى المايسترو، تعدّ طبقاً لذيذاً من المونغونزا [١]، وهو طبق مفضّل بشكل خاص عند السيد آجينور:

ـ وبالحري هو يستحق... لديه مفاجأة لكِ... ويا لها من مفاجأة!

ومع هذا، وبالرغم من تحذير الزوج، فإن الدونا فلور قدّمت وجبة طعام فاخرة وقد امتلأ البيت بأكمله. كانتِ المائدة عظيمة؛ آكاراجيه [٢] وآبارا [٣]، موكيكا ده آراتو [٤] في أوراق الموز، حلوى جوز الهند، آكاسا [٥]، بيه ده موليكي [٦]، أقراص مقلوّة من السمك المقدد، فطائر من الجبن، وكم من الأطعمة غيرها، أطباق وثريد، كثيرة ومختلفة. إضافة إلى

---

(١) MUNGUNZA: ثريد من حبوب الذرة المحلى بالسكر وأحياناً مع عصارة جوز الهند أو الحليب.

(٢) ACARAJE: طعام معد من الفاصولياء المطهوة بالزيت المستخرج من جوز الهند.

(٣) ABARA: طعام معد من الفاصولياء المطهوة بعد هرسها مع زيت جوز الهند والتوابل وعصارة البندورة.

(٤) MOQUECA DE ARATU: سراطين البحر معدّة بالزيت والتوابل.

(٥) ACAÇA: ثريد معد من دقيق الأرز والذرة.

(٦) PE-DE-MOLEQUE: حلوى مصنوعة من المعجنات بالسكر مع الفستق.

قدر كبير من المونغونزا معدّة من الذرة البيضاء، يا له من مشهد! ومن بار مينديز استقدمت صناديق الجعة، الكازوز بالليمون والفريز، الغـوارانـا [1].

كان التمرين بالغ الأثر، ومع أنه لم يحضر إلاّ اثنتان مـن بين زوجـات الهواة، هما فقـط الدونا إيلينا والدونا جيلدا، فإن المنزل قد امتلأ بالناس، الجيران في إثارة، والتلميذات متوترات والإشبينات في هذيان (كادت الدونا دينورا تموت بعد ذلك من عسر الهضم).

رُكزت الأوركسترا في قاعة الدروس، حيث جلس، إضـافـة إلى الموسيقيين، بعـض الأشخاص المهمين: الدون كليمينتي، الدونا جيزا، الدونا نورما، الأرجنتينيان (الدونا تانسي ارتدت ملابس الاحتفال، في أناقة يكفي أن تراها)، الدكتور إيفيس المختلج كثيراً، كما هو دائماً يتظاهر بأنه يفهم في كل شيء، متفوّطاً قواعد حول الموسيقى، مشيراً إلى أوبرات وكاروزو، « ذلك نعم، كان صوتاً! ».

حدثت لحظة من التوقف: عندما قال المايسترو آجينور غوميس والعصا في قبضة يده، إن لديه شيئاً يكشفه، مفاجأة المنزل، تقدمة. في فترة ما بعد الظهر تلك، وللمرّة الأولى، سوف يتمرّنون على قطعة من تأليفه، وهي معزوفة بصوت واحد غير مطبوعة وحديثة، مبْدَعة بشكل خاص « احتفاء » بالدونا فلوريبيديس بايفا مادوريرا، الزوجة المعبودة لأخينا في أورفيو، الدكتور تيودورو مادوريرا ». اعترى الحضور جميعاً قشعريرة، والصمت الذي كان حتى ذلك الوقت قليل الاحترام، تقطعة الضحكات والأحاديث، قد ران كلياً.

ابتسم المايسترو الطيّب: بالنسبة إليه، فأولئك الموسيقيون الهواة، كانوا مثل امتداد لعائلته، ومع الأنغام الراقصة للبافانا والغافوتا، الفـالـس، والمقطـوعـات ذات الصـوت الواحد، كان يحتفل بالمباهج في حياتهم، أوقات الفرح الأكبر، الأحزان العميقة. فلو مات أبٌ أو أمٌ لأحدهم، لو وُلد لهم أبناء، إذا اتخذ أحد ما زوجة، مثلما حدث مع الصيدلي، فإن المايسترو يوقف الوحي على الصديق ويؤلّف له في ضحك أو بكاء صفحته التضامنية من الموسيقى.

---

(1) GUARANA : شراب مستخرج من مسحوق شجر الغوارانا الذي ينبت في ولاية أمازونيا في البرازيل.

ـ « هديل فلوريبيديس » ـ أعلن المايسترو ـ « مع الدكتور تيودورو في عزف منفرد على البوق » .

إن هذا بالتأكيد لشيء رائع . لكنّ التمرين هو تمرين ، ليس كونشرتو حتى ولا عرضاً . وإذا كان الأمر في كل وصلة ، تعتبر فيها الأوركسترا مدوزنة الأوتار جيداً ، فإن المايسترو كان بعد ذلك يقاطع الواحد والآخر ، في ذلك العمل الموسيقي غير المطبوع ، وكانوا يمضون خطوة خطوة أو بشكل أفضل ، نوطة نوطة ، خصوصاً الدكتور تيودورو العازف المنفرد على بوقه . وما كان من السهل مرافقة الألحان ، والإحساس بمتعتها ، جمالها الناعم ، كما هي المحتفى بها ، الوديعة والرقيقة .

ومع هذا ، فقد تأثرت الدونا فلور ؛ بتصرّف المايسترو وعاطفة الصيدلي ، الذي كان يرتجف تقريباً في السعي إلى السلّم الموسيقي الكامل الذي يحي فيه الزوجة . أمامه منصّة النوطات الموسيقية وهو في توتر أعصابه ، صارم تقريباً ، جبينه ينضح عرقاً ، ويداه باردتان ، لكنه على استعداد للتعبير في الأنغام الحزينة من البوق ، عن فرحه كرجل ظافر في الحياة بكاملها والمحققة ؛ بماله ، صيدليته ، معرفته ، فصاحته ، سلامه ونظامه ، موسيقاه ، زوجته الجميلة والشريفة والاحترام العام . كان يسعى إلى ذلك النغم ويجب أن يبلغه . وأخفضت الدونا فلور رأسها ، فمع كل هذا التشريف أحسّت بأنها مضطربة ومرتبكة .

لحسن الحظ حانت ساعة فترة الراحة ، فتسلّى المايسترو بالأكل وتكرار المونغونزا ، وأكل الآخرون حتى التخمة من تلك اللذائذ ، مبللين بالجعة ، الكازوز والغوارانا ، وكل شيء بشكل كامل .

٦

مقطوعة من الألحان

انزلقت الدونا فلور، وديعة ومجاملة، إلى ذينك العالمين من الصيدلة وموسيقى الهواة، ومرّة أخرى في الملابس اللائقة ومنغّصات الأناقة كيلا تأتي عملاً قبيحاً ولا يعتريها الخجل في أوساط تقدّم فيها صفتها الجديدة. حينما كانت فتيّة، قبل زواجها الأول، كانت تخالط فقراء في بيوت ثرية، في قصور أناس مهمين، وكانت أحسن الفتيات ارتداءً للثياب، في هوى ذي ذوق حسن، ووحدها روزاليا شقيقتها بوسعها أن تقارن بها. ولا واحدة أخرى، مهما كانت أكثر منها ثراءً ومجوناً.

بيئات أخرى، شؤون أخرى وأحاديث أخرى، علاقات أخرى، إلحاحات، التزامات ومن مرّة إلى أخرى إلزام بتناول الشاي، بزيارة، بتمرين. إلى مسكن مدير لجمعية الصيدلة أو مسكن احد كرام أوركسترا الهواة، كانت الدونا فلور تذهب بين هتافات الجيران، فخورة في أناقتها، وحسن ظرفها، خيلاء ملحوظة في المرأة.

سمنت قليلاً، ومع بلوغها الثلاثين من عمرها، صارت ظريفة وأنيقة، قطعة سمراء من هؤلاء اللواتي يثرن الشهية.

ـ إمرأة لحيمة... دمدم السيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى، من بين أسنانه ـ اللحم تماسك، العجيزة استدارت... أكلة شهيّة... الدكتور شراب[1] هذا يأكل طعاماً شهيّاً جديراً بملك...

---

(١) XAROPE: الدواء السائل. التعبير هنا في معرض الاستهزاء بالصيدلي.

ـ يعاملها كملكة، يعطيها كل شيء، تغذية النبلاء ـ قالت الدونا دينورا التي سبق لها ورأت الدكتور تيودورو في كرة البلّورة ومن تحتفظ له بوفاء راسخ ـ إنه صورة الرجـل...

ولاحظت جارة حديثة الوصول، هي الدونا ماغنوليا، الدائمة الوقوف أمام النافذة، والخبيرة في الحسابات حيال فعاليات المارة.

ـ سمعت أن كل شيء فيه كبير، إنه كقائمة مائدة...

ـ من قال لهـا؟ لا أحد، إنها تضرب بعينها وهذا يكفي، تغدو عليمة بالمقارنات، نتيجة الممارسة المتواصلة والفعّالة.

ـ إذ أن الاثنين تعادلا في الشخصية والطيبة ـ كان هو صوت الدونـا آميليـا ـ مـن رأى زواجاً مصيباً أكثر منه؟ الواحد مخلوق للآخر وأخذا وقتاً طويلاً ليلتقيا...

ـ كان لازماً أن تعاني هي أهوالاً بأظافر الأول، من العديم الحياء، من العابث...

ـ هكذا تستطيع هي إعطاء قيمة أكثر للذي عندها الآن... بوسعها أن تقارن...

لم تشأ الدونا فلور أن تقيس ولا تقارن مهما كان الأمر، إنها تريد فقط أن تعيش حياتها. أخيراً حياة الوقار والاطمئنـان، في مسرّة التعامل الراقي. لماذا لا يتركنها في سلام؟ قبلاً كنّ يأتين ليبدين شفقة عليها، في وقاحات التحسّر، يبدين إشفاقاً على حظها. والآن يكلن لها المديح على نجاحها، على القرار المدهش في ذلك الزواج، على سعادة الأزواج المثاليين.

كان الشارع يتتبع عن كثب خطوات الدونا فلور، فساتينها، علاقاتها مع النخبة، التدبير الجديد لحياتها، مع زيارات، نزهات وسينما، والاقتراع المقبل لجمعية الصيدلة. لكنْ فوق كل هذا، لوحظت باهتمام من الجيرة مع الموسيقى، وهو موضوع مثير يُجْلَب إلى الحفلة في نفس الوقت تقريباً من قبل التمرين الرائع لأوركسترا الهواة ومن قبل ماريلدا، طالبة علم التربية.

في البدء، اقتصرت المناقشة على المفاهيم الأكاديمية والمثيرة للاغترار، في إلحاح أخّاذ

وخشن ، حينما تكون بين الدكتور إيفيس المعجب بالأوبرا ، والملحاحة الدونا جيزا ، وهما ذروتان في الحي. وتساهم فيها ، لكي تشجّعها وهي وقحة وفظّة ، الدونا روزيلدا ، حيث تكون هناك في زيارة. لكنْ من يضع في المداولة ملاحظة دراماتيكية وعاطفية فهي الشابة ماريلدا مغيّرة المخطط الثقافي بشكل نقي إلى حقيقة الصدمة بين الأجيال ، بين الوالدين والأبناء ، بين القديم والجديد (كما يقول فيلسوف من الجيل الأكثر شباباً).

وبينما ترفض الدونا جيزا ، بعد تمرين أوركسترا الهواة ، تصنيف « الموسيقى ذات المعرفة » (ممتنّة جداً لمفاهيم الدونا روزيلدا القديمة) الموظفة من قبل الدكتور إيفيس في الإشارة إلى الفالس ، وإلى المارشات العسكرية والأغاني المنفردة الصوت ، في لقاء سرّي مع الشابة ماريلدا التي كانت تتآمر ضد سلام العائلة واطمئنان الشارع ، مع المدعو أوزفالدينيو ومع سيد يدعى ماريو آوغوستو ، مدير راديو آمارالينا الحديث التدشين وفي بحث عن مواهب بثمن متدن .

بالنسبة إلى الدونا جيزا ، فإن الموسيقى ذات المعرفة هي فقط الموسيقى العظيمة الخالدة لبيتهوفن وباخ وبراهمز وشوبان ، لبعض المؤلّفين الموسيقيين النادرين والسامين ؛ سينفونيات وصوناتات ، موسيقى يصار إلى سماعها في صمت واحتفاء ، من أجل الأوركسترات الكبرى ، مدراء الجوقات المشهورين ، مترجمي الطبقة العالمية. من أجل المتذوّقين القادرين على الإصغاء والفهم. وهي ترى هذه الموسيقى وفي تشيّعها النقي ، في تمسّكها المغالي بالشكليات ، كانت تصنّف كل شيء بأكثر من قذارة ، « لمن لا يمتلك ثقافة موسيقية ».

وكان يُفْهَم ، بالأحرى ، في ذلك التحديد العنيف - « كله قذارة » - إنه غير شامل لدى الدونا جيزا الموسيقى التي يقال عنها شعبية ، المعبّرة عن الشعب ، المتوهّجة والصافية. وتكنّ احتراماً وتقديراً للسامبا والأهازيج ، للموسيقى « الروحانية » ، للكوكو [1] والرومبا ، وكان من السهل الاستماع إليها ولو كانت سيئة العزف ، بحركتها المريعة ، كلمات السامبا الأخيرة ذات الأهزوجة. أما الذي لم تكن تحتمله ، فهو ، أجل ، حماقة هذه الموسيقى العديمة القوة والعديمة الشخصية ، المعدّة في رأيها ، من أجل الذوق الرديء لدى الطبقة المتوسطة ، غير

(١) coco : رقصة شعبية في الشمال الشرقي من البرازيل ومنشأها ولاية آلاغواس.

القادرة على تحسس الجمال والتأثر مع الأساطين العظام. كانت الدونا جيزا تنفعل عند سماعها في تسجيلات، على ضوء خافت في بيوت الأصدقاء الألمان، في تلك السهرات الليلية المفعمة بكثير من الذوق الروحي. (وذات الشراهة، تناول المشروب وبعض النكات).

كان الدكتور إيفيس يفتح فمه، في إنذار، يا لها من غطرسة، غرينغا [١] معتدّة بنفسها! أين تبقى الأوبرات - قولي لي يا مدرّسة - « إل ريغوليتو »، « حلاّق إشبيلية »، « المهرّج »، « الغواراني » للخالد فينا كارلوس غوميس - اسمعي يا دونا جيزا، إن موسيقيّنا، البرازيلي. وُلد في كامبيناس - حمل اسم الوطن الحبيب إلى مسارح العالم الخارجي بين التصفيق؟ أين تبقى هذه الروائع، بقطعها ذات الصوت الواحد، وثنائياتها [٢] ومنشديها متوسطي الصوت بين الرخيم والنافر، وأصواتها ذات الطبقات الصوتية الخافتة، ومنشداتها الرئيسيات [٣]؟ فإذا كان هذا ليس موسيقى ذات معرفة، فما هي إذن؟ على سبيل الافتراض سامبا ورومبا، أهازيج وتانغو؟

لكنَّ السيّا الدونا جيزا أخذت تصغي، لأن الدكتور إيفيس في هذه المادة (كما في بقية المواد الأخرى) قمة. أخذ يرفع من حدة صوته وحركة الفوز، وسأل: أين ستعثر هي على شيء ما أكثر صفاءً من أوبريت جيدة مثل « الأرملة الطروب »، « أميرة الدولارات » أو « كونت لوكسمبورغ »

راسخة في قواعد محددة، هي ثقافة الطبيب الموسيقية الناتجة عن معرفة حيّة - حين كان طالباً، في ذهابه إلى الريو في قافلة، شاهد من القمرات الرخيصة في المسرح البلدي، ببطاقات مجانية، بعض الأوبرات التي عرضتها وأنشدتها « فرقة نابولي الموسيقية الكبرى ». وانبهر بالعروض، بالألحان وأصوات الباريتونو [٤] والسوبرانو [٥] والتينور [٦]

---

(١) GRINGA: لقب يطلقه أهالي اميركا اللاتينية على الأميركيين الشماليين للسخرية.

(٢) DUETO: قطعة موسيقية ذات صوتين أو آلتين.

(٣) PRIMA-DONA: المنشدة الرئيسية.

(٤) BARITONO: المنشد المتوسط الصوت بين الرخيم والنافر.

(٥) SOPRANO: المنشد ذو الصوت الحاد.

(٦) TENOR: المنشد ذو الصوت الأكثر ارتفاعاً من الباريتونو.

والكونترالتو[١]. لم يستمع إليها في اسطوانات على الحاكي يا دونا جيزا، بل بحضوره الجسدي، مشاهداً إياها على المسرح تلمع في توهّج عبقريتها؛ تيتو شيبا، غاللي كورزي، جيسوس غافيريا، بتسانتسوني، منشداً «ترافياتا»، «توسكا»، «مدام بترفلاي»، «إل شيافو» (وأيضاً لعزيزنا كارلوس غوميس، يا عزيزتي). وشاهد بعد ذلك جميع الأفلام الرائعة في السينما ـ لم يضعْ واحداً فقط ـ بأفضل الأوبريتات المقدّمة من قبل جان كيبورا ومارتا إيغرث، نيلسون إدي وجانيت ماكدونالد. على سبيل الافتراض، هل رأيتها يا دونا جيزا؟ جميعها من دون أن تضيعي أي واحد منها؟

في حماسه، أصرّ الدكتور إيفيس على مقاطع من القطع الموسيقية ذات الصوت الواحد المعروفة أكثر من غيرها، وحتى أنه عرض خطوة باليه. كان الأمرُ معه من دون أدنى شك، فلم يفعل أقل من هذا، لم تأت إليه بالأسطوانات والكلام الفارغ، إذ في ما يختص بالثقافة الموسيقية فليس الأمر مقتصراً على أيٍ كان...

ـ هذا، ثقافة! ـ بسطت الدونا جيزا يديها إلى السماء، شاعرة بالإهانة. ليس في اندفاعاتها، وإنما في مفاهيمها الأصيلة ـ الثقافة هي شيء آخر أيها السيد الدكتور، أكثر جدية... والموسيقى أيضاً، الحقيقة، العظيمة... شيء آخر تماماً...

الدونا نورما، التي طُلب منها بإلحاح أن تكون حكماً، بقيت محايدة، معترفة:

ـ إني لا أفهم شيئاً... فيما عدا السامبا، المارشا[٢]، موسيقى الكرنفال ـ إذ إنني أعرف هذه كلها...ـ فأنا صفر... الأوبرا، شاهدت واحدة، عندما كانت هنا تجمع نيكلات[٣] لفرقة بيللورو كافاللارو التي كانت بلا فنانين على وجه التقريب، شيء محزن. ما كانت أوبرا كاملة، إنما مقاطع من «عايدة»[٤].

---

(١) CONTRALTO: المنشد ذو الصوت الرخيم.

(٢) MARCHA: رقصة شعبية في الكرنفال.

(٣) NIQUEL: عملة نقدية من نحاس متدنية القيمة.

(٤) أوبرا وضعها المؤلف الموسيقي الإيطالي جوزيبي فـردي وعرضت للمرة الأولى في دار الأوبرا المصرية عند افتتاح قناة السويس في القرن التاسع عشر.

ـ وذهبت أيضاً . . . ـ سجل الدكتور إيفيس علامة أخرى .

ـ إني لا أفهم شيئاً لكنني أسمع كل شيء ، لأن أي شيء يفرحني ، حتى الجرس عندما يقرع في الجنازات أراه جميلاً . أتقبّل كل شيء ، كونشرتو وأوبرا ، الأوبريت شيء لا يصدق ، وأنا مجنونة ببرنامج موسيقي في الإذاعة . والأمر المؤكد ؛ لا شيء مساوياً ، ولا شيء يقارن باهازيج كايمي . لكنْ بالنسبة إليّ ، كل شيء مقبول ، كل شيء يفرح ويمرر الوقت ، حتى هذه التمارين التي يقوم بها الدكتور تيودورو ، يكفي ألاّ يعيرها المرء انتباهاً شديداً . . .

وبالنسبة إلى الدونا روزيلدا كان تجديفاً مقارنة موسيقى أوركسترا الهواة ، الرائعة للأسماع المرهفة ، مع الأصوات النافرة من الغلمان على الكمان . إنكِ لشخصية طيّبة يا دونا نورما ، موفقة في زواجكِ وثرية ، لكنْ أذواقكِ هي أذواق أناس من السوقة . . . في الجانب الآخر ، المدرّسة لكونها أميركية تتصرّف كصاحبة كرسي في الجامعة . قد تكون الدونا جيزا هناك في بلدها عرفت شيئاً أفضل ، أكثر شمولاً للعلم ، أسمى من أبناء أورفيو أما هي ، الدونا روزيلدا ، فإنها تشك في ذلك وتجهله . وفي نظرها كانوا لا يضاهون حتى يثبت خلاف ذلك . فبعض السادة من أولئك ، هم من أعلى المراتب .

كانت الدونا فلور ترافق كلمات المداولة مبتسمة وصامتة ، ولا تفتح فمها إلاّ لتدافع عن تمارين أوركسترا الهواة المعتبرين من الدونا جيزا « تراكم الوقاحة » .

ـ لا تكوني مغالية . . .

ـ حسناً ، أليس الأمر هكذا ؟ ويجب أن يكون الأمر هكذا ، إذ إنه تمرين . أين شوهد ، الإقدام على دعوة أحد ما لسماع تمرين على الموسيقى ؟

ـ الذنب لا يقع عليهم ، المذنبة هي أنا التي دعوت . . . ففي تمارينهم يأتي من يريد ، أصدقاء ، أشخاص الأسرة . حين تقام حفلة كونشرتو ، سوف أدعوكِ وعندها سترين . . .

ظلّت الدونا جيزا متشائمة :

ـ في كونشرتو ، من يدري ؟ لكن حتى مع هذا أظن أن هؤلاء الهواة ، أعذريني يا فلور ،

لا يساوون شيئاً كبيراً . . .

إنهم يساوون وكثيراً، اعتقاداً بتقارير الجرائد ونقّاد الموسيقى، الذي هم في النهاية ملزمون بتفهم الموضوع. فكل عرض للأوركسترا ـ في موسم الإذاعة أو في محفل مدرسة الموسيقى ـ كانوا يسيلون إطراءً. أحد هؤلاء النقّاد، وهو شخص يدعى فينركايز، المولود في حضن الموسيقى حسب ما يقول، إذ إنه من أصل الماني، في كثير من الحماس، قارن أبناء أورفيو « بأفضل الأوركسترات الحقيقية في أوروبا، التي لا تسمو عليها، والعكس صحيح ». عند وصوله من ميونيخ، كان فينركايز هذا علماً بما فيه الكفاية في مفاهيمه. لقد غزاه خط الإستواء كلياً، ففقد الاعتدال وما عاد قط إلى كونه الجليدي.

الدكتور تيودورو امتلك ألبوماً حيث جمع فيه برامج الحفلات الموسيقية، أخباراً وإطراءات، مقالات حول الأوركسترا، كثيراً من المداد المطبوع. بعد الزواج أصبحت الدونا فلور هي من تهتم بهذا المستودع الخاص بالإنجازات، بهذه المستندات عن المجد الصغير للزوج. الخبر الأخير الملصق هناك يقول إن المايسترو آجينور آلّف أغنية ذات صوت منفرد على شرف الزوجين تيودورو مادوريرا، عمله الرائع الأول، الذي هو حالياً قيد التمرينات. وأبناء أورفيو يقومون بتنفيذها. « ما دام الكلام عن أبناء أورفيو، فمتى هذه الأوركسترا الممتازة تهبنا نعمة كونشرتو معلن بكل إلحاح من قبل عشاق الموسيقى الجيدة في باهيّا؟ » كان الصحافي يتساءل. وكما يرى، فالهواة كان لهم أصدقاء مخلصون، كثيرون ومتعصبون.

المناقشة يقظة حول الأوركسترا والدونا فلور تتخلّى عن مشكلات ماريلدا، وهي أيضاً عن الموسيقى والغناء، عن الألحان المحظورة. الخبر الأخير حول الصدام بين الأم والبنت، حصلت عليه الدونا فلور من الفتاة نفسها وأشارت إلى الواقع الخطير في كون ماريلدا قد تعرّفت بواسطة أوزفالدينيو، على ماريو آوغوستو ذاك من « موسم البنت »، وإذاعة آمارالينا والمذكور الذي وعدها بأن يستمع إليها، وإذا سرّه الصوت، سيتعاقد معها على برنامج أسبوعي. وأوزفالدينيو لم يحصل على شيء من راديو سوسيدادي للأسف.

لقد فات الدونا فلور الإنجازات السابقة. والمنهمكة كثيراً في تلك الأيام، لم تستطع أن

تولي الاهتمام اللازم بماريلدا. هكذا إذاً، بعد الواقعة المؤثرة فقط، عرفت بنجاح المراهقة في التجربة مع المذياع[1]. لقد جُنَّ ماريو آوغوستو بالصوت (وأكثر أيضاً) بجمال الشابة، فوقّع معها عقداً على برنامج ذي مرتبة، في توقيت جيد، السبت ليلاً. مركز صغير، لكنْ ماذا كان بوسع مبتدئة أن ترغب أكثر من ذلك؟ قدمت ماريلدا راكضة إلى البيت، متفجّرة حماساً، ففي حقيبتها مسودة عقد. مزّقت الدونا ماريا دو كارمو الورقة العديمة الأهمية: «ربيتكِ وهذّبتكِ لتكوني امرأة مستقيمة، لتتزوجي. وما دمت أنا على قيد الحياة...»

- لكنكِ يا أمّاه قد وعدتني... - تذكرت ماريلدا الوعد المقطوع لها من الأرملة في اليوم الذي رأتها فيه تغني في برنامج لطلاب جدد - قلتِ إنني عندما أبلغ الثامنة عشرة...

- مازلتِ لمْ تبلغي الثامنة عشرة...

- بقيت فقط ثلاثة شهور...

- لن أدعكِ تفعلين هذا أبداً، ما دمتِ تحت سقفي. أبداً.

- تحت سقفكِ؟ إذن سترين.

- أرى ماذا؟ هيّا، قولي.

- لا شيء.

وسعت أيضاً إلى الدونا فلور، الصدر الحار الصديق، ذات النصيحة الطيّبة والمريحة. لكنَّ الجارة قد خرجت بعد الدرس المسائي وماريلدا في عجلة من أمرها، إذ هبط المساء وكان الطغيان أكثر من اللازم، لا يحتمل. فهربت من البيت.

لقد جمعت بعض الخرق، أزواجاً من الأحذية، مجموعة «جريدة الأهازيج»، صور فرانسيسكو ألفيز[2] وسيلفيو كالداس، فوضعت كل شيء في حقيبة سفر، واستقلّت

---

(١) MICROFONE: مكبر الصوت أيضاً.

(٢) مغن برازيلي مشهور.

الترام، منتهزة فرصة وجود أمها في الحمام.

ذهبت رأساً إلى راديو آمارالينا. وعندما علم ماريو آوغوستو أنها هاربة من أسرتها وهي تذرف الدموع وقاصرة لم تبلغ بعد سن الرشد، حذّرها وهو يشعر بالمسؤولية جداً ولا يريدها حتى هناك في المبنى؛ لتنصرف قبل فوات الأوان، فهو لا يريد مواقف معقدة. خرجت ماريلدا إلى الشارع وسارت على عيرما هدى في البحث عن أوزفالدينيو. مضت من عنوان إلى عنوان، من راديو سوسييدادي إلى مكتب شركة تجارية، حيث كان العامل في الإذاعة يجعل منه محطة له. ومن هناك تابعت طريقها إلى المدينة السفلى حيث عقد موعداً مع بعض الذين يرعون نشاطه، آل ماغالياييس القادرين. أوزفالدينيو؟ العامل في الإذاعة؟ لقد انصرف، ربما إلى الاستديوهات، هل كانت تعرف العنوان؟ ومن هناك مضت مجدداً إلى راديو سوسييدادي، في شارع كارلوس غوميس، ارتقت بواسطة مصعد لاسيردا ومشت في شارع التشيلي، وإذ قطعت ساحة كاسترو ألفيس، في النهاية، وهي تنضح عرقاً ومصابة بالدوار، أمسكت نفسها في باب محطة الإذاعة. أوزفالدينيو لم يكن هناك. لكنّ البوّاب سمح لها بانتظاره وحتى أنه تدبّر لها كرسياً.

متعبة ويعتريها الخوف، لكنها ما زالت زاخرة بالغضب ومستعدة لكل شيء، بقيت هناك ساعات متواصلة، مشاهدة فنانين معروفين يجتازون الباب أمامها، مغنين مشهورين، وبينهم سيلفينيو لامينيا، مع زهرة في عروة سترته وخاتم كبير في أصبعه الخنصر. بعضهم كان يتطلّع إليها، من تُرى تلك الفتاة الجميلة جداً؟ والبوّاب بين الفينة والأخرى يبتسم لها ويقول (يريد، من يدري، أن يخفف عنها، يشفق عليها من الغم ومتحنناً على شبابها):

ـ لم يصل بعد، لكن لن يتأخر. فقد حانت ساعة قدومه..

في حوالى الساعة الثامنة، وقد اكتمل الليل، سألت البوّاب وعيناها متقدتان وقلبها فزع، أين تتناول قهوة وتأكل شطيرة. في البوفيه الخاصة بالإذاعة ذاتها، فدخلت. هناك وقد رأت وسمعت مغنين وممثلات، معبوديها، كسبت قوى جديدة، فصممت على الانتظار طيلة الحياة، إذا لزم الأمر، للوفاء بقدرها كنجمة.

عادت إلى مكان البوّاب وفكرت: «أمي المسكينة، في هذه الساعة يجب أن تكون على

شفا الاحتضار من القلق « وهي تمزج الإشفاق والندم بالحنق والجرأة. بعد ذلك بقليل انصرف بوّاب فترة المساء وقال لها الذي خلفه إنه لا يعتقد بعودة أوزفالدينيو.

ـ في هذه الساعة؟ لن يأتي بعد...

ها قد صارت الساعة التاسعة والنصف، وحينما تمكنت بصعوبة من حبس البكاء، اتكأ شخص أدرد، على المنصة الخاصة بالبوّاب، وبعد أن رمقها بإلحاح، أخذ يتحدث ويضحك مع البوّاب، وأخبره عن وقائع القمار، تجري هناك قريباً، في التاباريس. على حين بغتة سمعت ماريلدا الشخص يتكلم عن أوزفالدينيو، وعلمت أنه كان صديقه في اللعب منذ نهاية فترة ما بعد الظهر، على مائدة الروليت. وكان في قول الأدرد فرح شديد.

ـ تاباريس؟ ما هذا وأين يقبع؟

ضحك الشخص. وهو يحدّق إليها بشره:

ـ هنا قريباً جداً... إذا شئت أخذتكِ إلى هناك... ـ مجنون ليرى الفضيحة، ليتمتع بالدموع والمهاترات، فأوزفالدينيو ذاك كان ضياعاً للفتيات.

اجتازا الساحة، وانتزع الأدرد زمام الحديث، يريد أن يعرف ما إذا كانت ماريلدا زوجة، خطيبة أو مجرّد حبيبة. فلكي تكون زوجة، كانت صغيرة جداً، ولتكون حبيبة، كانت مغتمّة كثيراً... عند باب الكاباريه التقيا ميراندون، الذي كان متسحباً إلى بـالاس. وعند مروره رأى ماريلدا بنظرة خاطفة، ومضى سائراً. لكنه على الفور عرفها وعاد مسرعاً:

ـ ماريلدا! أي شيطان جاء بكِ إلى ههنا؟...

ـ آه! سيد ميراندون، كيف حالك؟

كان ميراندون يعرف الأدرد أكثر من اللازم:

ـ صديق السوء، ماذا تفعل أنت هنا مع هذه الفتاة؟

ـ أنا ؟ لا شيء... لقد طلبت مني...

ـ لتأتيَ إلى هنا ؟ إنها لكذبة منك... ـ ها قد صار ميراندون مهتاجاً.

اعتذرت ماريلدا من الآخر، هي طلبت منه، أجل.

ـ لتأتي إلى هنا، إلى التاباريس؟ ماذا تفعلين؟ قولي لي.

أخبرته بكل شيء، وأخيراً، عاد بها إلى البيت، حيث لم يكونا جد بعيدين، ذهبا ليلتقيا الدونا ماريا دو كارمو وهي مثل المجنونة، قد أُغمي عليها، تذرف الدموع، منبطحة على السرير تصرخ من أجل ابنتها. وإلى جانبها الدونا فلور، الدكتور تيودورو، الدونا آميليا. الدونا نورما تتسلّم قيادة زمرة البحث والإنقاذ، تساعدها الدونا جيزا، منتزعة السيد زيه سامبايو من سريـره (يستبد به الحنق) وغادروا في اتجاه الإسعاف العام، الشرطة، المشرحة.

عند رؤيتها ابنتها، عانقتها الدونا ماريا دو كارمو، مبدية حناناً عليها، في بكاء ارتعاشي. بكت الإثنتان وقبّلتا بعضهما بعضاً، في طلبات مشتركة للصفح. انسحب الدكتور تيودورو منفعلاً، خشناً تقريباً، إذ رغم أنه كان يعارض الدونا فلور، يدعم الدونا ماريا دو كارمو في استعدادها الأول غير المتسامح لاستعمال الضرب من تلك الوتيرة ضد الهاربة.

حاولت الدونا فلور ثنيها والسيطرة عليها من أجل قضية ماريلدا ؛ هي أيضاً حينما كانت فتاة صغيرة، تناولت من ذلك الدواء ولم تستفد شيئاً من تلك المعالجة. فلماذا تعاند الدونا ماريا دو كارمو وتخالف هواية البنت؟

أي هواية حتى ولا نصف هواية! الدكتور تيودورو جاء ليؤيد الأرملة، فالبنت كانت بحاجة لدرس يضع عقلها في مكانه ويعلّمها الطاعة. بلغ الأمر بهما، الزوج والمرأة، أن ينفعلا تقريباً، كل منهما راسخ في رأيه، الدونا فلور في الدفاع عن ماريلدا المسكينة! والدكتور تيودورو في الدفاع عن المبادىء، في واجبات الأبناء إزاء الوالدين، وهي قضية مقدّسة. لكنْ لم يستمرّا طويلاً في المناقشة، إذ إن الدكتور سيطر فوراً على نفسه وقال:

ـ عزيزتي، إن لكِ رأيك وأنا أحترمه، من دون أن أوافق عليه. وأنا لي رأيي وعليه

تهذّبت، وهو الذي يفيدني، فيبقى كل منا على رأيه. لكننا لن نتناقش في هذا، ما دمنا لا نحوز أبناء ـ « ولن يكون لدينا أبناء »، كان بوسعه أن يضيف، إذ وهو مازال خاطباً، كشفت له الدونا فلور حالتها كعاقر.

لم يتبق بينهما أثر للامتعاض، فكلاهما قد انحنى على ألم الأرملة وهي تتوسل الموت إذا لم تصل ابنتها حالاً.

وصلت ماريلدا وكان الذي شوهد. الدكتور تيودورو المغلوب على أمره انسحب. وخرجت أيضاً الدونا آميليا، الدونا إيمينا، وبقيت فقط الدونا فلور مع الأم والإبنة وكانت القضية منحلّة، دفعة واحدة وإلى الأبد؛ ماريلدا فازت بحقها أمام المذياع. لبثت الدونا فلور دقيقة فقط، كافية لتضمن الإتفاق، المباركة الأمومية لمخططات نجمة المستقبل، وعلى الأثر مضت لتلتقي في قاعة الزوار السيد الإشبين ميراندون.

ـ يا إشبيني، لماذا اختفيت وما ظهرت قط؟ لا أنت ولا الإشبينة مع الولد؟ ما الذي فعلته أنا ليسيء إليك كثيراً؟ إني أسأل بالضبط قبل أن أشكرك على الصنيع الحسن الذي أتيته لماريا دو كارمو ولماريلدا. لماذا تشاجرت معي؟

ـ لم أتشاجر، لماذا يجب أن أتشاجر يا إشبينتي؟ فإذا لم آت فهو لأنني كنت ماشياً في حلقة حيّة [1]...

ـ لهذا فقط، لكونك منشغلاً؟ أعذرني يا إشبيني، لكنني لا أعتقد.

رمق ميراندون الليل الشفاف، السماء البعيدة:

ـ إن إشبينتي تعلم؛ بين الزوج والمرأة لا أحد ينبغي له أن يحشر نفسه، حتى ولا ظل، حتى ولا ذكرى قد تكون سيئة. إني أعلم أن إشبينتي تحيا راضية، وفوق كل هذا، فإن هذا هو ما أرغبه. وأنتِ تستحقين كل هذا وأكثر منه بكثير. وإذا لم آت فليس ذلك لضآلة صداقتنا.

---

(١) معناها في المصطلح البرازيلي: الانهماك في العمل.

كان ذلك حقيقة، ابتسمت الدونا فلور ومشت إلى قرب الإشبين:

ـ لديّ شيء ما أرغب في طلبه منك...

ـ مري، لا تطلبي يا إشبينتي...

ـ لن يتأخر يوم تقديم الكارورو [١] في عيد كوزمي وداميان، ذلك إلزام...

ـ لقد فكرت بهذا، حتى إنني قلت ذات يوم للمعلمة [٢]: «تُرى هل ستكون هذا العام وجبة كارورو في بيت الإشبينة؟»

ـ ما هو رأيك أيها الإشبين؟ ما الذي تراه؟

ـ حسناً إني أقول لكِ، أيتها الإشبينة، إن أحداً لا يستطيع أن يسير طريقين دفعة واحدة، طريقاً في الذهاب، وآخر في الإياب. فالإلزام لم يكن من قبلكِ، كان من قبل الإشبين [٣]، وقد دفن معه، والوفاء بالنذور يُقدَّم بالقناعات ـ أي بوضع معيّن ـ وإذا كان هذا رأيكِ أيتها الإشبينة، كوني مرتاحة إذن، فأنتِ لا تتصرفين بشكل سيء مع القديسين ولا تقطعين قاعدة من النصف...

أصغت الدونا فلور وهي مفكرة، شاردة الذهن كأنها تقيس إجراءات العيش:

ـ إنك مصيب أيها الإشبين، لكن ليس فقط للقديسين على المرء أن يوفي بحساباته. فلديّ رغبة في الإبقاء على الإلزام، وإشبينك أخذ القاعدة على محمل الجد، ثمة أشياء لا يستطيع المرء إزالتها.

ـ ماذا إذن أيتها الإشبينة؟

ـ حسناً، فكرت أن بوسعي إعداد الكارورو في بيت الإشبين. وأنا أذهب إلى هناك،

---

(١) CARURU: وجبة طعام تعد من القرع مع السمك والقريدس بالتوابل وزيت جوز الهند.

(٢) PATROA: السيدة أو تقال للزوجة.

(٣) المقصود هنا بالإشبين: زوج الدونا فلور الأول.

في النهار، وأرى الولَد، وآخذ اللازم، أطهو الكارورو ونأكل. أدعو نورمينيا ولا أحد سواها.

ـ حسناً، ليكن هكذا أيتها الإشبينة، كما تريدين. فالبيت بيتكِ، والأمر لا يتطلّب منكِ إلا إعطاء الأوامر. لو كان لديّ تأكيد بالحصول على المال، سأقول لكِ لكي لا تحملي أي توابل ما. لكن من يتنبأ بليلة الربح وليلة الخسارة؟ فلو عرفت لكنت ثرياً. خذي معكِ القرع فهذا أكثر ضمانة.

وإذا بات الدكتور تيودورو هادئاً، عاد، وكان قد سبق له وعرف ميراندون بالإسم، وهو على علم بشهرته وأفعاله، فتبادلا مجاملات قصيرة.

ـ إنه إشبيني يا تيودورو، صديق طيّب.

ـ ينبغي أن تأتي... ـ قال الدكتور، لكن لم تكن دعوة، مجرد جملة لطيفة؛ وإذا جاء، فصبراً.

عاد ميراندون إلى حياته الصاخبة، وحظيت ماريلدا من أمها على الموافقة على زيارة السيد ماريو آوغوستو ذات يوم، لكي يناقشوا معاً شروط العقد وتاريخ البدء.

قال الصيدلي:

ـ هيّا بنا يا عزيزتي...

كان الوقت متأخراً، لكنْ مع هذا، ومن أجل الراحة من كل تلك الانفعالات والخيبات، مضى الدكتور تيودورو يبحث عن البوق ومجسّم النغمات[1]. وأخذت الدونا فلور مكانها على كرسي وبدأت ترفو أكمام وياقات قمصان الدكتور، فكل يوم كان يبدل الملابس البيضاء.

في القاعة الهادئة والدافئة، كان الدكتور يتمرّن على المقطوعة الموسيقية ذات الصوت

(١) PARTITURA: دفتر النوطات الموسيقية.

الواحد المؤلّفة احتفاءً بالدونا فلور. وهي منحنية فوق الخياطة، تصغي شاردة الذهن قليلاً، تريد أن تنظم أفكاراً مشوّشة. بعيدة، ورأسها ينأى إلى هناك، في موسيقى أخرى.

ساعياً إلى السيطرة على الأنغام الهاربة من الآلة الموسيقية، الإمساك بالصوت الأكثر نقاءً وحرارة، متغلّباً على مقامات النغم في اللحن الصعب، وقد بات هادئاً كلياً، ابتسم الدكتور تيودورو أخيراً ماذا كان يهمه الأسلوب الصحيح أو الزائف كما تهذّب الدونا ماريا دو كارمو ابنتها الصعبة المراس؟ إنه ما كان مقرعة العالم وسيكون أحق إذا أقلق نفسه مع زوجته الصغيرة، الجميلة جداً والطيّبة جداً، من أجل جميع أسباب الغير. وحلّق النغم الصحيح، ينبض في الهواء، وحيداً، منسجماً، وصافياً.

تأتي الدونا فلور من موسيقى أخرى، لكنْ من النغمات الكلاسيكية الرفيعة لباخ وبيتهوفن، من السنفونيات والصوناتات، كما تسمو الدونا جيزا في نصف الضوء عند الألماني. تأتي من الألحان الشعبية، من القيثارات التي تعزف السيريناتا، من آلات الكافاكينيو البوهيمية، من الأكورديونات ذات الضحكات البلّورية. يجب أن تصحح أوركسترا الهواة الآن نفسها، إزاء اللحن الشجي من الآت الأوبويه [1]، النفير، الفيلونسيل، مع الأنغام الظاهرة من البوق. انتزاع الرأس من تلك الموسيقى الأخرى التي تجعلها غير يقظه، ضائعة في دروب معتمة، في غموض المعابر. يجب أن تدفن في تمارين البوق. في مقامات النغم في الأوركسترا، ذكريات الألمان الميتة، من زمن متوفى مضى ولم يعد موجوداً.

واهتزّ نغم البوق فوق قمصان الدكتور..

---

(١) OBOE: أداة ينفخ فيها فيصدر عنها صوت موسيقي شبيه بصوت النفير.

٧

قصص النساء اثنتان فقط. على الأقل هما اللتان بلغتا علم الدونا فلور. فهي مع هذا، تضع يدها في النار إزاء الزوج، غير معتقدة بوجود أي ذيل لتنورة أخرى في حياة الدكتور.

إحدى تينك القصتين، بشكل ما، التي تورّطت فيها ميرتيس روشا ده آراووجو، إبنة الريو الملتهبة، ولم يبلغ بها الأمر أن تغدو شيئاً ـ مجرد التباس وإحباط ـ إحباط بالتأكيد لم يدم إلا يوماً واحداً، إذ أن الجريئة ما كانت لتضيع وقتاً؛ هزّت كتفيها، ومضت في طريقها.
متزوجة من موظف في مصرف، وبما أنه قد نُقل إلى باهيّا، بمرتب أفضل ومركز أفضل، أبدت مرتيس حسرتها أمام الصديقات الحميمات، وهي تعسة بهذا النفي إلى مدينة خالية من الإغواءات الذكورية ومن دون الحرية المعهودة في ريو ده جانيرو، حيث قد غزت بعض الشهرة في انشطة الخيانة الزوجية. مع الساعات الطليقة والفارغة، من دون أبناء وبلا مشاغل أخرى، كرّست وقتها وقابليتها الطبيعية للمزاج المبتكر. كانت أماسي مسّرة في صحبة فتيان طيّبين ذوي كفاءة عالية وإغواء جسدي، من دون حصول أي خطر، وكل شيء يتم في كتمان للسر. أين، في باهيّا تحصل على الخصائص الذكورية ذاتها لسيرجينيو، على سبيل المثال، «عصارة»، والضمانة المريحة في المواعيد الغرامية[1] للدونا فاوستا؟

إينيس فاسكيز دوس سانتوس، وهي باهيّانية فخورة بتقدم بلادها، شعرت بأنها

(١) في النص الأصلي ـ البرتغالي ـ وردت العبارة بالفرنسية: RENDEZ-VOUS.

أهينت مع ذلك الإشمئزاز الشديد، فمدينتها لا يُعْتَد بها. وفي شروط الدسكرة حيث لا يوجد حتى مع من تخون زوجها ولا أين تفعله بطمأنينة. لماذا كانت ميرتيس تشتم باهيّا من دون أن تعرفها؟ وفي نهاية الأمر ما كانت سالفادور قرية صغيرة جداً ولا على هذا القدر من التأخر...

هناك بدأت إينيس غرسها للقرون وبوسعها التأكيد، مع معرفة كاملة للقضية، أنه توجد شروط مناسبة لممارسة الزراعة[1] الجيّدة مع رهن مضمون للحصاد الوفير. شقق لممارسة الجنس سرّية جداً، أكواخ[2] خفيّة بين شجر جوز الهند على الشواطىء الموحشة، مع النسيم والبحر، يا له من حلم. أما بالنسبة إلى الفتيان، فيوجد كل واحد!

أخذت إينيس فاسكيز دوس سانتوس، وعيناها طافحتان بالنزوات، وهي تعضّ على شفتها بأسنانها الصغيرة، تتذكر، كم هي متشوّقة! فوق كل شيء ذات سفيه متعجرف، ضائع، مقامر؛ لكنْ أي مشهد في ساعة العراك، أي فارس جوّال! إينيس ذات القلب المتقلّب، إنما فاعلة، عرفت في حميمية عارية فتياناً بالجملة. «إذ إنني سأقول لكِ أيتها البنت؛ ما عثرت حتى اليوم شبيهاً له، ومازلت أحتفظ بمذاق بشرته وأتحسس وراء الأذن طرف لسانه، وأسمع ضحكته عندما يأخذ نقوداً».

ـ يأخذ نقوداً؟ ـ كانت ميرتيس ترغب دائماً في معرفة جيغولو.

أعطتها إينيس المعلومات والعنوان، يا لها من كريمة الأخلاق. «مدرسة الطهي تذوّق وفنّ» بين كابيسا وساحة «الثاني من تموز». المدرّسة امرأته، فتاة طيّبة، ليست قبيحة، بشعرها الأملس ولونها النحاسي. لتدخل ميرتيس كتلميذة، فالدروس تساعد في قتل الوقت وعما قريب سيضع عليها عينه، ويده وسحره كسحر جنّي البحر[3]، أواه.

لن تنسى أن تكتب لها في ما بعد، مخبرة وشاكرة. ما كان لدى إينيس شكوك حول

---

(١) المقصود بالزراعة: غرس القرون، أي خيانة الزوج.
(٢) BANGALO: مبنى مصنوع من الخشب، شائع في الريف أو الجبل، ورد ذكرها سابقاً.
(٣) SEREIA: في الميثولوجيا، حيوان أسطوري له رأس إنسان وجسد سمكة يغوي البحارة ويغرقهم في الأعماق.

النتائج السيئة للزواج، النافعة بالأحرى لجميع الشركاء[1]، خاصة للزوج الذي احتفى بالأمر، بشهادة الدكتوراه في فن الطهي، بوسع ميرتيس أن تقدّم له وجبات طعام باهيّانية من أفضل مذاقٍ. فالمدرّسة كانت من الدرجة الأولى، معلّمة في الفن، ولديها يدان ساحرتان.

ما ارتابت الدونا فلور قط، لا قبلاً ولا الآن بالعلاقة الجنسية بين المرحوم وإينيس تلك، في ذلك الوقت تبدو رصينة هزيلة، متهافتة على التوابل. ولولا الطيش اللاحق لميرتيس المتمرّدة، ربما لم تعرف أبداً ذلك الغش للمرحوم. لكنْ واحدة أكثر، واحدة أقل، لكنَّ كثيرات. والآن الدونا فلور كانت متزوجة من رجل ذي قماشة أخرى، ذي قواعد أخرى في السلوك، طاهر.

أما ميرتيس، فحالما تركّزت في باهيّا، سعت إلى المدرسة لكي تنتسب إليها. أرادت الدونا فلور إقناعها بأن تنتظر بدء الزمرة الجديدة، وكانت تجد نفسها منهمكة حالياً في الكارورو، حيث أعطت الإيفو[2] والفاتابان، من دون الكلام في بعض الحلوى التي تقدَّم بعد وجبة الطعام مثل حلوى جوز الهند، البيجو والأمبروزيا.

كانت ميرتيس في عجلة من أمرها، من المستحيل الانتظار. اخترعت عودة قريبة إلى الريو، الوقت قصير في سالفادور ولن تسنح لها فرصة أخرى لكي تتعلّم على الأقل بعض الأطباق، فزوجها كان مجنوناً بالطعام المعدّ بزيت الديندية[3]. والدونا فلور الخرقاء، وعدتها بأن تعلّمها في العطلات على الأقل الفاتابان، الشينشين[4] والآبيتي[5].

لم تعلّمها، لا تلك الأطباق الشهيّة ولا غيرها، إذ كان مرور ميرتيس بالمدرسة سريعاً. وعندما لم ترَ زوج المدرّسة في اليومين الأولين، فإنها سألت في اليوم الثالث عنه إحدى الزميلات التي قالت لها إن من الصعب رؤية الدكتور أثناء الدروس، حيث هو سجين

---

(١) PARCEIRO: شريك في اللعب.

(٢) EFO: فريدس مقلو بزيت جوز الهند مع بعض الأعشاب والتوابل، خاصة الفلفل.

(٣) DENDE: زيت مستخرج من جوز الهند.

(٤) XINXIM: دجاج مقلو من القرع والبصل الثوم بالديندية.

(٥) APETE: ضرب من الطعام مثل الفاتابان تقريباً.

الصيدلية في ذلك التوقيت ذاته. « دكتور؟ في الصيدلية؟ » ما كانت تعلم أنه صيدلي، فتلك المجنونة إينيس كلّمتها فقط عن الخصائص الرياضية للباهيّاني، وما قالت لها شيئاً عن عمله خارج السرير. حتى أن ميرتيس امتلأت أملاً، سوف تعرف في النهاية جيغولو حقيقياً.

في ذلك النهار وبطريق المصادفة، بعد هـذا الحوار بـوقـت قصير، احتـاج الدكتـور تيودورو لأحد المستندات، فجاء ليأخذه. توسّل آلاف المعاذير وهو شديد التهيّب ويحرّك أصابعه كثيراً، اجتاز التلميذات.

من هو؟ أرادت ميرتيس أن تعرف.

ـ الدكتور تيودورو، الزوج. إني أقول من الصعب أن يأتي هو وعلى الأثـر من يُرى؟ هو ذاته...

ـ زوجها؟ زوج المدرّسة؟ هذا؟

ـ ومن يجب أن يكون؟

وهو مازال بعد يعتذر، والورقة المستردة في يده، عاد الملحاح إلى الصيدلية. هزّت ميرتيس رأسها بشعره الأملس والاشقرار البلاتيني (حسب آخر موضة)؛ إما أن إينيس كانت بلهاء بحيث يتـوجّـب تغييرهـا، أو أن شيئـاً مـا حصـل. بـالتـأكيـد إن المدرّسـة تعبت من غش الجيغولو فلفظته، إذا لم يكن هو قد أخذ يتعاطى مع أخرى. ليكن كما هو، فالدونا فلور كرّست نفسها لنمط مضاد، لرجل رصين ومحترم، عندما رأى ميرتيس غير نافعة ومستحيلة، فإن الشخص الباعث على التقيّؤ، لم يلحظ حتى بريق شعرها، فمرّ بها من دون أن يراها. وأيضاً، قبل أي شيء... فالأبله ما كان خليقاً بأن يكون زوجاً، قد يكون من أولئك ذوي القرون بلا مستوى وبلا إحساس بالعدل، من الذين يثأرون للشرف بإطلاق النار وطعنات السكين، رجعيّون ومحبون للمآسي.

ما عادت إلى المدرسة ولم يبدُ لها ضرورياً تقديم قناعات للمدرّسة. وفوق هذا كانت مقلّة في الطعام (لتبقى هزيلة، على القالب، بشكلها كغاوية رجال).

ومضت قدماً فعرفت آنئذٍ بموت فحل إينيس الناري وبالـزواج الجديـد للأرملـة مـن ذلك الشخص الأعمى، اجل، ومن أسوأ حالات العمى، من عمى الذي يغلق عينيه على الحياة، غير قادر على تبيّن نور الشمس وشعر بلون الفضة.

لقد علمت الدونا فلور بتفاصيل تلك المهزلة من خلال صديقتها إينايدي وهي بدورها صديقة إينيس فاسكيز دوس سانتوس منذ أوقات التلمذة، ولهذا كانت موضع سرّ الالتباسات الباهيّانية لميرتيس روشا ده آراووجو، التي لخّصت إحباطها بجملة أدبية على وجه التقريب:

- إنها مغامرتي مع شخص متوفٍ... تبقى ناقصة في لحمي.

في جملة وفي شكوى، لكي أعرف الدكتور تيودورو: «تلك التفاهة من رجل، ذلك الأخرق!»، أحرق أصابعي في موقد الدونا فلور، في درس المقلاة لإعداد الآراتو. يا له من شيء مضحك!

بالنسبة إلى الدونا ماغنوليا، في نافذتها التي تتطلّع منها باستمرار، أوه! متطلّعة من النافذة جسورة جداً! إن واقع كون المرء رصيناً ومسؤولاً ما كان يجعلها تسحب إزاء الدكتور، الاهتمام، مولية إيّاه ذات اهتمام حار. في غرسها بذور القرون، وهي مزارعة كفوءة كما هي ابنة الريو المتحذلقة، عشيقة الشرطي السرّي، تعلّمت أن تغيّر عشاقها، في اللون، في المظهر وفي العمر، عدوة لأية رتابة. وفيما ميرتيس المتتبعّة لنمط معيّن، لا تفكر إلاّ في فتيان بلا عقل، ما كانت ماغنوليا المعادية للمذاهب الحازمة، تختصر نفسها على تركيبة واحدة، على شكل واحد. اليوم أسمر، غداً أشقر، وبعده شخص معتم اللون، متبعة المراهق القلق بخمسيني أشيب الشعر. لماذا تكرار أطباق بنفس التوابل، وبمطبخ واحد فقط؟ كانت الدونا ماغنوليا جامعة بين النقيضين.

أربع مرّات في اليوم، على الأقل، في الذهاب والمجيء من البيت إلى الصيدلية وبالعكس، كان «الأربعيني الأهيف القد» (حسب الكرة البلّورية للدونا دينورا) يمرّ تحت النافذة، حيث الدونا ماغنوليا وهي في رداء [1] مكشوف أعلى الصدر، تزرع ثديين عاتيَيْن،

(١) ROBE: رداء فوق قميص النوم.

جد كبيرين ومستديرين بقدر ما هما ممنوحان. وفتيان المدرسة الثانوية إيبيرانغا ، القائمة في شارع قريب ، غيّروا اتجاه طريقهم، لكي يقوموا بعرض جماعي مستمر تحت النافذة حيث ينمو ذانك الثديان القادران على إرضاعهم جميعاً . وكانت الدونا ماغنوليا تلين لهم، كم هم جميلون مع أرديتهم الخاصة بالطلبة الثانويين، فيرتفع أصغرهم على أطراف اقدامهم من أجل متعة الرؤية، وحلم اللمس. « دعهم يتألمون ليتعلّموا » ، كانت الدونا ماغنوليا تسيل علم تربية، متيحةً الوسيلة لكي تعرض بشكل أفضل الثديين والصدر (إذ لا تسمح لهم بعرض أكثر من ذلك لسوء الحظ في إطار النافذة).

تألّم صبيان المدرسة الثانوية، تأوّه عمال الصناعة في الجوار، باعة ينقلون مشتروات، شبان مثل روكي، بائع الأطر، هرمون مثل ألفريدو في عودته مع قديسيه[1] . أتى أناس من بعيد ، من سيه، من جيكيتايا ، من إيتاباجيبي، من توروررو ، من ماتاتو ، في حجيج، لمجرّد رؤية تلك الروائع التي جرى الكلام عليها. متسوّل عبر الشارع عند الثالثة من بعد الظهر بالضبط ، تحت الشمس:

ـ صدقة لمسكين أعمى العينين...

أفضل صدقة كانت رؤية آلهة في نافذة، حتى مع خطر كشف القناع ، منتزعاً النظّارتين السوداوين ، زرع عينيه دفعة واحدة وهما منفتحتان على اتساعهما في تلك النعم من الله ، ممتلكات الشرطي. فلو طارده الشرطي ووضعه في الحبس، بتهمة الاحتيال والزيف في التسوّل، مع هذا فلسوف يُقال إن الأعمى قد نال وطره.

الدكتور تيودورو فقط ، عاقداً ربطة العنق، في أبهة بذلته البيضاء ، ما كان يرفع عينيه إلى السماء مرئياً من النافذة. فيحني رأسه في تحيّة ذات تهذيب رفيع، وينتزع القبعة وهو يرغب لها صباحاً طيّباً أو مساء طيّباً ، غير مبالٍ لزرع الثديين اللذين كانت الدونا ماغنوليا تحوطهما بالدانتيل لتحصل على تأثير أفضل، لكي تثير ذلك الرجل المخلوق من المرمر، لتدمّر ذلك الوفاء الزوجي، المهين. هو وحده الأسمر، الجميل، ذو قائمة المائدة[2]

---

(١) المقصود: صور وإيقونات القديسين.

(٢) المقصود عضوه التناسلي.

بالتأكيد، هو وحده الذي كان يمرّ من دون أن يترك التأثير ظاهراً، الفرح، الذهول، من دون أن يرى، من دون أن يتطلّع حتى إلى ذلك البحر من الأثداء. آه! كان ذلك أكثر من اللازم، إهانة متمرّدة، تحدياً لا يحتمل.

إنه وحيد الزوجة، كانت الدونا دينورا تضمن ذلك، وهي العليمة بجميع التفاصيل في حياة الدكتور. فذلك ما كان ليخون زوجته، وهو لم يفعل ذلك حتى مع تافينيا مانيمولينسيا، المرأة العمومية المحدودة جداً في زبائنها. لكنَّ الدونا ماغنوليا لديها ثقة في مواطن السحر فيها؛ «يا عزيزتي فاتحة البخت، خذي ملحوظة، اكتبي ما أقوله لكِ، لا يوجد رجل وحيد الزوجة، نحن نعرف ذلك، أنا وحضرتكِ. دققي النظر في كرة البلّور وإذا كانت أهلاً للثقة لتريني الدكتور في سرير إحدى شقق الغرام ـ سرير سوبرينيا، لأكون دقيقة. وإلى جانبه المندفعة كلياً، هي خادمتكِ ماغنوليا فاتما داس نيفيس».

أولم يتأثر الدكتور بعينيْ الاشتياق من الجارة، بصوتها ذي الدعوة وهي تجيب على التحية، بالثديين المزروعين في النافذة المتنامين في الظل وفي الشمس، في رغبة الأولاد، في تأوّه الرجال الهرمين؟ ضحكت الدونا ماغنوليا، فلديها أسلحة أخرى ستوظفها، ستشنّ هجوماً فورياً.

هكذا، وهي في فترة ما بعد الظهيرة، حارّة ورطبة، وثقلٌ في الجو طالباً نسياً وقيلولة حيث الناس يغتبطون في السرير والأغاني الباعثة على معرفة الخفايا، اجتازت الدونا ماغنوليا باب الصيدلية، حاملة في يدها علبة حقن من أجل إغواء جديد للقديس أنطونيوس. مرتدية ملابس الصيف، خرقة من القماش الخفيف، تظهر مع مرورها ثراء ما تتمتع به، في إسراف.

ـ هل تستطيع أيها الدكتور أن تحقنني بحقنة؟

كان الدكتور تيودورو يقيس نترات في المختبر، والمريلة الملطخة ببقايا الهيدروكاربونات تجعله أيضاً أكثر طولاً وتزوّده بذات وقار علمي. بسطت له يدها بعلبة الحقن بابتسامة. فتناولها هو واضعاً إياها على الطاولة، وقال:

ـ لحظة واحدة...

بقيت الدونا ماغنوليا واقفة تتأمله، في كل مرّة كان يبهجها أكثر. الشخص المطلوب، في السن اللائقة، ذو قوة شديدة وإقدام. تنهّد وهو يترك المساحيق وورقة التركيب، ورفع عينيه إلى الجارة:

ـ بعض الوجع؟

ـ آه! أيها السيد الدكتور... ـ وابتسمت كما لو أنها تقول له إن وجعها في مرفقها وهو السبب.

ـ حقنة؟ تفحّص الورقة المتواجدة في علبة الحقن ـ هه... خليط من الفيتامينات... للإحتفاظ بالتوازن... هذه العقاقير الجديدة... أي توازن يا سيدتي؟ ـ وابتسم بلطف كأنه يرى مضيعة للوقت والمال في علاج الحقن ذاك.

ـ من الأعصاب أيها السيد الدكتور. إني جد حسّاسة، الدكتور لا يدري.

تناول من الأبر بملقط، مسترجعاً إياها من الماء الساخن، متنبّهاً لنقل السائل إلى وعاء الحقن، هادئاً وبلا عجلة من أمره، كل شيء دفعة واحدة وفي مكانه. بيتان من الشعر معلقان فوق طاولة العمل، كانا إعلاناً للمبادىء معروضاً بوضوح: «مكان واحد لكل شيء وكل شيء في مكانه». قرأت الدونا ماغنوليا، كانت تعرف شيئاً واحداً ومكاناً واحداً، ورمقت بخبث وجه الدكتور، إنه رجل واثق من نفسه، شخص مهم!

بعد أن غطّس في الكحول[1] كميّة صغيرة من القطن، رفع الحقنة:

إرفعي الكم...

زوّدته الدونا ماغنوليا بملاحظة، في صوت دلع وخبث:

ـ ليس في الذراع، كلا أيها الدكتور...

---

(١) ALCOOL: اسبيرتو مطهر.

أسدل الستارة ورفعت تنورتها، عارضة لعينيْ الدكتور ثراءً أكبر حجماً وأكثر فتنة من الذي تعرضه يومياً في النافذة كانت عجيزة ويا لها من عجيزة، من تلك التي تثير...

ما تحسست الوخزة، كانت يد الدكتور خفيفة وواثقة. أمدّها القطن اللاصق بالجلد في أصبع الدكتور، بإحساس بارد ممرّ. وانسابت قطرة من الكحول على أعلى فخذيها، فتنهدت مجدداً

مرّة أخرى أخطأ الدكتور تيودورو في الترجمة عن ذلك التأوّه اللذيذ:

ـ أين يؤلمكِ؟

مازالت تمسك بطرف الفستان في مباهاة الوركين اللذين لا يقاوَمان، ورمقت الدونا ماغنوليا الشخصية المشهورة جيداً في عينيها:

تُرى، هل إنك لا تفهم، لا تفهم شيئاً؟

لم يفهم حقاً:

ـ ماذا؟

هنا قد باتت حانقة، فتركت حافة الثوب، مغطّية الورك المستاء، ومن بين أسنانها تكلمت:

ـ هل أنت أعمى حقاً، هل أنت لا تتبيّن؟

تساءل الدكتور في قرارة نفسه، وفمه شبه فاغر، ووجهه جامد، وعيناه مثبتتان، إذا ما كانت قد جُنّت. واستنتجت الدونا ماغنوليا سؤاله، إزاء هذه اللحظة من البلاهة:

ـ أو إنك فعلاً أخرق؟

ـ يا سيدتي...

مدّت يدها ولمست وجه العالم في علم الصيدلة، وبصوت التصنّع والدلع مجدداً، تخلّت عن

كل شيء :

ـ ألا ترى أيها الأبله، إني متيّمة فيك، يسيل لعابي، مجنونة بك؟ ألا ترى؟

أخذت تقترب منه، كان في نيّتها الإمساك بالرجل الحذر هناك بالذات، فعلى الأقل في التمهيد للأمر، حتى ولا طفل يُخْدَع عندما يراها باسطة الشفتين، والضعف في عينيها.

فقال الدكتور في صوت خفيض لكنه فظّ العبارة:

ـ أخرجي!

ـ يا خلاسي الجميل! ـ وهجمت عليه.

ـ أخرجي! ـ دفع الدكتور عنه تينك الذراعين الشرهتين، ذلـك الفم النهم، مغروساً في بادئه، في قناعاته التي لا تتزحزح ـ أخرجي من هنا!

جليل في فضيلته التي لا تلين، بإبرة الحقن والمريلة البيضاء، والوجه الساخط، كأن الدكتور فوق قاعدة تمثال كامل، نصب ساطع البريق للخلق المنتصر على الشر. لكنّ الشر، أو ليكن البذيئة والوضيعة الدونا ماغنوليا، لم ترمق البطل المهذب بعينيْ الشعور بالذنب والندم، بل الاحتقار والغضب والسخط.

أبله، مخصي! إنك ستدفع الثمن لي أيها السيد الموزة المهترئة، أيها السيد الجدي الأرعن الهرم! ـ وخرجت لتحيك المكيدة.

مسكينة الدونا مـاغنـوليـا، ضحيـة الإحبـاط والمصـادفـة، في الواقـع في بحر الشقـاء المتواصل حيث النتائج غير المتوقعة لمكيدتها، إذ أثمرت خططها في الانتقام عن فشل. وهي معتلّة ومهانة (في حيائها، في شرفها كعشيقة رصينة) شكت إلى الشرطي السرّي «مطاردة ذلـك الخلاسي القذر، الصيدلي»، رجل عديم الحياء قدّم لها عروضاً، مكرراً لها كلاماً نابياً، يدعوها إلى الذهاب معه لرؤية ضوء القمر على رمال آبايتيه. كان السافل يستحق درساً، بعض الضربات الملائمة بالعصي، ربما مرور سريع في السجن مع بعض الصفعات لكي يتعلم احترام نساء الآخرين.

لم يقل شيئاً في الدء لكي يتجنّب الضجة وكيلا يسبب نفوراً لامرأته، الطيّبة جداً. لكنْ في ذلك اليوم غالى الشخص المذكور في الأمر... فلقد ذهبت إلى الصيدلية لتناول حقنة وأراد السافل أن يضع يده على نهديها، مجبراً إيّاها على الخروج راكضة.

استمع الشرطي السرّي للقصة كلها بصمت، والدونا ماغنوليا التي تعرفه جيداً، كانت ترسّخ يقينها في كل مرّة أكثر في وجه رجلها؛ الدكتور سيدفع لها غالياً ثمن الإهانة، على الأقل ليلة في السجن.

في ذلك المساء تخاصم الشرطي مع أحد زملائه، نتيجة أخطاء في الحساب في مبلغ زهيد، بضعة آلاف ريس[1] سُلبت من لاعبي القمار. وفي الحوار القاسي جداً الذي سبق تبادل اللكمات والصفعات، وصف عشيق الدونا ماغنوليا رفيقه باللص، ومنه سمع اكتشافات مرعبة: «لصّ أفضل، قال هو، من رجل ذي قرون، وديع مثل الصديق العزيز». وأضاف على الأثر براهين عن انقلابات حديثة معيّنة للدونا ماغنوليا. وفي ملخص أعلمه أن الزملاء في الشرطة وحدهم كانوا خمسة في التناوب على مهمة تزيين جبين الرجل الفاضل. هذا من دون الكلام عن مفوّض الآداب. فلو وضعوا له مصباحاً في كل قرن، لأدى الأمر إلى إضاءة نصف مدينة، من ساحة دا سيه إلى كامبو غراندي. قد لا يكون لصاً، لكنه كان عار الشرطة. ومضيا في اللكمات.

أجرى صلحاً مع رفيقه، وقد بات شرفه نظيفاً في العراك، ومنه ومن آخرين سمع معلومات ترعب؛ هل تناهى إلى سمعك الكلام عن امرأة عاهرة تدعى ميسالينا[2]؟ ليست هي من المنطقة، كلا، إنها من التاريخ، وكانت المذكورة، حسناً، أمام الدونا ماغنوليا، فتاة عذراء نقية...

اغتمّ عار الشرطة وأقسم على الثأر. إذاً فهو انتحالٌ تهديد الدونا ماغنوليا للصيدلي:

- بقرة! ستدفعين الثمن لي!

---

(١) كل ورقة نقدية من فئة ألف ريس تساوي كروزيرو واحداً.

(٢) إحدى الامبراطورات في العهد الروماني اشتهرت بالفسق والفجور.

هكذا سُمعت كل تلك الثرثرة، وما كادت الدونا ماغنوليا تنتهي من ذكر ثدييها ذاتها بوقار شديد كمدافعين عن الهجوم الزائف للدكتور، حتى كان التحرّي يوجّه يده إلى وجهها ويصرّ على اعتراف كامل. ضربٌ مبرح من ماهر، من شخص ذي تجربة ومذاق. فروت الدونا ماغنوليا الذي فعلته والذي لم تفعله، خصوصاً مسائل قديمة، من دون أن يكون لها أي ارتباط بالشرطي، والحقيقة الكاملة لعلاقاتها بالدكتور تيودورو. حقيقة كاملة، في حدود. إذ عندما برّأته لم تتخلّ عن إبداء الرأي حول الدكتور، عنيّن حسن الهيئة وبلا أي نفع، إذ لم يوجّه إليها أحد ما أبداً إهانة رفض منظر مؤخرتها التي تشهر الحرب.

كان ثمة اضطراب في الشارع، ضوضاء. وجلبت الصفعات والصرخات والشتائم، إلى أمام بيت الشرطي السرّي، حشداً متطفّلاً من الجيران، إشبينات وتلاميذ المدرسة الثانوية. الإشبينات وبشكل عام الجيران، كنّ يؤيدن الضرب، الذي تستحقه جداً وقد مورس بشكل حسن، مع عيب وحيد؛ لقد تأخّر كثيراً. وعانى فتية المدرسة الثانوية من كل لكمة، من كل لطمة كأنها كانت على أبدانهم بالذات، حيث أن في ذلك البدن ذي الرقة والدلع، الذي امتلكه كل منهم في أسرّة مراهقة متفرّدة، وُجدت ليالٍ فيها كانت تنام، أنثى متواجدة في كل مكان، راعية أولاد كلية الحضور، معلّمة الحب، في أكثر من الأربعين سريراً للفتية في وقت واحد، في الحلم وتورّد الخدود.

ومع هذا، فمن تسلل إلى بيت التحرّي كانتا الدونا فلور والدونا نورما، وفيما الآخرون كانوا قانعين بالهتاف أو الانتقاد، فإن أحداً لا يريد مضايقات مع عنصر الشرطة.

صرخت الدونا نورما:

ـ أيها السيد تياغو، ما هذا؟ هل تريد قتل المرأة المنكوبة؟ هيّا، إطلق سراحها...

أجاب الرياضي وهو يوجّه بعض الضربات الأخيرة:

ـ إنها لتستحق ان أنتهي منها، هذه البقرة...

فقالت الدونا فلور منحنية على المسحوقة ضحية القدر:

ـ يا لها من مسكينة... إنك أيها السيد لوحش...

ـ مسكينة؟ ـ لم يستطيع عنصر الشرطة السكوت مع كل هذا الظلم ـ هل تعلمين ما الذي اخترعته هذه المسكينة حول زوجكِ؟

ـ حول زوجي؟

ـ جاءت لتخبرني أن الدكتور كان يجري وراءها وأنه أراد الإمساك بها اليوم في الصيدلية، من رسغها. وحينما ضيّقت الخناق عليها اعترفت بأن ذلك كله كان أكذوبة، وانها أرادت أن أدبّر مكيدة له، ولكي أمضي في التوضيح، هي من سعت إليه تراوده عن نفسه وهو لم يلمسها. هذا من دون الكلام عن البقية.

وسأل بصوت حزين:

ـ هل تعلم السيدة كيف كانوا يدعونني؟ «عار الشرطة».

في تلك الليلة، عند خروجهما إلى السينما، فيما هما يعدّان نفسيهما، قالت الدونا فلور للدكتور تيودورو مبتسمة، وهي أمام المرآة، تضع مسحوق الأرز على وجهها:

ـ إذاً فأنت أيها السيد الدكتور تريد الإمساك بالزبائن الذين يذهبون إلى الصيدلية لأخذ حقنة... أردت الإمساك بالدونا ماغنوليا...

رمقها وأيقن أنه هزار، فالدونا فلور لم تأخذه على محمل الجد، كل ذلك الذي يبدو هزلياً بأجمعه. وبقدر ما شاءت التأثر بوفاء الزوج، لم تتمكن من إبعاد صورة الدكتور تيودورو وجهاز الحقن في يده، وذات الصدر الكبير ماغنوليا، العديمة الحشمة، تحاول تقبيله. زوج مستقيم كان هناك، مهذّباً بكل التهذيب. لكن، ما العمل إذا مثّلت تلك القصة له قصة مسلّية، ساخرة أكثر منها بطولة؟

ـ مجنونة... بأي حق ظنّت هي أني سوف أدنّس مختبري، أسيء إلى زبائني؟

ـ في هذه الحالة ما كان ذلك إساءة تصرّف يا عزيزي، فهي ذاتها من كانت تقدّم نفسها...

أخفض صوته ، لم يفقد أبداً حياءه كله أمام الزوجة ، في مواضيع مثل تلك :

ـ كيف كان بوسعي النظر إلى امرأة أخرى ، ما دمتِ أنتِ ، عزيزتي ؟

لم يوجد رجل أكثر وفاءً واستقامة ، فمدّت الدونا فلور له شفتيها وقبّلها بشكل خفيف .

ـ أشكرك يا تيودورو ، فأنا أفكر الشيء ذاته إزاءك .

في الشارع ، في الزوايا ، عند تناول جرعات من المشروب في بار مينديز ، كان الرجال يعلّقون على الضرب المبرح ، عوامله وآثاره . الدونا ماغنوليا باتت في منزل الأقارب ، كانت في حمام من الماء والملح ، فالتحرّي ملأ وجهها بالكدمات .

وأثار السيد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى المسألة ، هل كان الدكتور تيودورو عاجزاً أم لا ؟ فالمرأة البغي لا تؤكده فقط ، إنما بصوت عالٍ (بالأحرى بصرخات) أيضاً ـ هيّا نتفق على هذا ـ إن خصياً وحده سيكون قادراً على الرفض الناهض لإغواء ماغنوليا ، لروائعها . أخذ يروّج للتشكيك في فحولته ، وهـذا يـروج . وقـد أثير مـويـزيس ألفيس صاحب مزرعة الكاكاو ، فدافع عن الصيدلي :

ـ أخرق ؟ إنها لكذبة من عديمة الحياء هذه . رجل رصين ، ذو مسؤولية ، هل تريد منه أن يغازل المرأة الآثمة فوق العقاقير ؟

ومع هذا فإن السيد فيفالدو بقي منتقداً :

ـ التعاطي مع قطعة[1] من هؤلاء ... في الصيدلية أم في أي مكان كان ... إذا ظهرت هناك ، في « الفردوس المزهر » ، مع الرغبة في التعاطي معها ، هناك بالذات ، في تابوت ...

لقد جرى الاتفاق في تفصيـل واحد ، سواء أكان عنيناً أم زاهداً ، فالدكتور تيودورو تصرّف بشكل سيّء عندما طردها من دون تعيين موعد للقاء .

---

(١) المقصود امرأة فاتنة .

ـ الله يعطي الجوز لمن ليس له أسنان...

ووصلت أصداء النقاشات المنفلتة في الزوايا وفي البارات، المشتعلة في الجعة والكاشاسا[1]، إلى أسماع الدونا فلور وأيضاً الثناء العام من الصديقات والجارات.

ـ لو أن جميع الأزواج كانوا هكذا، لساووا الكثير...

سخطت ماريا أنطونيا بمكيدة ضد الزوج، وهي تلميذة سابقة مثيرة للصخب وقوّادة، التي قدمت لزيارتها لتثير حفيظتها:

ـ إذا شاء أحد ما أن يعرف إذا كان هو رجلاً في الحقيقة، ليأت إلى هنا وأنا آمره بإظهار...

ـ تأمرينه حقاً؟ ـ ضحكت ماريا أنطونيا في سلوك غريب وفي سخرية.

ضحكت أيضاً الدونا فلور. ومع أنها قد أُثيرت بالوشوشة، لم تستطع إمساك الضحكة إزاء فظاظة الموقف.

ذات صباح، بعد ذلك بوقت، مَنْ جاءت كانت ديونيزيا ده أوشوصي جالبة ولدها السمين ليتناول البركة من العرّابة. كانت تأتي، مؤخراً، قليلاً ونادراً جداً. أخبرتها بالنفور الذي انتابها عند اكتشاف تدبير امرأة في حياة زوجها؛ قاطعاً الطريق بالشاحنة، قائماً بوضع هنا وهناك، وورّط نفسه مع امرأة في جوازيرو. ديونيزيا تقصّت الأثر في رسالة شريرة، وأثارت هياجاً، هددت بطرد الخائن خارج البيت. مجرّد تهديد يا إشبينتي فأين هو الرجل الذي ليس لديه اضطرابات من امرأة، الذي لا يضع قروناً للزوجة؟ لكنها تأثرت كثيراً، حتى أنها هزلت، والآن فقط أخذت في التحسّن، إذ أن الزوج لم ينته من المرأة وحسب، بل لم يعد ينام في جوازيرو.

واستها الدونا فلور: مَنْ لم يعان من هذه التناقضات؟ فهي، الدونا فلور، ليس منذ

---

(١) CACHAÇA: عرق برازيلي يقطر من العسل أو من قصب السكر. ورد ذكرها سابقاً.

وقت طويل أيضاً كانت عرضة للإنزعاج الناجم عن اكتشاف سبب لها جرحاً وألماً.

- هل الدكتور أيضاً يخالف واجباته؟ حتى هو؟ لقد قلت لحضرتـك إن لا أحد ينجو من عقبة تصبعها امرأة...

- مَنْ؟ تيودورو؟ كلا، إن قلقي كان من شيء آخر، مختلف. يا إشبينتي ديونيزيا، إن تيودورو هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة... هو رجل رصين، ومن أجله أضع يدي في النار...

تنبهت الدونا فلور على حين بغتة لأمر ما، وكادت تعترف به لديونيزيا. فإن قصتين من قصص المرأة حدثتا مع الدكتور تيودورو، والوحيدة المحسوسة ذات مبدأ وغاية، والوحيدة التي سببت لها جرحاً وآلمتها بعمق، لم تحدث مع الزوج الثاني، وإنما مع الزوج الأول تلك القصة القديمة، الآن فقط تظهر، بين إينيس فاسكيز دوس سانتوس والمتوفى. وحين تذكر الدونا فلور، ماغنوليا أو ميرتيس، فإن الهزيلة والماكرة إينيس تنتصب في الحال أمامها، مستهترة منافقة، عاهرة!

٨

دامت التمارين على المعزوفة المعَدّة لصوت واحد قرابة ستة شهور قبل أن يعتبرها في شروط كاملة للتنفيذ، المايسترو المتطلّب، الأشد تطلّباً أيضاً في تلك الحالة. عمل من تأليفك ومكرّس إلى لطف وطيبة الدونا فلور، «هديل فلوريبيديس» فهو التأوّه باسم يسوع.

جميع أيام السبت عند المساء، مع الشمس أو المطر، في بيت هذا أو ذاك، كانوا يجتمعون لتكرار الأنغام من أجل الكونشرتو المقبل الذي غُيّر موعده ومكانه؛ من هنا إلى أسبوع في مسكن آل تافيرا بيريس.

كانت قد انصرفت تلك الشهور، في سلام من الرب، بلا حوادث مهمة خليقة بسجل خاص، باستثناء ربما هو بداية ماريلدا «أمام مذياعات الشعب، مذياعات راديو آمارالينا، محطة البنت، الأكثر شباباً واستماعاً إليها»، فتحرك الجيران، وأثير الجوار. كان الأمر كما لو أن جميع تلك الشوارع والأزقة تدشّن بصوت الفتاة في هواء المدينة، مثل ذلك الهياج والتوتر.

الدونا نورما، نقيبة[1] تقود عصبة المشجعين، بعثة شديدة الصخب، حضرت إلى الإذاعة في الموعد الاحتفالي. حصة مشتركة بين الجيران يجمعهم قدر ملموس من أجل

---

(١) CAPITA: مؤنث CAPITAO: النقيب أو قائد الفرقة من الجند، أو ربان السفينة أو القبطان

الذكرى؛ في يد السيد صامويل داس جوياس [١] - كان يبيع جواهر وكم من الأشياء الجميلة لديه في هذا العالم؛ أجواخ، أقمشة إستوائية، كتّان، مفروشات، عطور، كله بالتهريب وكان بالبلاش - ساعة يد جميلة، حديثة ومبتكرة، مع ستة شهور كفالة، « سويسرية، ستة عشر حجراً، في منتهى الرخص »، يؤكد السيد صامويل، معطياً انطباعاً بأنه يبيعها لكي يؤدي معروفا فقط لزبونته الطيّبة الدونا نورما.

في الليل، ثبّت السيد سامبايو، حين عُرض عليه المشترى الاستثنائي، أن الزوجة كانت مرّة أخرى عرضة للخداع من قبل البائع الجوّال الهرم، الذي كان يبيعها منذ عشرين سنة وسيبيع حتى يودّع أحد الاثنين الدنيا.

- وإذا ماتت هي أولاً، فهو الهرم صامويل، قادر في ساعة الاحتضار على أن يبيعها المشح الأخير [٢]، بالتهريب [٣]...

ليست سويسرية ولا وافرة الأحجار، مصنوعة في سان باولو لكنْ ليس لهذا السبب هي ساعة رديئة، « من اللازم الانتهاء من هذه الطريقة في الكلام بشكل رديء عن الصناعة البرازيلية الجيدة مثل أي صناعة أخرى ». هكذا كان السيد سامبايو الوطني يصل إلى النتيجة.

في يوم البداية، كما هو طبيعي ومُدْرَك، اعترى الدونا ماريا دو كارمو توتر عصبي عند رؤيتها ابنتها أمام المذياع والمذيع يعلن مزاياها، « صوت رقيق هو صوت الطائر الاستوائي ». والدونا فلور أيضاً مسحت دموعاً؛ كانت تكنّ لماريلدا حنان الأم، وقد ناضلت لتراها هناك، وهو ذات إنجاز، حتى أنها أثارت إزعاجا للدكتور تيودورو بسببها. وإذا كان نصر ماريلدا يخصّ جميع الجيران، فإنه كان بشكل أساسي للدونا فلور. ولتحتفي بها جلبت الحلوى إلى المائدة المقدّمة في بيت الشابة، حيث فُتحت في تلك الليلة زجاجة شامبانيا (مقدّمة من أوزفالدينيو).

---

(١) يعتمد المؤلف أسلوب السخرية في إطلاق الألقاب على شخوصه. فمعنى « داس جوياس »: ذو الجواهر، أي بائعها اليهودي صومائيل.

(٢) EXTREMA-UNCAO: آخر مسح بالزيت المبارك مع البخور للميت لدى المسيحيين، يعرف بالمشح.

(٣) عبارة « التهريب » يعتمدها المؤلف للسخرية من الباعة الجوالين الذين يزعمون أنهم يحصلون على بضاعتهم بالتهريب، ليوهموا المشترين أنها بضاعة أجنبية.

إضافة إلى بداية المغنّية الشابة، التي حظيت بتعاطف من نقّاد الإذاعة والجمهور، حدث أيضاً سفر الدونا جيزا إلى الولايات المتحدة، بشكل طارىء، معطية مكاناً لتعليقات وافرة. حتى ولا الدونا دينورا مع منارتها في التنبؤ بتفاصيل جميع الناس، حتى ولا هي قد تخيّلت أبداً ذلك النبأ؟ توفي في نيويورك شخص معيّن يدعى مستر شلبي وترك ممتلكاته إرثاً للدونا جيزا. مَنْ كان هذا المستر؟ ولماذا أوصى بثروته لمدرّسة للغة الإنكليزية مقيمة منذ سنين كثيرة في البرازيل؟ لم يستطيعوا توجيه الأسئلة إلى الدونا جيزا، فهي قد سافرت ليلاً، من دون إعلان مسبق وبلا مراسم الوداع.

ظهرت الشائعات الأشد غرابة، حول الميت وثروته. قالوا عنه إنه زوج، مطلّق أم لا، غرام قديم، حالة حب؛ ترجمات مضاعفة، شريفة أو غير محتشمة وفي أمر منسجم؛ الدونا جيزا تنهش ثروة هائلة، وراثة مليونير، إنما مليونير أميركي، ثري بالدولارات وليس بألوف الريس.

انهارت كل الشائعات عندما جلب البريد رسالة جويّة إلى الدونا نورما، التي قبل أن تفضّها، تفحّصت طويلاً تلك الطوابع الأجنبية والخط المألوف جداً، خط الدونا جيزا، القوي والصعب، الشبيه بخط الدكتور.

من نيويورك كانت تكتب لتعلن العودة المقبلة. حملت زهوراً إلى ضريح ابن العم («ابن العم؟ ليصدق من يشاء... كان زوجاً، إذا لم يكن شيئاً آخر»، كانوا يكيدون في الزوايا وفي البارات، الإشبينات والمستمتعون بالحياة الرغيدة من دون أن يبذلوا جهداً). وقد وضعت شؤونها في نصابها. في الواقع ورثت - قريبته الوحيدة - لكنَّ الإرث كان مقتصراً على سيارة مستعملة، وأغراض للاستعمال الشخصي وللبيت، بعض الأسهم القليلة في شركات نفطية في الشرق الأوسط (مهتزّة والأسهم في خطر). باعت كل شيء ولم يكد المصفّى يكفي لتسديد نفقات السفر. التركة التي تركها ابن العم المشكوك في أمره هي فقط «بسيو»، وهو كلب صيد [1] من جنس أصيل، وعما قريب سيكون في شوارع باهيّا، إذ أن الدونا جيزا تحضّر الأوراق لتأتي به.

---

(١) BOSSET : فرنسية الأصل، تعني: كلب الصيد قصير القوائم المعوجة.

ومن هنا ، عندما حدث هذا في تلك الشهور ، كان بالوسع أن يغدو موضوع هذه الواقعة التاريخية للدونا فلور وزوجيها الاثنين. وخارج هذا كانت التمارين ، إجتماعات جمعية الصيدلة ، دروس « المدرسة » ، زيارات للأقارب والأصدقاء ، الذهاب إلى السينما ، الحب في أيام الأربعاء والسبت.

لم تعد الدونا فلور تظهر في التمارين بذات المواظبة التي كانت في البداية ، من دون أن تعتبرها ، في نفس الوقت ، جافة ، مجرّد تفاهة مثلما كان رأي بعض زوجات أعضاء الأوركسترا عاماً وملحوظاً. وبقدر ما هي صديقة للزوج ومتضامنة مع واجباته ومسرّته ، كانت من آن لآخر ترخي جسدها وتتهرّب من التمرين. ولأنهم في الواقع وحدهم محبو الموسيقى ، لديهم الشروط من أجل الإخلاد في ذلك التكرار الرتيب للألحان ، إلى السلام الداخلي ، الابتهاج اللانهائي.

وهذا أيضاً بالنسبة إلى الحضور المضبوط على الوقت للاجتماعات المفعمة بالمعرفة لجمعية الصيدلة ، بنظرياتها ومداولاتها. فلماذا تجبر نفسها على الذهاب؟ من أجل الصراع طيلة الليل ضد النعاس الخبيث والمحتوم ، ساعية لأن تبقى يقظة ، وتغدو في النهاية مغلوبة مجللة في عار الوشوشات؟ لم تقاوم أثناء انعقاد الجلسة بكاملها ، حتى ولا حين قدّم الدكتور تيودورو أطروحته المثيرة للجدل حول (« إبدال الوقايات الطبيعية في علاج الأرق بالمنتجات العضوية ») ، مع أن تلك الليلة كانت ليلة اهتياج ، ذات مداولات عنيفة ، حيث كانت سمعة الدكتور العلمية رهن المقامرة. وأيضاً أدركهم الفجر وهم يتناقشون ، وعندما قدّم الزوج لها ذراعه وهو مهتاج وسعيد ، استيقظت هي مع التصفيق ، وكادت تستميحه عذراً لكونها غفت ، كما لو أنها جرعت جرعات من علاج طبيعي ، وقالت أيضاً :

ـ يا عزيزي . . .

بيد أنه ، لشدة ما اعتراه من انشراح ، لم يلحظ عينيها الحمراوين ، ووجهها المستيقظ بغتة.

ـ أشكركِ يا عزيزتي ، يا له من نصر!

لقد دمّر دفعة واحدة وإلى الأبد، هذه العقاقير، قائماً بواجبه كمواطن وصيدلي. وفي الصيدلية كان يبيعها، هذه السموم الخطرة، حاصلاً منها، ومن على منصّة البيع، على أرباح وفيرة إذ أنها كانت في إطار الموضة. فهو صيدلي علاّمة ودارس، وفي الوقت ذاته، مالك صيدلية قادر وفالح، ولا يشعر الدكتور أنه منزعج أو مخادع عند وجود تناقض يأتي عرضاً في تصرّفه، إذ كان يلاحظ بضميره ذاته الذي لا يلين، الأخلاقية النبيلة كعالم، وليس أقل من ذلك كونه تاجراً.

إنه لحدثٌ بالفعل، رجّع صداه في أعمدة الجرائد، وكان مثار التعليق في أعلى الحلقات مستوى، محرّكاً الخيّاطات، محلاّت الأزياء، الخياطيـن، حيث أن سجلّهم يتحوّل إلزامياً (في الدورات التي يدور فيها العالم من يدري إذا كنا ذات يوم لا نهرع إلى الكومينداذور آدريانو بيريس، صاحب المال؟). كان كونشرتو أوركسترا الهواة أبناء أورفيو في القصر في حفلة كوميندادور البابا، الماهر في العزف على الفيلونسيل.

إن وصف تلك الأمسية من أمسيات الفن في بريقها الكامل، يبدو لنا مهمة مستحيلة، فوق قدرة قوانا وفي هذا الأسلوب الفقير. وإذا أراد أحد ما أن يعلم، على سبيل المثال، عن فساتين السيدات، عن جمالهن وأناقتهن التي لا تضاهى، فإننا نرسله إلى مجموعة جريدة الشاعر تافاريس، حيث يستطيع قراءة التغطية التي قام بها اللامع على الدوام سيلفيو لامينيا، الحكم في هذه المادة المكرّسة. أما بالنسبة إلى الكونشرتو المذكورة، فالمهتمون لديهم آراء معبّر عنها في الجرائد من قبل الناقدين فينركايز وجوزيه بيدريرا، إضافة إلى تعليق إيليو باستو، رجل الأدوات الموسيقية السبع، إذ إنه علاوة على كونه عازف بيانو كان يمارس الآداب والفنون الجميلة. الدونا روزيلدا جمعت في نازاريت القصاصات التي أشارت كلها تقريباً بتمجيد، إلى الدكتور تيودورو وإلى «تنفيذه المحكم في العزف المنفرد الصعب على البوق في المقطوعة ذات الصوت الواحد التي ألّفها آجينور غوميس، إحدى النقاط العالية في الكونشرتو» («نوطات كونشرتو» في «جريدة باهيّا»).

في تلك الليلة شوهدت الدونا فلور في أسمى حالاتها، في أعلى مراتب السلّم الاجتماعي، مضاءة وملحوظة؛ «زينة لطيفة، أي خيّاط باريسي وقّع على فستانها المصنوع من نسيج

المواريه فوف[1] مكشوف الرقبة والكتفين، واضعة على خفّها كثيراً من الناس الطيّبين؟» كما كتب في مقالته سيلفينيو، الولد ـ الإله[2] للمجتمع. كانت حاضرة صفوة المجتمع كلها، الناس الأكثر أهمية في باهيّا، شخصيات السياسة، المال، الثقافة، من المطران الأول إلى رئيس الشرطة، وبينهم مفرطون في تقليد الأزياء ومزعجون، وأولئك المحتالون الذين توصّلوا بنجاح إلى الهجوم على الصندوق، بادئين بصهريْ الكوميندادور.

من مشارف ساحة «الثاني من تموز»، علاوة على الدكتور تيودورو، وحده السيد زيه سامبايو، زميل الحصان الأبيض في نادي أصحاب المتاجر رفيقه القديم في المدرسة، تلقى دعوة. رفض الذهاب.

ـ كلا! حباً بالله... دعوني بسلام، إني أشعر بتوعك رديء، يلزمني شيء من الراحة... إذهبي انتِ بمفردكِ يا نورما إذا أردت...

وطبيعي أن تذهب الدونا نورما، ليس بمفردها إنما مع الدونا فلور والدكتور (كيف يستهان بدعوة هي امتياز؟ وحده زوجها فقط، المنطوي على نفسه والمعادي للمجتمع، وحش من وحوش الغابة).

قال الكوميندادور للدونا إيما كولادا:

ـ أريد كل شيء حسناً وأفضل ما يمكن...

كان كل شيء حسناً ومن أفضل ما يمكن، فالدونا إيماكولادا بوسعها أن تكون محرّضة قاسية، لكن العدالة يجب أن تقام، فقد كانت تحسن الاستقبال. جرى التعاقد مع (بوزن الذهب) على أن يقوم المهندس المعماري جيلبيرتو شافيس بديكورات الحدائق حيث تعزف الأوركسترا.

ـ لا تخش النفقات أيها الشاب، أريد شيئاً حسناً، مع محفّة وكل شيء. انفق الذي تراه

---

(١) MOIRE FAUVE (بالفرنسية) هكذا وردت في النص الأصلي (البرتغالي) ومعناها: نسيج متموج أصهب اللون.

(٢) MENINO-DEUS: أحد ألقاب السيد المسيح عند البرازيليين.

لازماً . . . ـ الكوميندادور الشحيح مع الموظفين ومع المصاريف الضئيلة ، كان يفتح أربطة الحقيبة ، وتناول دفتر الشيكات .

كانت تلك كلمات مفعمة بالعسل لأذنيْ المعلّم شافيس ، فلم يقس نفقات . أنفق ثروة ، لكنْ أي جمال ! كانت تبدو حديقة من قصص الخرافات والمسرح المدرج الصغير كان جرأة هندسية لم تُرَ أبداً في باهيّا : « جيلبيربيت ـ تعلموا الإسم الصحيح ، إنه جيلبيربيت وليس جيلبيرتو أو جيلبيرت ، كما يلفظ الأثرياء المشبوهون ـ أظهر نبوغه المغالي في الحداثة » (سيلفينيو مرّة أخرى وليست المرّة الأخيرة بالتأكيد) .

عندما دخلت الدونا فلور فتحت فمها في إعجاب وذهول :

ـ يا للفعالية !

كانت الدونا إيماكولادا والكوميندادور يستقبلان المدعوين ، هي ملفوفة بخرق آتية من أوروبا ، تمسك نظارتيها بلا ماسكين ، وهو سيء الهندام رغم السموكنغ ، بالقميص ذي الصدر الصلب والياقة ذات الطرف المقلوب . وعند رؤيته الدكتور تيودورو والبوق في قبضة يده ، ووجهه مختلف اللون من القماش الأبيض ينفرج عن ابتسامة :

ـ تيودورو العزيز جداً ! هيّا بنا نقدّم النوطة اليوم ـ سعيد بالكونشرتو وبالتورية .

كانت الدونا إيماكولادا المنتصبة تمدّ أطراف أصابعها لقبلة الرجال ، ولانحناءة النساء كما لو أن البعض والأخر جئن ليطلبن البركة منها .

يا لها من امرأة عجفاء دميمة ! ـ قالت الدونا نورما حالما رأت من بعيد نظارتيْ الكوميندادورة بلاماسكين .

ـ محسنة جداً ، بيد أنها . . . رئيسة جمعية الإسعاف لحشود إفريقيا وآسيا . . . حتى أنها كتبت إليّ حول هذا الموضوع . لقد تلقى الدكتور تيودورو منذ وقت بعيد رسالة سائلة إياه معونة للبعثات الكاثوليكية في تينك القارتين موقعة من قبل الكوميندادورة .

شاهدوا أوربانو بوبري أومين ، لامعاً في بذلته السموكنغ الحديثة الخروج من عند

الخيّاط (المدفوع ثمنها من قبل الكوميندادور عند معرفته بأن عازف الكمان لن يستطيع القدوم إلى الكونشرتو لعدم حيازته بذلة خاصة به)، وصندوق الكمان في يده. لقد خرج من المنزل تحت سطوة سخرية الزوجة وهناك سعى إلى التخفّي بين الأشجار، ماراً من غير أن يكون ملحوظاً. جرّه الدكتور تيودورو إلى المدرج، وهناك تركا آلتيهما الموسيقيتين.

كان الوقت محدداً بالثامنة، وقد انصرمت التاسعة حينما استطاع المايسترو آجينور غوميس جمع الموسيقيين وأعطى إشارة البدء للكونشرتو.

المدعوون الذين كانوا يحتسون جرعات من الخمرة في القاعات والحدائق، لم يظهروا عجلة، وكان من اللازم أن يأخذ الكوميندادور نفسه المذياع ويزعق بحنق، وصوته فظ:

ـ الكونشرتو سيبدأ، فخذوا في الحال أماكنكم، هيّا، هيّا...

مَنْ لم يلب ذلك النداء، الذي هو أمر وليس دعوة؟ توقف الضجيج، احتلّ السادة والسيدات المقاعد، وبقي كثير من الرجال وقوفاً، في أمل الهروب. إنه استعراض حقيقي للأناقة، فالنساء يعرضن مجوهرات ثمينة وفساتين تكشف الصدر والكتفين جريئة، والسادة جميعاً في حيوية، والمايسترو يشدّ سترته. في الصف الأول على مقربة من الدونا إيماكولادا جلست كل من الدونا فلور والدونا نورما. والمطران الأول منذ العشية، حسب ما قاله الجميع من الكردينالية.

رفع المايسترو آجينور غوميس العصا وهو متأثر من رأسه إلى قدميه (« يجب أن أكون مدبوغ الجلد، غير إنني أغدو حذراً متمهلاً في كل كونشرتو، كما لو أنه الكونشرتو الأول »).

استُمع إلى القسم الأول بانتباه واستحسان. مارش شوبيرت، عُزِف بتفخيم وخصوصية، وبعده الكمان المتقن للدكتور فينسزلاو فيغا، في لحن دردلا [1]، انتزعا تصفيقاً وحتى هتافاً بالإطراء من متذوقين ومتفهمين معيّنين مثل الدكتور إيتازيل بينيسيو، « ثنائي الطبيب والفنان » (سيلفينيو). وكان المايسترو غوميس ينضح عرقاً، سعيداً.

---

(١) DRDLA: مؤلف موسيقي أوروبي.

في الاستراحة، قذف المدعوون بأنفسهم، كجياع برابرة منذ شهور بلا أكل، إلى المقصف الفاخر، وللمرّة الأولى في حياتها شاهدت الدونا فلور والدونا نورما وتذوّقتا الكافيار.

الدونا فلور، بتذوّقها كمعلّمة في الطهي، فإن الكافيار الذي يجري الكلام عنه كثيراً، - كل غرام يساوي ثروة - علمت ذلك: «هو شيء غريب لكنني أحبه». ولم توافق الدونا نورما، فقالت وهي ممتعضة، للصديقة بين ضحكات (أحبت، أجل، الشمبانيا، وقد احتست كأسين):

- هذا الشيء له رائحة كريهة وطعم حامز، لا أدري ما هو...

ضحكت أيضاً الدونا فلور، وبما أن الدكتور تيودورو ابتعد ليأتي بأوربانو بوبري أومين وإجباره على أن يتناول شيئاً، تذكرت قولاً للمرحوم زوجها الأول، عند عودته من الريو في رحلة لم تعرف الدونا فلور أين، وقد شبع من المدعو كافيار وقال عندما سألته أي مذاق يجده فيه:

- فيه مذاق الفرج... إنه حسن جداً!

انفجرت الدونا نورما في الضحك، وهي عرضة للدوار القليل من الشمبانيا، كان المتوفى مخبولاً، فم قذر، شخص لا تمكن معالجته لكنه جد مرح، لا يُنسى! «أيتها البنت، المرحوم كان ذا ظرف ويفهم في هذه المذاقات...»

عاد الدكتور تيودورو متأبطاً ذراع الرجل الفقير[1]، وأسرعت الدونا فلور في إعداد طبق، من دون أن تنسى كميّة صغيرة من الكافيار.

كان صعباً نوعاً ما جمع المدعوين أمام المسرح المدرج من أجل القسم الثاني من الكونشرتو. وفي الحال أحتلّ عشاق الموسيقى أماكنهم، لكنهم كانوا أقلّية في ذلك الحشد من الناس الأثرياء فقط، الذين يأكلون ويحتسون الخمرة. لكنّ الكوميندادور أعطى أوامر صارمة للخدم وأخيراً هاجم المايسترو والأوركسترا بـ «الاعتراف البسيط».

(١) POBRE HOMEM: ورد ذكرها سابقاً.

بعد موسيقى فرانسيس توفيه، وصلت لحظة الأوج في الكونشرتو. العزف المنفرد على الفيلونسيل ينفذه الكومندادور آدريانو بيريس، الحصان الأبلق. عند ذلك، أجل، خيّم الصمت حقيقة؛ حتى في حجرة الأواني[1] والمطبخ توقف الخدم عن العمل والنادلون علّقوا خدمة تقديم الشراب إلى نهاية الوصلة. الدونا إيماكولادا شخصياً أعطت الأوامر في شأن الصمت المطبق.

كان الكومندادور البابا المتناسي لكل شيء، للعالم وسكانه، كان المليونير الجاف، في تلك الساعة مع الفيلونسيل حمياً للفرح والطيبة، وصار على حين بغتة كائناً إنسانياً.

تواصل التصفيق حينما انتهى. كان السيد آدريانو الواقف على المسرح المدرج والمشير إلى المايسترو وإلى الزملاء في الأوركسترا، منحنياً يشكر. وكانوا يصرخون «بخ بخ» و«أعد»، ليس المتفهمون فقط، بل متطفلو الموسيقى أيضاً. الجميع كانوا يصرخون، وقد برز بقوة التصفيق والإطراء المنتهز للفرص آليريو دو آلميدا، الذي لا يفهم في الموسيقى شيئاً؛ كانت أعماله متوقفة على كلمة من الحصان الأبلق.

وكما قال بعد ذلك، الرجل الفقير كان يجب أن تكون وصلة الكومندادور الأخيرة في البرنامج، حيث أن مدعوين كثيرين هجروا الأوركسترا في الحديقة بعده، ومضوا إلى القاعات يحتسون الخمرة ويتحدثون. والذين جلسوا على المقاعد لم يجرأوا على الخروج، فاستمعوا إلى بقية الكونشرتو غير منتبهين والبعض منهم بذات عدم اصطبار. ومن آن لآخر، كان أحدهم يمتلىء شجاعة ويعتذر من جيرانه ثم يخرج، ويتسلّى في داخل القصر.

ومع هذا فإن أبناء أورفيو لم يلحظوا هذا الفرار، فتابعوا بنفس شدّ الأوتار والجودة. متعبّدو الموسيقى، نعم، أبدوا انزعاجهم من التحرّك والوشوشات المتزايدة. والدونا نورما أتت بـ «بسيو» ملتفتة إلى الخف حين بدأ الدكتور تيودورو عزفه المنفرد على البوق (عيناه في اتجاه الدونا فلور). والتفتت أيضاً الدونا إيماكولادا المضيفة اليقظة، وتفرّست بنظارتيها، بلا ماسكين في فاقدي الصبر. كان ذلك كافياً؛ فران الصمت ولم يعد لأحد الجرأة في النهوض.

---

(١) COPA: في بيوت الأثرياء حجرة خاصة ملحقة بالمطبخ لأواني الطبخ وتقديم الطعام.

تنامت أنغام البوق في الهواء وحلّقت فوق الحديقة، وجاءت لتجدل نَفَساً من أنفاس الحب حول شعر الدونا فلور الذي هو لشدّة اسوداده بدا أزرق على وجه التقريب.

الدونا فلور شبه مطبقة العينين، صاغية ومتعرفة من خلال ذلك العزف المنفرد للمعزوفة فيا هو يؤديه، إلى زوجها الطيّب. هناك كانت هي حيث ما تخيّلت قط، جالسة في حدائق البيت الأكثر ارستقراطية في باهيّا، وإلى جانبها يستمع إليها بلطف نيافته، السيد المطران الأول بردائه الأرجواني ولقبه النبيل.

لقد أعطاها الكثير، كثيراً جداً؛ السلام والأمان، الإطمئنان، النظام والراحة بقدر ما رغبت هي واستطاع هو التخمين، التخطيط وبلا أي إزعاج، ولا أي فزع. والآن يبحث في رحم البوق الصغير عن النوطة الخفيضة لحبه، لتعبّده. إن أحداً لا يستطيع أن يرغب زوجاً أفضل.

الدونا نورما، في ساعة الهتاف تطلّعت إلى صديقتها، وكانت دمعة على خدّ الدونا فلور. «دموع السعادة» فابتسمت الجارة الطيّبة، راضية هي أيضاً بنجاح الدكتور:

ـ الدكتور تيودورو عزف بشكل إلّهي...

الدونا إيماكولادا ذاتها، من المقعد القريب، تكرّمت بالثناء:

ـ زوجكِ كان جيداً...

في قاعة الاستقبالات الكبيرة بدأت الرقصات حالما ماتت أنغام الأوركسترا في مزيج من ألحان «الأرملة الطروب» وهي الوصلة الأخيرة. في الحديقة حيّا المستمعون، وفي مقدمتهم المطران الأول، المايسترو والموسيقيين يحيطون بالكومينداداور. ولم تمسح الدونا فلور الدمعة عن خدّها، وحين شاهدها الدكتور متأثرة، تأكد أنه نال جزاء الشهور الستة من التمرين.

من القاعة قدموا بحثاً عن إيليو باستو لكي ينتزع من البيانو ألحان السامبا والفوكس، التانغو والبوليرو، مستنبطين جرّ أقدام [1]. واقترح الدكتور تيودورو والبوق في قبضة يده،

---

(١) ARRASTA-PE: المقصود به رقصاً.

الانسحاب: الوقت تعدّى منتصف الليل... طلبت الدونا نورما خمس دقائق فقط، الوقت اللازم لاحتساء كأس شامبانيا: «أعبدها!».

احتست كأسين. وفي سيارة الأجرة[1] كانت تضحك من دون أن تعلم لماذا، راضية في الحياة. وأمسكت الدونا فلور بيديها يديْ زوجها، زوجها الطيّب. وعلّقا على الكونشرتو والحفلة، كلاهما رائعان. كثير من أنواع الأكل والشرب، وكل شيء من أفضل الأصناف، فالكوميندادور صرف مالاً وفيراً.

قال الدكتور:

- إفراط... حتى كافيار... من الصنف الحقيقي، روسي...

الدونا نورما، في الانشراح الناتج عن الشمبانيا، غمزت بعينها الدونا فلور وتوجهت في الكلام إلى الدكتور تيودورو، بصوت مفعم بالخبث لا يفهمه غير الاثنتين:

- والكافيار يسرّك أيها الدكتور؟

- أعلم أنه شهي من الآلهة، واليوم تذوّقته، لماذا يجب أن نضيع فرصة كهذه، حين يكون في وسعنا أكل طعام شهي جد غال. لكنني سوف أعترف لكِ، يا دونا نورما، لا أستطيع ملاءمة تذوّقي مع مذاق...

- وأي مذاق ترى أيها السيد في الكافيار؟

ابتسمت بمكر الدونا نورما، في ابتهاج، وهي غير مناقضة. وخفضت الدونا فلور رأسها، من يدري، فقد يكون ذلك لإخفاء ابتسامة سخرية. وحاول الدكتور تيودورو أن يقارن مذاق الطعام الحديث الطعم، فلم يعثر على شيء:

- لأكون صريحاً لا أذكر شيئاً له نفس المذاق؛ حيث أن أحداً لا يصغي إلينا ههنا، يا له من مذاق رديء!

---

(١) TAXI

ـ رديء ؟ ـ تقلّصت الدونا نورما في ضحك ـ أنا أيضاً أرى... لكنْ هناك من يراه جيداً، أليس كذلك يا فلور ؟

بيد أن الدونا فلور لم تضحك، كان وجهها متحصّناً في الظل، من يدري أحزينة هي أم متأثرة فقط ؟ كانت ترمق الليل كأنها لا تسمع ضحك الصديقة. ضغطت على يد زوجها وقالت له بنصف صوتها :

ـ رائعة الموسيقى وتنفيذك يا تيودورو.

ـ أفضل من ذلك لا أُحسن فعله... فأنا هاوٍ، ولا شيء أكثر من ذلك.

لماذا أفضل من ذلك؟ من أنا لألحّ عليك يا عزيزي، لتكن مهما كنت؟ ماذا قدّمت لك أنا، أي ممتلكات وضعتها في صحن الميزان الزوجي للتوازن مع ممتلكاتك، جد كاملة ؟ من المال إلى المعزوفة الموسيقية ذات الصوت الواحد على البوق، من المعرفة إلى التهذيب الرفيع، وهذا الصفاء، هذه الحشمة؟ لم أقدّم لك شيئاً، لم أضف شيئاً لك، وأنا لست شبه شفافة وصلبة العود، إني لا أملك نورك الجلي، إني مخلوقة أيضاً من الظلال، من مادة ليلية قصيرة الأجل. إني جد صغيرة لارتفاعك يا تيودورو.

عند ملجأ[1] الترام، منتظراً أداة النقل، رآهم أوربانو بوبري أومين يمرّون وفي يده صندوق الكمان وصرّة بالأطعمة المالحة والحلوى للسيّا ماريكوتا.

(١) ABRIGO : مظلة معدنية مستطيلة الشكل. في مواقف وسائط النقل لحماية الركاب من المطر.

٩

البروفسور إيبامينونداس سوزا بينتو، محترس وسلفي النظرة إلى الأشياء، كان يحب الأمثلة والجمل المتكاملة، واجداً في هذه التعابير تلخيصاً للمعرفة في القرون، التعبير عن الحقائق الأزلية.

« السعادة ليس لها تاريخ، ومع حياة سعيدة لا تصنع قصة حب »، أجاب حينما سأله شيمبو، ذلك القريب المهم للمرحوم، عن الـدونا فلور، التي لم يرها منذ سنوات، منذ ذلك الكرنفال العبثي (« منذ كم سنة، سنتين أم ثلاث ؟ ») منذ دفن المتهتك.

ـ لقد تزوجت من جديد وهي سعيدة... مضى عليها سنة تقريباً، حيث وحّدت حظها مع حظ الدكتور تيودورو مادوريرا...

ـ وماذا حدث لها بعد ؟

ـ الذي أعلمه، لا شيء... ـ وحتى لا يضيع الفرصة، ركز المثل : ـ كما يقول الشعب، السعادة ليس لها تاريخ...

وشيمبو، صاحب التجربة في الحياة، وافق :

ـ هـذا هـو فعلاً. فحينما يحدث شيء فهـو دائماً لكـي يقلـق عقـل النـاس... فـإذا أخبرتك... إصغ...

فتح صدره؛ في سنه تلك، الطاعنة، أيها البروفسور! تورّط مع فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ـ ليست عذراء، لكنها تكاد أن تكون. رجل غشّاش، استعمل عامل الخطوبة فالتهم عفّتها، بيد أنه فعل هذا بشكل متعثر، بسرعة فائقة، تاركاً بعض البقايا من العصارة، بحيث أن شيمبو وقد قدم للمؤاساة والحماية، انتهى... النتيجة يا بروفسوري النبيل الفتاة منتفخة البطن وهو بتلك المسؤولية...

البروفسور إيبامينونداس سوزا بينتو، ذو الحياة النقية، لم يكن عنده نصيحة ولا مؤاساة لقلق الرجل العام اللامع، ولانعدام الرأي الحسن، زوّده بالتهاني من أجل «الحبل الذي يحظى بالرعاية».

نحنُ أيضاً لا نملك عزاء أو إخطاراً حكيماً للمعلم شيمبو، على الأقل الوقت والمكان. ومن كل هذا الحدث استفدنا فقط من الحقيقة الكامنة في القول المأثور: في الوجود السعيد للدونا فلور وللدكتور تيودورو لم يحصل شيء أكثر مما جاء السرد على ذكره، ما دامت رغبتنا ليست تطويل هذه الواقعة، التي غذّتها حكاية يومية من الاطمئنان، من مادة مملّة وتافهة مضادة للأدب.

الدونا فلور بالذات، مخبرة شحيحة في مراسلاتها العائلية القليلة؛ ففي رسالة إلى أختها روزاليا، عشية العيد الأول لزواجها من الصيدلي، قالت لها ما يُروى، بلا أهمية.

ملأت الصفحات بأخبار الأقارب والجيران (في خلال تلك السنوات انتهى الأمر بروزاليا أن عرفت أسماء أولئك الناس جميعاً من خلال أختها). أخبرتها عن الخالة ليتا وأوجاعها الاعتيادية، العم بورتو ما كان يشيخ، الدونا روزيلدا دائماً في نازاريت، مسكينة سيليستي! ماريلدا، من نجاح إلى نجاح، الآن في إذاعة سوسييدادي ومع وعد بتسجيل أسطوانة. عن الدونا نورما روت لها قصة، طرفة («من اللازم أن تعرفي نورمينيا[1] شخصياً، إنه لأمر جدير بالاهتمام»). دُعيت يوم ثلاثاء للذهاب يوم السبت التالي لحفلة عمادة، فرفضت «لان يوم السبت سأكون مضطرة للتشييع في دفن». «كيف بوسعكِ أن تعرفي أن في يوم السبت سيكون ثمة دفن يا نورمينيا،

(١) تصغير لاسم: نورما.

إذا كنّا ما نزال في يوم الثلاثاء؟ » كيف... كان أحد معارفها على مشارف الموت، وبالتأكيد سيفعل ذلك في يوم الجمعة ليلاً، ليُدْفَن يوم السبت وهكذا يستفيد من الأسبوع الانكليزي [1]. الدونا جيزا في عودتها جلبت من نيويورك كلباً، من هذه الكلاب « التي تحسن جيداً توظيف ألسنتها »، وللدونا فلور جلبت هدية جميلة، دبوساً [2] لكنْ، « تصوّري فقط يا روزاليا، ما الذي أعطته الغرينغا المجنونة لتيودورو؛ قميصاً ممتلئاً بنساء عاريات، هل فكّرتِ في الدكتور مرتدياً ثياباً كهذه؟ وهو كرجل مهذّب، لم يقل شيئاً، حتى أنه شكر من دون أن يغضب، لكنني احتفظت بالقميص في قعر درجي كيلا يراه كل ساعة فيحنق على جيزا التي هي مع كل هذا طيّبة القلب جداً. من كانت مريضة، ولا تخرج من المنزل، هي الدونا دينورا، « تصوّري عذابها، مع المفاصل الجامدة، روما تيزم شرس، تعرف الأشياء عن طريق شخص ثالث ». صارت مقتصرة على كشف البخت بورق اللعب للزائرات، وتتنبأ بمصائب لجميع الناس، في انفعال. حتى للدونا فلور وجّهت تهديداً، وهي تستشير ورق اللعب: « قالت لي أن أحتاط للأمر إذ لا يوجد خير يدوم إلى الأبد، ما رأيت قط فماً بمثل هذه اللعنات ».

وإذ خلصت إلى هذه الأمور الروتينية، لم يعد عندها شيء لتخبرها إياه: « لم يحدث شيء، دائماً الحياة الصغيرة نفسها من دون أشياء جديدة ». الدكتور نوى شراء المنزل الذي يسكنان فيه، بيد أن أحد الوريثين للصيدلية صمم على بيع حصته والذهاب إلى الريو. استشار الدكتور تيودورو الدونا فلور: « ما الذي يبدو لكِ مصيباً أكثر ومعقولاً؛ الحصول على المنزل أو على حصة في الصيدلية؟ » وحين سألها أجرى معها نقاشاً ليبرهن أن تلك الحصة ستضمن له السيطرة على المؤسسة، سيغدو الشريك الحائز على أغلبية الأسهم. أما بالنسبة إلى المنزل فيشتريانه في ما بعد، حين يستطيعان. فليس أمام المالك أي مخرج آخر، إلا البيع، وعائد الإيجار شيء باعث على الضحك.

في الحقيقة، لقد كوّن الدكتور رأياً وصمم على كيفية التصرّف بشكل أفضل، وإذا كان قد طلب مشورة الدونا فلور فإنه فعل ذلك بداعي اللطف والتهذيب الحسن؛ « الوقت

---

(١) في نظام العمل الانكليزي تبدأ عطلة يوم الأحد من فترة بعد ظهر يوم السبت.
(٢) BROCHE: أبزيم يوضع في الصدر للتزين.

يمرّ والدكتور لا يتغيّر ، اللطافة ذاتها ، النظام ذاته ، المعاملة نفسها ، دائماً بالتساوي ، كل يوم وراء الآخر . بوسعي القول عن الذي سيحدث في كل لحظة ، على مرّ الساعات ، وأعرف كل كلمة ، لأن اليوم مساوٍ للغد » .

وإذ تنقضي الحياة هكذا ، ناعمة وهادئة ، في هذا الإيقاع البطيء والذي لا يتغيّر ، كيف تخشى التبدّل ، كيف تأخذ على محمل الجد توقعات كاشفة البخت التافهة ، المقعدة الهاوية أوراق اللعب وفي تنبؤاتها أكثر مما هو هاوٍ الكوميندادور آدريانو بيريس نفسه على الفيلونسيل ؟

حتى أنها ، الدونا فلور ، ما كانت تستاء إذا حدث شيء ، أي طارىء ما يقطع روتين الأيام المتساوية في السعادة والوداعة . « حتى أنها لخطيئة ، يا شقيقتي ، أن أتكلم هكذا حين تكون الحياة التي أحياها ، بعد أن أكلت الخبز المرّ ، لكنَّ الشيء ذاته كل يوم يتعب ، فإلى متى نبقى في الأحسن والأفضل . هنا بالنسبة إلينا ، أقول لكِ أيتها الشقيقة التي أشتاق إليها ، إنه بالرغم من هذه الحياة السعيدة جداً ، المحسودة من الجميع ، أحياناً تسبب لي غمّاً ، لأنها بلا قدم وبلا رأس ، صعبة حتى على التفسير ، إنها حياة لا أدري ماهي . . . طبيعة رديئة هي طبيعة أختكِ هذه التي لا تحسن تذوّق ، كما يجب ، ما استحقته من السماء من دون أن تكون أهلاً لكل هذا الاستحقاق ؛ حياة جد مطمئنة وزوج طيّب » .

في تلك المناسبة ، وبما أنها قد ذهبت إلى القداس في كنيسة القديسة تيريزا ، مع عظة الدون كليمينتي (« لماذا ، أيها الرب لا يقطن السلام قلوب البشر ؟ ») ، بعد القداس اتجهت إلى حجرة محفوظات الكنيسة في نيّة دعوة القس إلى العيد الأول لقرانها بالدكتور تيودورو . لن تكون حفلة ؛ يجتمع فقط الأصدقاء الحميمون حول كأس شراب وبعض الحلوى ، محتفلين في الوقت ذاته ، باختيار الصيدلي للمرّة الثانية خازناً لمديرية الجمعية الباهيّانية للصيدلة المنتخبة حديثاً .

ـ سأكون هناك ، مع كل السرور ، لأهنئكما على هذا العام من الانسجام الزوجي ، هذا الاتحاد المثالي المبارك من الله . . .

انسحبت الدونا فلور ، والقس في نقد ذاتي لعظته المتشائمة نوعاً ما ، ابتسم فرحاً ، ههنا

أحد ما ، الدونا فلور ، كان قلبها مسكوناً بالسلام ، ههنا كائن إنساني قانع وسعيد بحياته ، مكذّباً عظته المفعمة بالعتمات والشكوك .

في منتصف الطريق ، في الممر ، توقفت الدونا فلور أمام مجموعة غريبة مؤلّفة من صورة مفرطة في الزخرفة للقديسة كلارا ومن الخشب القديم والشعبي حيث نُحت ذلك الملاك ذو الخلاعة والطيبة الشبيهتين بخلاعة وطيبة المرحوم ، مع نفس السفاهة ونفس اللطف غير المسؤول .

مسكينة القديسة ؛ فقداستها التي كثيراً ما دافعت عنها وبالشكل الأفضل ، وبأكثر الفضائل قوة ، ما كانت تقاوم النظرة الداعرة للشيطان ، خاضعة له ، المسكينة المجازفة ، المسلّمة وقارها وحياتها له ، فيفقدها خلاصها الذي قد فازت به ، مبدلة الجنة بالنار ، لأن من دونه ماذا تساويان ، الجنة والحياة ؟

هناك أمام المجموعة غير المألوفة بالخشب والدعارة ، ظلّت الدونا فلور متوقّفة وقتاً طويلاً ، وسفينة الحجر والجص ، المركب الفسيح ، رفع المرساة وغادر ، مدمياً الهواء في بحر أزرق ذي سحب ، وسماء في الخارج .

١٠

لمعت الدونا فلور والحفلة الصغيرة كانت من أكثر الحفلات تقديراً ، نجاحاً كاملاً تتوّج العيد الأول « للقران السعيد بين روحين توأمين » كما قال بأسلوب ورصانة، الدكتور سيلفيو فيريرا ، الأمين العام (أُعيد انتخابه) للجمعية الباهيّانية للصيدلية، رافعاً كأسه نخب الزوجين، « عزيزنا الجزيل التقدير الخازن الثاني وقرينته المحترمة ، الدونا فلور مثال الخصال والفضائل » .

لقد أبلغت الدونا فلور الدون كليمينتي الحضور المحدود « لبعض الأصدقاء المقرّبين » لكنْ عند اجتيازه الباب، وجد القس أن البيت مزدحم ، وليس بالجيران فقط. فقد جلب صيت الدكتور تيودورو ولطف الدونا فلور لذلك الاحتفال الحميم عدداً معتبراً من الأشخاص: مسؤولي الطبقة الصيدلانية وزملاء أوركسترا الهواة، ممثلين تجاريين، تلميذات وتلميذات سابقات لمدرسة تذوّقٌ وفنٌ، إضافة إلى أصدقاء قدامى، بعضهم مهمون مثل الدونا ماغا باترونسترو ، الثرية ، والدكتور لويس إينريكي ، « ذي الرأس الذهبي الصغير » . وقبل أن يحيي الزوجين بالذات، عانق الدون كليمينتي « هذا الأديب المحتفى به » فكتابه « تاريخ باهيّا » وقد حاز على جائزة من معهد « ذي طموح ممجَّد مكرّس بقيمة حقيقية » (أنظر جونوت سيلفيرا ، « كتب ومؤلفون » ، في جريدة « المساء ») .

في مادة الثقافة ، علاوة على خطاب الدكتور فيريرا ، وهو غني بالاستعارات المستمدة من علم البيان ، وُجد قليل من الموسيقى. الدكتور فينسيزولا فيغا نفذ معزوفتين لصوت واحد

بالكمان، بين التصفيق. وصُفّق لها أيضاً ـ وكثيراً ـ المغنية الفتيّة ماريلدا راموز أندرادي، « الصوت الحنون من المناطق الاستوائية » بالرغم من انعدام المرافقة الموسيقية؛ أوزفالدينيو فقط سجّل الإيقاع على الطبلة.

في هذه الساعة المرتجلة من الفن، قدّم الدكتور تيودورو شيئاً جميلاً، عارضاً وصلة من الإحساس الحقيقي؛ عزف بالبوق، النشيد الوطني بأكمله، منتزعاً التصفيق الحماسي في النهاية.

إضافة إلى هذا، أكلوا وشربوا، ضاحكين ومتحدثين. في قاعة الزوّار انغرس الرجال، وفي القاعة الأخرى النساء، رغم احتجاجات الدونا جيزا، من كان هذا الفصل في الجنسين بالنسبة إليها عبثاً « إقطاعياً ومحمدياً[1] ». فهي وسيدتان غيرها أو ثلاث سيدات فقط جازفن في الاشتراك في حلقة مذكرة حيث انسابت الجمة وجرت النكات الموضوعة عقاباً للدونا دينورا التي ما زالت ضعيفة ومتألمة لكنها رابطة الجأش.

ـ إن ماريا أنطونيا هذه هي امرأة متهتكة... تبقي داسّة أنفها في وسط الرجال تصغي لقلّة الحياء... وأيضاً فهي تجرّ الدونا أليسي والدونا ميزيتي... أما بالنسبة إلى الغرينغا فهذه هي أسوأ الجميع... أنظرن كيف تمدّ عنقها لتصغي.

في المقابل أنظرن الدونا نيوزا ماسيدو (وشركاه)، مثال السلوك الحسن، في حلقة النساء، متفحّصة وكاتمة للسرّ، معطية انتباهاً لراميرو، وهو فتى يافع في سنيه السبع عشرة إلى الثماني عشرة، إبن الأرجنتينيين صاحبيْ معمل السيراميك. فلولاها ما كان للمراهق من يسلّيه، إذ أن الشبان الآخرين يحيطون بماريلدا ويطلبون منها الرقص معهم، سامبا وفالس وتانغو ورانتشيرا[2]، بينما لا يرغب هو إلاّ في سرد أخبار صيده للسمك « اصطدت سمكة حمراء، وزنها خمسة كيلو غرامات ».

ـ اوه! ـ قالت هي بذهول ـ خمسة كيلوغرامات؟ يا له من شيء هائل! وماذا اصطدت غير ذلك؟ ـ أي إسم سيتركز لدى صيّاد جسور؟ « زيت كبد سمك القد »

(١) أي إسلامياً.
(٢) RANCHEIRA رقصة أرجنتينية الأصل مثل التانغو.

سيكون ذلك حسناً، وومضت عينا نيوزوكا.

عندما وصل الأرجنتيني مع الزوجة والإبن، وجد عند الباب مع السيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى «الفردوس المزهر». ومعاً مضيا يهنآن صاحبيْ المنزل، وفي العودة إلى قاعة الرجال، علّق ابن المدينة المرفأ[1] بيرنابو، بصراحته الفظّة نوعاً ما، على أناقة الدونا فلور، من كان فستانها يقتل من الغيرة جميع النساء الحاضرات، وتصيب بالوهن المتوتر ميلتينيو، المخنّث الذي يعمل أحياناً «مرتبة منزل» ـ بالأحرى مرتبة ممتازة ـ في بيت الدونا جاسي، وأعير ليساعد في الحفلة. (الدونا فلور اليوم لا تبالي بأحد)

قال السيد هيكتور بيرنابو:

ـ إن ما يجعل المرأة جميلة هو المال ولاحظوا أناقة الدونا فلور وكم هي بارعة الحسن...

لاحظ السيد فيفالدو، وكان بالأحرى يجب أن يلحظ النساء ويقيس الأطراف، الانحناءات، النتوءات.

ـ لنقول الحقيقة، فهي دائماً كانت انيقة ولطيفة، ليست فائقة الجمال، هذا أكيد، والآن هي إمرأة أكثر، إمرأة لحيمة، لكنني لا أعتقد أن ذلك عائد إلى المال... إنه عائد إلى العمر، يا عزيزي، فهي في القياس المضبوط. مجنون هو من يحب الفتاة الصغيرة، فهو لا يجمع عشر علامات إذا قارنها بسيدة في ريعان العمر، تهشم لاقطات أجزاء الفستان...

ـ تفرّس في عينيها... ـ قال الأرجنتيني، وكما يُرى هو أيضاً ذوّاقة.

عينان فيهما خور، ضائعتان في المدى، كما لو أنهما مستسلمتان لأفكار شهوانية. أراد السيد فيفالدو أن يعرف أية أفكار رقيقة كهذه أوحى بها الصيدلي إلى الدرجة التي تعود بها الدونا فلور ذات نزوات. كانت تمضي من قاعة إلى أخرى، ملبية طلبات مدعويها، لطيفة مرحة، سيدة بيت كاملة، كانت تحقق بشكل ما كل ذلك آلياً.

ربت السيد فيفالدو بيده على ذراع الأرجنتيني؛ ليس هو المال الذي يجعل امرأة جميلة،

---

(١) PORTENHO: نسبة إلى مدينة بوينوس آيريس.

يا سيد بيرنابو، إنها المعاملة، إنها راحة الروح، السعادة. فتانك العينان ذواتا الخور والوركان اللذان يتحركان بغنج يجب أن تكون لسلام فرح في حياتها.

كان غريباً تعبير عينيها... عندما رآها قبلاً بنفس تلك النظرة التائهة كما لو أنها تنظر إلى قلبها بالذات، فإن السيد فيفالدو يبحث في الذاكرة ويتعرف إليها؛ كانت نفس تلك النظرة في ليلة السهر على المرحوم. بتعبير مماثل كما تتقبل التهاني، والعينان ترمقان أبعد من الزمن، كما لو أنه لا يوجد في جوارها لا دموع حداد ولا ضحكات الاحتفال، مجرّد وحدة. تنبّه السيد فيفالدو إلى أن جمالها يأتي من داخلها أيضاً، في بُعْد تهرب منه.

في القاعة حيث تجتمع النساء، عُرض مرّة أخرى موضوع الحياة السعيدة الحالية للدونا فلور. عدد من السيدات الحاضرات، زوجات أعضاء الأوركسترا وزوجات الصيادلة، قلّة منهن كنَّ يعرفن عن ذلك الزواج الأول الكارثي وعن الزوج الرذيل.

الجارات والمتملّقات ما كنَّ يرغبن في أمر آخر عدا الإخبار والمقارنة؛ أخبرن وقارنَّ بما يكفي. بالنسبة إليهن لم تكن ثمة تسلية أفضل؛ حتى ولا النكات الجارحة التي تجعل الرجال (وعديمات الحياء مثل ماريا أنطونيا) يضحكون بقهقهات، في القاعة الأخرى، ولا البقاء حول ماريلدا يطلبن منها أغنيات سامبا قديمة، أغنيات فالس قديمة، في ساعة الاشتياق، مثل الدونا نورما، الدونا ماريا دو كارمو، الدونا آميليا، والفتيان (جميعهم متيّمون بماريلدا)، فلا شيء بالوسع مقارنته بمتعة الثرثرة. الزواج الأول، إعرفن أيتها الصديقات الغاليات، كان الجحيم في الحياة.

هذه السعادة في الزواج الثاني ما زالت أكبر وأغلى، ولها قيمة أكثر، بالمقارنة في التباين مع خطأ الزواج الأول، الذي كان استفزازاً، مصيبة، شقاء! كم تعذّبت الشهيدة المسكينة بيديْ وحش مغلّف بالشرور والرداءة، شيطان؛ بلغ به الأمر أن ضربها.

- ربّاه! - وضعت الدونا سيباستيانا المتأثرة، يدها على صدرها الفسيح.

كم تعذّبت! بالقدر الذي تستطيع فيه زوجة مرهفة الحسّ أن تعاني، في ضعة شارع المرارة. تعمل لكي تؤمن احتياجات المنزل والأسوأ من هذا، إدمان المتهتك على القمار،

حيث أن القمار بصفته عمومياً وعلنياً هو أردأ الرذائل والأغلى ثمناً. وإذا كانت الآن سعيدة فقد كانت في ما مضى تعيسة!

من حجرة الأواني كانت الدونا فلور تستمع إلى ذكريات حياتها هذه، وعيناها في الضباب البعيد. مع الدونا جيزا في حلقة النكات، ومع الدونا نورما في حلقة الساهرات فإن أحداً لم يفتح فمه للدفاع عن المتوفى.

في حوالى منتصف الليل، انصرف آخر المدعوين. والدونا سيباستيانا مازالت في تأثر السرد عن أخبار الشهداء والقديسين والذي دام سبع سنوات ـ كيف تحمّلت، المسكينة؟ ـ ثم لمست خد الدونا فلور في حنان وقالت لها:

ـ حسناً إذ تغيّر كل شيء الآن ولديكِ ما تستحقينه...

أبهرت ماريلدا بنورها كنجمة الطلبة الشبان، وانطلقت في غناء خفيض، أغنية تانغو خاصة بالسيريناتا، تلك التي: «الليل في ذروته، السماء ضاحكة، الهدوء كأنه حلم...» الأغنية التي دفنت فيها الدونا فلور تركة الميت.

الدكتور تيودورو، مع ابتسامة رَضا، رافق إلى الباب المدعوين الأخيرين، وهم جمع صاخب متورّط في نقاش لا ينتهي حول أثر الموسيقى في علاج أمراض معيّنة. وكان الدكتور فينسيزلاو فيغا والدكتور سيلفيو فيريرا غير موافقين. وحتى لا تفقد المداولة وهجها رافق رب المنزل الأصدقاء حتى الترام. ولم يعد يُسمع غناء ماريلدا.

الدونا فلور وحيدة، أدارت ظهرها لكل ذلك؛ الحلوى، زجاجات الشراب، إنعدام الترتيب في القاعتين، أصداء الأحاديث في الرصيف، البوق مع الغناء، الأبكم والحزين. سارت إلى حجرة النوم، فتحت الباب وأضاءت النور.

ـ أنت؟ ـ قالت في صوت حار لكن بلا مباغتة، كما لو أنها كانت تنتظره.

على السرير الحديدي، عارياً مثلما رأته الدونا فلور في فترة ما بعد الظهر من ذلك الأحد في الكرنفال عندما جاء رجال المشرحة بالجثة وسلّموها إياها، كان فادينيو

مضطجعاً، ومبتسماً لها أشار بيده. ابتسمت له الدونا فلور مجيبة على ابتسامته، من يستطيع المقاومة إزاء نعمة الهالك، ذلك الوجه المفعم بالبراءة والسفالة، إزاء عينيْ الداعر؟ حتى ولا قديسة الكنيسة تستطيع فكيف هي، الدونا فلور، المخلوقة البسيطة.

ـ يا حبي... ـ ذلك الصوت العزيز، ذو الكسل والبطيء.

ـ لماذا جئت اليوم في الحال؟ سألت الدونا فلور:

ـ لأنكِ دعوتني. واليوم دعوتني كثيراً وكثيراً بحيث إني جئت... كما لو أنه قال إن نداء كان جد بعيد وقوي لدرجة أنه اخترق حدود الممكن والمستحيل.

ـ إني ههنا، يا حبي، وصلت الآن... ـ وشبه ناهض تناول يدها.

جذبها إليه، وقبّلها. في الوجه، لأنها هربت بفمها:

ـ في الفم، لا. ليس بالوسع أيها المجنون.

ـ ولماذا لا؟

جلست الدونا فلور على حافة السرير، وتمدد فادينيو مجدداً بكل ارتياح، فاتحاً فخذيه قليلاً وعارضاً كل شيء، تلك المحرّمات (والرائعة) غير المحتشمة. وكانت الدونا فلور تلين مع كل تفصيل من ذلك الجسد، خلال ثلاث سنوات تقريباً لم تره وهو بقي كما هو، كما لو أن الوقت لم ينصرم.

ـ إنك كما كنت تماماً، لم تتغيّر ولا بالقدر الزهيد. أنا، سمنت.

ـ إنكِ جميلة جداً، أنتِ تعلمين جيداً... أنتِ تشبهين بصلة، كثيرة اللحم وذات عصارة، جيدة للعضّ... الذي لديه الحق هو النذل فيفالدو... يلقي كل عين على عجيزتكِ ذلك السافل...

ـ إبعد يدك عن هذا الموضع، يا فادينيو، ودعك من الكذب.. ففيفالدو ما تطلّع إليّ قط، دائماً كان محترماً... هيّا، ابعد يدك...

ـ لماذا يا حبي؟... أبعد يدي، لماذا؟

ـ هل نسيت يا فادينيو، إني امرأة متزوجة وإني رصينة؟ وحده الذي يستطيع أن يضع يده عليّ هو زوجي...

غمز فادينيو بعينه بغنج:

ـ وأنا من أكون، يا حبي؟ إني زوجكِ، ها قد نسيتِ؟ وأنا الأول، لديّ الأولوية...

كانت تلك معضلة جديدة، ما فكرت فيها الدونا فلور ولا تعلم الرد:

ـ إنك تخترع كل واحدة... لا تترك لي هامشاً للنقاش...

في الشارع، في العودة، رجّعت أصداء الخطى الثابتة للدكتور تيودورو.

ـ ها قد جاء هو يا فادينيو، فهيّا انصرف... كنت مسرورة، مسرورة جداً، لا تعلم كم، لرؤيتك... كان ذلك أمراً حسناً جداً.

فادينيو على وضعه المريح.

ـ إنصرف، أيها المجنون، فهو قد دخل البيت، سيغلق الباب.

ـ لماذا ينبغي لي أن أذهب، قولي لي؟

ـ لقد وصل وسيراك ههنا، ما الذي سأقوله له؟

ـ بلهاء... فهو لا يراني، فأنتِ وحدكِ مَنْ يراني، يا زهرة ضياعي...

ـ لكنه سيرقد على السرير...

أبدى فادينيو حركة تنم عن التحسّر العاجز:

ـ لا أستطيع المنع، لكن إذا ضغطنا قليلاً فهو يستوعبنا نحن الثلاثة...

في هذه المرّة غضبت بالفعل:

ـ ما الذي تظنه عني، أم إنك ما عدت تعرفني؟ لماذا تعاملني كما لو إنني امرأة بغي، عاهرة؟ كيف تجرؤ؟ ألا تحترمني؟ فأنت تعلم جيداً أنني امرأة شريفة...

ـ لا تغضبي يا حبي... لكنكِ أنتِ من دعوتني...

ـ أردت فقط رؤيتك والتحدث إليك...

ـ لكننا لم نتحدّث بعد...

ـ عد غداً وسنتحدث...

ـ لا أستطيع البقاء ذاهباً وعائـداً... أم لعلـكِ تظنين أنها رحلـة قصيرة للعـب، مثـل الذهاب من هنا إلى سانتو آمارو أو إلى سوق سانتانا الأسبوعي؟ هل تظنين أنه يكفي فقط القول «سأذهب إلى هناك وأعود تواً؟» فيا حبي، ما دمت قد جئت فسأبقى مقيماً ههنا مرّة واحدة...

ـ لكنْ ليس ههنا في حجرتي، هنا على السرير، حباً بالله. أنظر يا فادينيو، حتى ولو لم يرك، فأنا أغدو ميتة من الارتباك. ليس لي وجه على هذا، وجعلت صوتها صوت بكاء، ولم يتحمّل هو أبداً رؤيتها تبكي.

ـ حسناً، سأنام في القاعة، غداً نحل هذا. لكنْ قبل ذلك أريد قبلة.

سمعا الدكتور في الحمام يغتسل، ثمة بقبقة الماء، فأدارت الفاضلة له خدّها

ـ كلا، يا حبي... من فمكِ، إذا أردتِ أن أخرج...

لن يتأخر الدكتور، ماذا أفعل غير الخضوع لإلحاح الطاغية، أسلّمه شفتيّ؟

ـ أوّاه يا فادينيو، أوّاه... ـ ولم تقل بعد، فالشفتان واللسان والدموع (من الحياء أم من الفرح؟) ممضوغة في الفم الشره والعليم. آه! هذه أجل، قبلة!

خرج هو مع عريه الكامل، جميلاً جداً وفحلاً! وبرٌّ أشقر يغطّي ذراعيه وساقيه، غابة

الشعر الأشقر في الصدر، أثر طعنة الموسى على كتفه اليسرى، الشارب الوقح ونظرة الداعر. خرج تاركاً القبلة تحرق فمها (ورحمها).

اجتاز الدكتور تيودورو الباب وقام بالإطراءات الواجبة:

ـ حفلة من الدرجة الأولى يا عزيزتي. كل شيء بالتمام، لم ينقص شيء، كل شيء كامل. هكذا أحب أنا، بلا زلّة... ومضى يبدل ملابسه وراء رأس السرير الحديدي، فيما كانت هي ترتدي قميص النوم.

ـ لحسن الحظ كل شيء جرى بشكل حسن يا تيودورو.

لكي تحتفل بالعيد السنوي [1]، اختارت تلك الليلة قميص النوم الموشاة بالدانتيل والمخرّمات التي ارتدتها في ليلة الزفاف في باريي، وهي عمل من إبداع الدونا إينايدي، ومنذ ذلك الوقت أودعتها الخزانة. رأت نفسها في المرآة جيلة ومثيرة للرغبة. كانت لديها الرغبة بأن يراها فادينيو، حتى ولو لنظرة خاطفة.

ـ سأذهب لأشرب ماء في الداخل، أعود خلال دقيقة يا تيودورو.

قد يكون الآخر نائماً من تعب عبور المسافات الطويلة. وحتى لا توقظه، مضت في الممر على أطراف قدميها. كانت تريد رؤيته فقط للحظة واحدة، فتلمس وجهه إذا كان نائماً، تظهر له (من بعيد) قميص النوم الشفّافة إذا كان مستيقظاً.

لم يتح لها الوقت إلا لتلمحه مغادراً عبر الباب، عارياً ومسرعاً. ظلّت متوقفة وجليدية، وفي قلبها وجع؛ ها هو يعود مهاناً، وهي إلى الأبد وحيدة. لن تحظى بعد بوجهه الرقيق حيث تتركز الشفتان، لن تعرض بعد أبداً قميص النوم أمامه (لكي يمدّ هو يده وينتزعها ضاحكاً) لن يحدث أبداً بعد الآن. فقد غادر مهاناً.

هكذا أفضل، ربما. بالتأكيد هكذا أفضل. كانت امرأة مستقيمة، كيف تتطلّع إلى

---

(١) ANIVERSARIO: المقصود عيد زواجها السنوي.

رجل آخر، حتى ولو كان ذلك الرجل. فبما زوجها ينتظرها على السرير، مرتدياً المنامة الجديدة (هدية العيد السنوي للزواج)؟ هكذا أفضل؛ انصرف فادينيو إلى الأبد. فقد رأته، وقد قبّلته، وما كانت لترغب أكثر من ذلك. هكذا أفضل، رددت، هكذا أفضل.

فكّت وثاقها آنئذٍ وسارت إلى الحجرة. لماذا هذه العودة السريعة جداً؟ لماذا العودة هكذا على حين بغتة، إذا كان عليه، من أجل المجيء، أن يعبر الفضاء والزمن؟ من يدري فهو لم يمض نهائياً؟

من يدري، خرج في نزهة، ليطلق نظرة في ليل باهيّا، يرى كيف يسير القمار، كيف يمارسونه في غيابه - خرج فقط في جولة تفتيشية، في دورية، من «بالاس» إلى «الدوقات الثلاث» من «آباشينيو» إلى بيت زيزيه دا مينينجيتي، من «التاباريس» إلى كهف باراناغوا فينتورا.

القسم الخامس

عن المعركة المريعة بين الروح والمادة مع أحداث غريبة وظروف مذهلة من الممكن أن تحدث في مدينة باهيًا وحدها فليصدق ما يُروى من يريد.

مدرسة الطهي: تذوقٌ وفنّ
أطعمة واشمئزازات الآلهة [1]
(معلومات مستعارة من ديونيزيا ده أوشوصي).

كل يوم أربعاء يأكل شانغو[2] آمالان وفي أيام الأعياد يأكل سلحفاة المياه العذبة أو خروفاً.

إيوان، آلهة الينابيع لديها اشمئزاز من الكاشاسا ومن الدجاج. إيّان ماسيه تأكل كونكين.

من أجل أوغون[3] يحْتَفِظون بالتيس والأكيلو الذي هو ديك في لغة التيريرو[4].

أومولو[5] لا يحتمل السراطين.

أوشون[6] يحب الأخطبوط وحلوى الميليندري والحيوانات المرجانية، سمك الآكارا

---

(١) ORIXA: ديانة قديمة وثنية كانت رائجة بين الزنوج البرازيليين مصدرها أفريقيا. أحد الآلهة.
(٢) XANGO: أحد الآلهة الأكثر قوة في ديانة الزنوج الوثنية.
(٣) OGUN: أحد الآلهة في الميثولوجيا الزنجية يرمز إليه بإله الحرب. (ورد ذكرها في الجزء الأول).
(٤) TERREIRO: عبادة السحر في معتقدات الزنوج البرازيليين (ورد ذكرها سابقاً).
(٥) OMOLU: إله الجدري في الميثولوجيا الزنجية البرازيلية.
(٦) OXUN: إلهة الماء في الميثولوجيا الزنجية البرازيلية. (ورد ذكرها سابقاً في الجزء الأول).

والإيبيتيه معَدّاً مع الإنيامي[١] والبصل والقريدس. يـرافـق ذلـك لحم الماعـز، فلحمهـا مفضّل، يُقدّم مع دقيق الذرة بزيت الديندية وعسل النحل.

أوشوصي[٢]، المتمتع بـأكبر قـدر مـن الاحترام، ملـك الكيتـو، الصيّـاد، شـديـد الاشمئزاز. ففي الغابة يواجه الخنزير البرّي، لكنه لا يأكل السمك إذا كان السمك ذا جلد، لا يطيق الإنيامي والفاصولياء البيضاء، ولا يريد نوافذ في بيته ـ نافذته هي الغابة.

ومن أجل المحاربات اللواتي لا يخشين الموت، من أجل يانسا[٣]، لا يُقَدَّم القرع، ولا يُعْطى لها الخسّ ولا فاكهة السابوتي، فهي تأكل آكاراجيه.

الفاصولياء مع الذرة لأوشوماريه[٤]، والكارورو المبتلّ جيداً لنانان[٥].

إن الدكتور تيودورو وهو مؤمن بكبير الآلهة أوشالان[٦] سيرى في الحال بطريقة جدّية وبرصانة، عندما يكون مشرقاً ببذلته البيضاء ويتناول بوقه مثل صدّاح منتحب، إنه يبدو أوشولوفان[٧]، أوشالان الهرم، كبير الآلهة، أبا الجميع. أطعمته هي مكبّنة من الإنيامي والذرة البيضاء، الكاتاسول والآكاسا. أوشالان لا يحب التوابل، لا يستخدم الملح ولا يطيق الزيت.

يقولون إن آسوبان ديدي هو من دبّـر اللعـب للمـرحـوم وتحدّاهـم لثلاث مـرّات، ويؤكدون أن قديس فادينيو هو إيشو[٨] ولا أحد سواه. فإذا كان إيشو هو الشيطان، كيف يثبت ذلك؟ ربما هو لوسيفر[٩] الملاك الساقط، الثائر الذي واجه القانون وارتدى النار.

(١) INHAME : نوع من البقول الاستوائية (ورد ذكرها سابقاً).
(٢) OXOSSI : إله الصيادين في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.
(٣) YANSA : إحدى الإلهة في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.
(٤) OXUMARE : ربة نهر أوشوم في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.
(٥) NANAN : أحد الآلهة في الميثولوجيا السابق ذكرها.
(٦) OXALA : كبير الآلهة في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.
(٧) OXULUFAN : أحد ألقاب كبير الآلهة أوشالان.
(٨) EIXU : الشيطان في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.
(٩) LUCIFER : إبليس في التعبير العربي.

طعام إيشو هو كل شيء يتذوّقه الفم ويأكله، لكنْ من الشراب نوع واحد فقط هو الكاشاسا الصافية. في المنعطفات يبقى إيشو جالساً فوق الليل ليأخذ الطريق الأصعب، الأشد ضيقاً وتعقيداً، الطريق السيّء في القول العام، اذ إن إيشو يريد أن يعرف فقط اللعنة.

إيشو أشد لعنة من فادينيو.

١

لن يلبث رديف مدير اللعبة أن يعلن الكرة الأخيرة، كان الوقت فجراً وهم متعبون. ومضت مدام كلوديت في يأس، من لاعب إلى لاعب، تمدّ يدها المستعطية لشخص ولآخر. لم تكن قد استطاعت إلاّ إعطاء الصوت والعينين ترخياً في الدعوة، لمسة خبث، وعداً بالتسديد العذب. لم يعد لها ولا فرجة من حب خاص، مجرد خوف من الجوع، من الموت جوعاً. ولم تعد تقول في نبرتها الباريسية الصافية:

«MON CHERI» [١] «MON PETIT COCO» [٢] «MON CHOU» [٣].

كانت تتضرّع فقط، بصوت ذي أسنان نخرها السوس، « فيشا »، على الأقل ورقة نقدية صغيرة من فئة الخمسة آلاف ريس. ليس من أجل اللعب، إنما من أجل الحصول مجدداً على ما يضمن لها أن تأكل في اليوم التالي.

لو كانوا قد تنبهوا إليها حين تسللت، منتهكة مراقبة البوّاب أو مثيرة اضطرابه، (كانت لديه أوامر لسد المدخل أمامها) لما وضعت « الفيش » على الروليت لتتضاعف بالتأكيد، وحصلت على نقود من أجل الإيجار المستحق عن زريبة الخنازير في المنزل ذي الطبقتين في بيلورينيو حيث تقطن مع الفئران والحشرات (حشرات سوداء وذات شعر؛

---

(١) في الفرنسية: عزيزي.
(٢) في الفرنسية: يا فتاي الجميل.
(٣) في الفرنسية: يا حبيبي.

كانت ترتقي إلى السرير، قرف). وكانت كل صباح تستيقظ على الصراخ والإزعاج، بتهديدات الطرد الفوري من فيدورينتو وكيل السيدة إيماكولادا تافيرا بيريس، مالكة ذلك الحوش وكثير غيره، والتي يخصص الكوميندادور عائداتها الإجمالية لأعمال البر. الإيجار، من يدري؟ ربما يمكن الحصول على مهلة يوم أو يومين، إذا أظهر فيدورينتو أنه مستعد «لتخفيف المادة» كما كان يقول، وترضي هي الاحتياجات. ثمن مرعب، حسب ما يقول الذين عرفوا فيدورينتو (وتعرفه أيضاً بالذات مدام كلوديت وسقوطها ذلك بلغ حده الأقصى؛ قربه كانت المدام عبيراً وزهرة).

إنها تقترب من السبعين ـ إذا لم تكن قد بلغتها بعد ـ قرعاء على وجه التقريب، شعرات نادرة، بقايا أسنان، عينا الشلاّل، لم تعد تمارس مهنتها المشرّفة التي كانت فيها يوماً ذات جلالة سامية، حينما كان الزبائن يصطفّون بالطابور في قاعة بنسيون النساء حين كانت تمارسها بإتقان. نزلت من الباخرة في سالفادور في ريعان سحر الأربعين من عمرها، وتبدو كأنها في الخامسة والعشرين، في طريقها إلى بوينوس آيريس، مونتيفيديو، سان باولو، الريو، «مؤثرات باريس» والدعارة الرفيعة في باهيّا، في وقت جد بعيد ما كانت مدام كلوديت تحتفظ منه إلاّ بذكرى واهنة، ومن غير أن يفيدها ذلك الواقع السعيد حتى ولا كونه نبعاً للفرح.

أخذت تنحدر شيئاً فشيئاً. من شارع إلى شارع، من بنسيون أوروبا في ساحة التياترو، قمة الأناقة، حيث عقداء [1] الكاكاو يمزّقون أوراق النقد من فئة الخمسمائة، ويتعلمون، في درس مكثّف، الرقة الغاليّة [2] في المتعة. أخذت تهبط في الطبقة والسعر، حتى وصلت في رحلة السنين والسنين، إلى الشأو الذي لا يرحم، إلى القذارة الأخيرة في درك المنحدرات، في زواريب جوليان وبيلار، في أزقة كارني بودري، وفي النهاية، لم تحصل حتى على هذا. عاشت آنئذٍ في حجرات بائسة جوعها المرير. وفي الأرصفة المعتمة قدّمت نفسها ببعض النيكلات في الزوايا الأشد إظلاماً، «MICHE DE PARIS»، «MON COCO». ذات مناسبة قال لها أحد الزنوج في بدء سريان مفعول الكاشاسا وهو متأثر تقريباً:

---

(١) CORONEL: صفة عسكرية تطلق على المزارعين الكبار.

(٢) نسبة إلى الشعب الفرنسي.

- إذهبي واحتضني أحفادكِ أيتها الجدّة، فأنتِ لا تصلحين بعد لتكوني عاهرة...

لم يكن لديها أحفاد، حتى ولا قريب واحد، ولا صديق واحد، لا شيء، حتى ولا فساتين أنيقة لتستعملها، والخرق الأخيرة كانت خليطاً من رقع وقذارة. فقد باعت، قطعة إثر قطعة، كل ما كانت تمتلكه. وآخر قطعة مجوهرات كانت تحتفظ بها لوقت آخر (كانت إرثاً من العائلة) بددتها ذات فجر منذ عشر سنوات (مدام كلوديت تخلّت منذ فترة طويلة تقريباً، عن عدّ الشهور والسنين)، حينما صارت في انحدارها تمارس في شارع سان ميغيل، بغاءً رخيصاً. فادينيو، شريك اللعب الأحمق إنما المقدام، قدّم لها أكواماً من المال وأخذ منها العقد الفيروزي الأزرق.

في تلك الساعة، هناك أمام مائدة الروليت، في اللحظة المضبوطة التي تمّ فيها اللعب، في دوران الكرة الأخيرة، تذكرت مدام كلوديت، وهي بلا فيشات، بلا فينتين وبلا آمال، فادينيو. ولم يكن يترك نفسه أبداً متقاعساً عن تقديم فيش واحد على الأقل بعشرة توستون[1]، سواء أكان قد أصاب كسباً أم خسارة، في ليلة الحظ أو في ليلة النحس. وفي ذات مرّة، فجّر المصرف في كازينو التباريس على وجه التقريب، فخرج وجيوبه محشوّة مالاً، ومضى إلى المنطقة ليحتفل مع عصبة من الأصدقاء، محتسياً الخمرة هنا وهناك. بلغ به الأمر أنه أخذ يوزّع، بين النساء كملك من ملوك التاريخ، أوراقاً نقدية من فئة الخمسة والعشرة آلاف ريس، وبعضها من ذات العشرين والخمسين الفاً. كان ثمة هذيان والمتشردات حملنه بإتقان.

لو كان فادينيو حيّاً، لو كان هناك، لكان أعطاها فيشاً واحداً على الأقل، ضامناً لها شريحة من اللحم مع الفاصولياء وكميّة من اللفائف، فاعلاً ذلك لها وللآخرين، مع تلك الابتسامة الماكرة، مع لطف سليط، وهو يقول لها: «بتصرفكِ يا مدام، بخدمتكِ» وتجيب المدام: «MERCI MON CHOU» وتمضي إلى اللعب. لكنْ أوّاه! فقد مات شاباً، في كرنفال، إذا لم تخنها الذاكرة المستنفَدَة.

في اللحظة ذاتها التي تذكرته فيها، حدث آنئذٍ؛ كان شاستينيه، مساعد مدير اللعبة

---

(١) TOSTAO: مثل VINTEM أدنى وحدة نقدية في البرازيل.

المتقن لعمله ، يجمع ويدفع مكاسب الكـرة الأخيرة ، ويـداه ممتلئتـان بـالفيشـات ـ بمائـة وبمائتين ، بخمسمائة : ذات الخمسمائة كانت كبيرة ، من المحار ، رائعة الجمال ـ حينما أعطاها شيئاً ما ، اعتراها حزن ، كما لو أنهم يخترقون جسدها . أطلقت صرخة ذات بحّة وقصيرة ، وبسطت ذراعيها وفتحت يديها ، وتدحرجت الفيشات على السجادة .

أسرع المحتالون ذوو المبادرة ، فكان ثمة اضطراب من قبل الرجال والنساء وهم ينحنون في الصراع على الأرض . وحدها المدام كلوديت الشديدة الاضطراب والمحبطة ، لم يكن لديها حتى ولا قوى لتقذف بنفسها على تلك الأرضية المغطّاة بطلاء الشمع ، فظلّت جامدة ، فيما شاستينيه الذي كان قد أعدّ نفسه ، ركع على ركبتيه ليجمع البقايا . وغرانوزو أيضاً ، رئيس القاعة ، قدم راكضاً لينقذ ما يستطيع إنقاذه . فاض فيش للجميع ، ما عداها ، الذاهلة .

أحسّت مدام كلوديت ، في فتحة الثوب الذي يكشف بشرة رخوة ، يـداً تضع إحـدى الفيشات الكبيرة ، من المحار ، من ذات الخمسمائة ، مال يفيض لدفع إيجار الحجرة ويضمن لها خمسة عشر يوماً بوجبات الغداء .

« بتصرفكِ يا مدام ، بخدمتكِ » ، بدا لها أنها تستمع إلى ذلك الصوت المليء بالمكر والسلاطة . وأجابت كما في العادة القديمة : «MERCI, MON CHOU» . أخذت طريقها إلى الصندوق لتحرر ثروتها ، حيث أنها عجوز طاعنة في السن ومعانية ، وليست في وارد البحث عن توضيح . أحد اللاعبين بالتأكيد ، بسخاء وسرعة ، وضع لها في فتحة الثوب إحدى الفيشات المرغوب فيها . «MERCI, MON VIEUX» ، وليكن ما كان .

٢

استيقظت الدونا فلور فزعة؛ فالدكتور تيودورو قد استحمّ وحلق شعر ذقنه وبدأ يرتدي ملابسه.

ـ نمتُ أكثر من اللازم...

ـ يا عزيزتي، يجب أن تكوني ميتة من التعب، وهو أمر طبيعي. فليس مزاحاً أن يعدّ المرء مأدبة مثل مأدبة البارحة وبعدها يستقبل أناساً. ويلبّي طلباتهم... ينبغي لكِ أن تخلدي إلى الراحة. فلماذا لا تبقين في السرير؟ إني أتدبّر أمري مع الخادمة...

ـ في السرير؟ إذا ما كنت مريضة...

نهضت من على السرير الحديدي، أعدّت نفسها بسرعة؛ كانا يتناولان القهوة في الصباح معاً، والدونا فلور تحرص على وضع الكسكوز [1] على النار، فهي وحدها تحضّر المعجنات حسب مذاق زوجها، خفيفة وناعمة، ولهذا السبب تستخدم حفنة من دقيق التابيوكا [2].

---

(١) CUSCUZ: طبق معد من دقيق الذرة أو الأرز مطبوخ على البخار، يعرف في بلدان المغرب العربي بالكسكسي.

(٢) TAPIOCA: دقيق المنديوكا.

متعبة، نعم، لكنْ ليس من الحفلة إنها متعبة من الليلة المؤرقة، أسماعها تصغي مثلما كانت في الأوقات الأخرى، في انتظار الخطوات على الشارع، في ساعات متأخرة من الليل. فإضافة إلى القلق، لاحظت، على سبيل المصادفة، في تيودورو بعض الاختلاف في تصرّفاته عند الاحتفال الرئيسي الذي اختتما به الاحتفالات المتألّقة لعيد زواجهما، ما كان يوم أربعاء ولا يوم سبت، لكنّ الدونا فلور قد ارتدت قميص النوم الذي ارتدته ليلة الزفاف والدكتور قال لها:

ـ يا لها من ذكرى لطيفة جداً يا عزيزتي. فهناك مناسبات تفرض نفسها واغمري لي إذا كنت اليوم أزعجكِ، قاطعاً سياق التقويم... ـ ألم يكن دائماً فطناً ومرهف الحسّ، بحيث أن المرأة لا تغدو أسيرة إغوائه؟

وافقت الدونا فلور، لكنْ مع مشاعر الارتباك. شفتاها مجروحتان، الفم مشتعل، واللسان المحروق يحتفظ بمذاق حاد من فادينيو، طعمه اللاذع، في حين أن القبلة التي كان الدكتور يبدأ بها، بشكل غير متنوّع، غيبوبته، تعلم أنها جافّة وتافهة.

وهي المرتبكة من كل شيء، أضاعت نفسها، مخلّة بالتنسيق الصحيح والكامل في جعل هذه الأشياء ذات إيقاع في المتعة العذ... إنما المندفعة. ولكونها مضطربة لم ترافق الزوج خطوة خطوة كما جرت العادة. فمضى هو صعداً، أوّلَ في بلوغ النشوة فيما الدونا فلور لا تستطيع إطلاق نفسها من سجن الأعصاب المتوترة إلا بالتكرار (حيث يوجد تكرار). لم يسبق لها أبداً أن تعاطت هكذا، مع كثير من الإخفاق، بتكرار واحد تقريباً، في ليلة الالتباسات في باريبي. لحسن الحظ، إذا كان هو قد استشفّ أنها غريبة وأنوف، فإنما عزا ذلك الإرباك وتلك التصرّفات إلى التعب، إلى الجهد المبذول في احتفالات العيد السنوي.

في الصباح الباكر، حينما كان الضوء ما زال ملطخاً بالليل قادماً ليطلي الجدران، سمعت الدونا فلور خطوات في المدى، وعندها نامت في نعاس ثقيل، كأنها قد ابتلعت حبوباً مخدّرة.

دسّت قدميها في الخفيّن، ارتدت الرداء الموشى بالزهر فوق قميص النوم، ومررت

المشط على شعرها، ثم خرجت إلى المطبخ عند وصولها إلى القاعة، تبيّنت الشيء الرديء[1] ممدداً على الأريكة، في عري غير محتشم كان ينبغي له أن يستيقظ حتى قبل أن تضع التوابل على الكوسكوز (من المطبخ كانت تصل الرائحة اللطيفة للقهوة المصفّاة من قبل الخادم).
لمست الدونا فلور كتف فادينيو، ففتح عيناً واحدة، مهمهماً:

ـ دعيني أنام، وصلت منذ قليل...

ـ إنك لا تستطيع النوم ههنا، في القاعة...

ـ ماذا في الأمر؟

ـ ها قد قلت لك، إني أغدو مرتبكة... أتى بحركة تنم عن قلة الصبر:

ـ مالي ولهذا؟... دعيني بسلام...

ـ إنك قد بدأت بطرقك الفظّة.. إفعل معروفاً يا فادينيو...

فتح مجدداً عينيه، وابتسم لها بكسل:

ـ حسناً، أيتها البلهاء. سأنام في الحجرة.. هل خرج زميلي؟

ـ زميلك؟

ـ دكتوركِ... ألسنا نحن الاثنان متزوجين منكِ، زوجيك؟ إننا زملاء يا حبي...
ـ كان يتطلّع إليها بمكر وقلة حياء.

ـ فادينيو، إني لا أقبل هذه النكات..

كانت تتكلم بصوت مرتفع ومن المطبخ جاء صوت الخادم:

ـ هل تكلمتِ معي يا دونا فلور؟

---

(١) COISA-RUIN: تعبير يطلق على الشيطان.

ـ أقول إني سأصنع الكوسكوز...

ـ لا تغضبي يا حبي... ـ قال فادينيو وهو ينهض.

مدّ يده ليمسكها بها ـ أوه! يا له من عري فاضح جداً ـ لكنها هربت.

ـ إنك فاقد العقل...

في الممر، عبر الرجلان، وإذ رأتهما يعبر الواحد بالآخر، شعرت الدونا فلور بحنان نحو الإثنين، جد مختلفين لكنَّ كلاً منهما زوج لها في الكنيسة وعند القاضي. «الزميلان»، فكّرت بأن تضحك من المفارقة الطريفة. لكنها أمسكت نفسها في الحال: ربّاه! إني أغدو شهوانية أكثر من فادينيو. غير أن السافل كان يغمز بعين تآمرية، فيما يسحب لسانه من فمه نحو الدكتور، ويده في حركة داعرة. وقد اعترى الدونا فلور الغضب.

لا، لم يكن هذا محقاً وهي لا تستطيع تحمّل مثل هذه النذالات، هذه النكات القذرة، تصرّفات ولد، الفظاظات والإساءات. لقد حان الوقت ليتعلم فادينيو كيف يتصرّف باحترام في أحد البيوت.

الدكتور حليق الذقن جيداً، يرتدي الصداري والسترة الجديدة بورقتها [1]:

ـ إننا اليوم قد تأخرنا قليلاً يا عزيزتي...

«ربّاه! الكوسكوز» ـ وركضت الدونا فلور إلى المطبخ.

---

(١) NOVO EM FOLHA: نفس التعبير المتداول في العامية، ويعني أن الشيء استحضر ملفوفاً بورقته علامة الجدة.

٣

مع نهاية الدرس الصباحي ، حينما أجريت القرعة ليخترن مَنْ منهن ستأخذ وعاء مربى بابا ـ ده ـ موسا [1] إلى بيتها ، أحسّت الدونا فلور بحضوره قبل أن تراه.

حتى ذلك الوقت ، لم تكن قد اعتادت واقع كونها وحدها فقط وهو الذي تتبيّنه ، ومع تحققها من فادينيو لصق المائدة ، عارياً كلياً ومعروضاً أمامها ، ارتعدت. لكنْ بما أن التلميذات لم تكن لهن ردات فعل إزاء الفضيحة ، تذكرت امتيازه ؛ كان زوجها الأوّل غير مرئي للآخرين. هذا حسن أيضاً.

واصلت التلميذات الضحك وإطلاق النكات كما لو أنه لا يوجد بينهن رجل عاري البدن ، ينظر إليهن ويقيسهن بعين طبيب يتفحّص مرضاه ، متريثاً إزاء الأكثر جمالاً. يا له من أمر مسيء. ها قد جاء مرّة أخرى يسبب إزعاجاً للدروس ، يدسّ نفسه مع التلميذات ، كما كان قبلاً. وما دام الكلام في هذا الأمر ، فإنه يتوجب على فادينيو تقديم إيضاحات ، تصحيح الحسابات المتأخرة ، القديمة ؛ تلك الخائنة إينيس فاسكيس دوس سانتوس ، المغترّة بنفسها.

وهو معتدّ بنفسه جداً ، دار بتمهل وبخطوة خفيفة ، كأنها خطوة من خطوات الرقص ، ثلاث مرّات حول المتضخّمة الجسم زولميرا سيمونز فاغونديس ، وهي زنجية رائعة ، الردفان

---

(١) BABA-DE-MOÇA : حلوى معدة من جوز الهند الأخضر مع القطر المصنوع من السكر والبيض.

البهيّان، الثديان الطليقان، المستقلاّن، البرونزيان (هكذا يبدوان على الأقل)، سكرتيرة خاصة للرجل المهم القادر السنيور بيلانتشي مولاس، خاصة جداً، حسب قول الشعب.

بعد أن استحسن الوركين بجلاء وتمجيد، أراد فادينيو أن يتيقن دفعة واحدة من لغز الثديين، هل هما حقاً من البرونز أم ذلك لمجرّد الصلابة الخارجة على المألوف؟ فارتفع كثيراً في الهواء، رافعاً قدميه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، متلصصاً إلى فتحة فستان أميرة الأمة الساحرة.

أُصيبت الدونا فلور بالصمم، واعتراها الرعب؛ فلم تره حتى الآن يطير، وكما يبدو في الهواء كذلك في الأرض، هو راسخ القدمين، فبقي هناك بأفضل وضع يلائمه، واقفاً على قدميه أو ممدداً أفقياً، منحنياً أو أن يكون رأسه إلى أسفل ـ كما لو أنه في تلك اللحظة يرنو إلى ثدييْ الفتاة الرشيقة.

لم يكن متاحاً للتمليذات أن يرينه، هذا مؤكد، إنما ينبغي لهن أن يشعرن بشيء ما في الهواء، إذ كن متوترات أكثر من المعتاد، يضحكن ويتكلمن كيفما كان الأمر، في نوع من الهاجس. لقد باتت الدونا فلور ثائرة، ففادينيو تجاوز جميع الاعتبارات.

لقد تجاوزها في الواقع، حينما لم يقنع بالتلصص، فدسّ يده في الفتحة تحته ليقرر في شكل محدد، المادة ـ الخام لتلك المخلوقات الإلّهية؛ هل هنَّ من لحم ودم أم هنَّ نتيجة معجزة؟

ـ آي ـ أنّت زولميرا ـ إنهم يلمسونني... فأضاعت الدونا فلور صوابها إزاء كل هذه السفالات، وانفجرت في صرخة:

ـ فادينيو!

ـ مَنْ؟ ماذا؟ كيف؟ ماذا بكِ؟ ماذا حصل؟ ـ كانت التلميذات المنفعلات واللواتي يشعرن بالدوار، يحطن بالرفيقة والمدرّسة ـ ماذا قلتِ يا دونا فلور؟ وأنتِ يا زولميرا؟

أوضحت زولميرا في تنهدة ذات دلع:

ـ أحسست بشيء ما يمسك ويهصر صدري...

ـ هل أحسست بألم؟

ـ كلا... لكن بسرور...

استعادت الدونا فلور نفسها بجهد، واختفى فادينيو مع صرخة كربتها.

٤

كرر فادينيو لها مرّتين أو ثلاث مرّات في ذلك المساء، بصوت ماكر، وفي ابتسامه ساخرة:

ـ هيّا بنا نرى من يستطيع أكثر من الآخر يا قديستي... أنتِ مع دكتوركِ وكبريائكِ، وأنا...

ـ وأنت، مع ماذا ؟

ـ أنا، مع حبي...

كان ذلك تحدياً، والدونا فلور قوية عند ظهوره الذي فعله لها قبل ذلك بقليل (لم يتناول رسغها، إلا لغاية حيدة، وبرضاها) فإذا أعدّت نفسها لقبوله، مستعدّة للمجازفة، وهي تمتلك كل هذه الصفة المتكاملة والحيوية الجسورة، فمن اجتاز أيها المتكبّر، جحيم الترمّل، من دون أن يحرق نفسه، لا يخشى الأشخاص الأنذال ولا الذين يغوون النساء.

ـ إني أضع شرفي فوق كل شيء...

شرع فادينيو في الضحك:

ـ إنكِ تتكلمين مثلما يتكلم الدكتور، يا حبي. شاذة كلياً، ملكيّة كلياً، كأنكِ مدرّس...

كان دورها في الضحك:

- إني مدرّسة، كنت مدرّسة قبل أن أعرفه وأعرفك. وتحديداً، مدرّسة يشار إليها بالبنان...

- مدرّسة أطعمة شهيّة ولستِ مدرّسة ليعتريكِ الغرور...

- هل ترى حقاً أني أصبحت مغرورة؟ وأني قد تغيّرت؟

- إنكِ لن تتغيّري أبداً يا حبي. غرورِكِ الوحيد شرفكِ. لكنْ بما إني قد التهمته[1] مرّة، فلسوف ألتهمه مرّة أخرى... حتى ولو كنتِ مدرّسة يا حبي، ففي الإمتاع أنتِ تلميذتي. وأنا قد جئت لأنهي تخرّجكِ...

في هذا الهزل، مع الضحك والنكات، ومع الرقّة، صارا يتحدثان حتى ساعة العشاء تقريباً. الدونا فلور زاخرة بالريح[2] والافتخار: إن فادينيو لن يطوي أبداً نزعته إزاء المرأة الشريفة، منتهكاً فضيلتها كامرأة متزوّجة. أما بالنسبة إلى المرّة الأولى فقد كانت مراهقة خجولة، ما كانت تحسن ضبط انفعالاتها في حبها الأول وذهب شرفها مع نسيم المساء في إيتابووا. وهي اليوم امرأة جرّبت الألم والفرح، تعرف ثمن ومعنى كل شيء. وفادينيو سيغدو متعباً من الانتظار. لكنه لا يؤمن بتلك المقاومة غير المرئية:

- سوف تعطيني ما أبتغيه منكِ بأقل مما تنتظرين... كما في المرّة الأخرى... وأنتِ تعلمين لماذا؟

أوضح وهو متعجرف وسفيه:

- لأنكِ تحبينني، وفي أعماقكِ، هناك في أعماقكِ الدفينة حيث أنتِ بالذات لا تتبينين ذلك، أنتِ متلهّفة لإعطائي ما أبتغيه...

---

(١) المقصود بالالتهام: المضاجعة.

(٢) المقصود بالريح: العنفوان.

فادينيو مفعم بالمكر والخيلاء. والدونا فلور راسخة في حشمتها الجوهرية:

- هذه المرّة سوف تخسر... فالزمن وحديث الاستدراج...

كان الوقت نهاية فترة ما بعد الظهر الهادئة مليئاً بالسحر. ومع هذا بدأ صعباً ومزعجاً.

عندما خرجت الدونا فلور، بعد الدروس المسائية، من الحمام ومضت تتعطر أمام المرآة وتسرّح شعرها، وهي شبه عارية، لا ترتدي غير المنهدة[1] والسروال الصغير، تناهت إليها جلبة استحسان من مكان ما في الحجرة. مع أنها قبل أن تدخل الحمام وتخرج منه، تفحّصت الحجرة متيقنة من غياب أي من زوجيها، فالدكتور ما يزال في الصيدلية، وفادينيو تحوّل كافوراً[2] منذ الفصل الأول من الدروس.

جسناً؛ كان هناك، المقرف، فوق خزانة الثياب، متدلّي الساقين. مع عتمة المساء وفي ذلك الظل، كان يبدو شبيهاً بذلك الملاك المنقوش على الخشب الموضوع في ممر كنيسة القديسة تيريزا. نظرته تقع على كتفيْ الدونا فلور بذلك النهم لدرجة أن شراهته تندلق كزيت عليها، فوق جسدها الرطب. «ربّاه!»، همست الدونا فلور، متناولة الرداء لترتديه على عجل.

- لماذا هذا، يا حبي؟ هل ترى إني لا أعرفكِ، كلكِ، كلكِ بكاملكِ؟ أين هو الموضع الذي لم أقبلكِ فيه؟ أي غباء هذا؟ أي سخف...

في قفزة راقص - يا لها من خفّة في الحركات! - وجسده عارٍ، اجتاز الضوء والظل وهبط برشاقة على السرير الحديدي فوق الفراش الجديد ذي الرفّاص:

- إن هذا الفراش الجديد يا ابنتي[3] سحابة، إنه جيد أكثر من اللازم. تهانيّ. تمدد مسترخياً، وبقية من الضوء تعيّن ابتسامته الراضية في وجهه الشهواني والذي فيه إغواء. وفي

---

(١) PORT-SEIOS : حاملة النديين.

(٢) المقصود بالكافور من جرع كافوراً وسكنت غريزته الجنسية. فالكافور مهدىء للشبق.

(٣) تقال تحبباً للمرأة.

الظل كانت الدونا فلور تتأمله.

ـ تعالي إلى ههنا يا فلور، تعالي وارقدي إلى جانبي، هيّا بنا نتمتع قليلاً. إرقدي هنا، هيّا بنا نتدحرج على هذا الفراش الجميل...

كانت الدونا فلور ما تزال عرضة للتكدّر مما أحدثه مع التلميذات ـ تلك السخافة من فادينيو في دسّ يده في ثديْ زولميرا، والفتاة الرديئة أحبّت ذلك، إذ حتى مع عدم تبيّنها للرجل العديم الحياء، غدت فاقدة الحيل كلياً، في دلع وتظاهر بالإغماء ـ فقاومت بخشونة:

ـ هل ترى ما فعلته شيئاً قليلاً؟ ولم يرضك هذا، فجئت أيضاً لتختفي من أجل التلصص عليّ؟ إنك لم تكسب تصرّفات مهذّبة في هذا الوقت، كان بوسعك أن تستفيد...

ـ لا تظلّي هكذا، يا حبي... ارقدي ههنا، لصقي.

وعندك الشجاعة أيضاً لتدعوني إلى الرقاد معك؟ ما الذي تظنه بي؟ إني عديمة الشرف والحياء؟

ما كان فادينيو يريد نقاشاً:

ـ يا حبي، أي حنق هذا؟ لم أفعل بشيئاً أكثر من اللازم. اختلست النظر قليلاً إلى التركيب الجسدي [1] للفتاة... بدافع الفضول فقط لأعرف كيف تكوّنت نزوات بيلانتشي مولاس. قيل إنه يرضع تلك الأثداء ـ ضحك وبعد ذلك أخفض صوته ـ تعالي يا حبي، إجلسي هنا قرب زوجك الصغير، ما دمتِ لا تريدين الرقاد، هل لديكِ خوف؟ إجلسي لنتبادل حديثاً قصيراً، ألستِ أنتِ القائلة بالذات إنه من اللازم أن نتحدث؟

ـ أجلس أنا وبعدها تريد أنت إمساكي من رسغي...

ـ آه! لو استطعت... إذاً فأنتِ تظنين أنه لو بوسعي الإمساك بكِ من رسغكِ، من دون إرادتكِ، كنت هنا أتملقكِ، مضيعاً الوقت؟ بالقوة يا حبي، لن أريدكِ فاكتبي هذا،

---

(١) في الأصل ANATOMIA: التشريح.

حيث أنها كلمة فادينيو...

- هل محظور عليك الإمساك برسغي؟

- محظور عليّ؟ ومِنْ قبل مَنْ؟ لا يوجد إله ولا شيطان ليمنعني مهما كان. هل أنتِ لا تدرين هذا أم أنكِ عشتِ معي سبع سنوات ولم تعلمي شيئاً عني؟

- فلماذا إذن؟

- هل أمسكتكِ مرّة من رسغكِ؟ مرّة واحدة فقط، قولي لي...

- أبداً...

- إذن؟ أنا نفسي أمنع ذاتي، فما احتجت قط لأن أمسك امرأة من رسغها، وذات مرّة شاء ميراندون الإمساك بزنجية صغيرة بوحشية، في بقعة رمليـة في منطقة أونياون، لم أدعه يفعل ذلك... فأنا يا حبي لا أريد إلاّ ذلك الذي يُعطى حينما يكون العطاء برغبة حسنة، من القلب. بالرسغ، أي طعم بالوسع أن يكونه ما عدا الطعم الرديء؟

رمقها طويلاً، عائداً إلى الابتسام:

- إنكِ سوف تعطينني، يا فلور الصغيرة الجميلة، وأنا أكاد أجنّ شوقاً لبلوغ الساعة التي ألتهم فيها الموضع الخالي من الشعر... لكنكِ أنتِ التي ستعطينني، التي ستفتحين ساقيكِ، إذ إني أريدك فقط حينما أنتِ أيضاً تريدين. فلا أريدك بمذاق الكراهية يا حبي.

كانت تعلم أنها الحقيقة الناصعة، تضاعف الافتخار في صدرها للزوج (الأول) كهالة من نور، إشراق؛ ليست هالة قديس، بشكل خاص، إنما هالة رجل، رجل فحل ومتحـدٍ.

ارتاحت الدونا فلور آنئذٍ على حافة السرير، مع فادينيو الممدد إلى جانبها، يتلصص إليها مع أعصاب مسترخية على سجيتها، عزلاء ضده. وما كادت تجلس، حتى كان الغشّاش ينحدر بيده إلى خصرها ثم إلى قارورة الرحم[1] فنهضت ساخطة:

(١) المقصود: الفرج.

- إنك حقاً لا تنفع لشيء... لقد حدا بي الأمر أن ظننت أنك تتكلم من قلبك، وأنك كنت رجلاً يحافظ على كلمته... وفي الحال كذّبت ذلك، فانت تدسّ يدك...

- وهل على سبيل الافتراض أمسك بكِ بالقوة، آخذك بالقوة؟ لأني فقط وضعت يدي على سرّتكِ؟ إجلسي هنا واصغي يا حبي، لن ألتهمك بالقوة، لكن هذا لا يعني أن لا أفعل كل شيء، كل شيء، أن لا أستخدم جميع الوسائل من أجل أن تعطيني أنتِ برغبتكِ ذاتها. وفي كل مرّة أستطيع فيها لمسكِ سألمسكِ، وحينما لا أستطيع منحكِ قبلة، سأقبلك. إني لا أخدعكِ، يا فلوري[1]، فلسوف أفعل كل شيء، كل شيء بسرعة، إذ أنني أكاد أجنّ لالتهامكِ كلكِ، وقد وصلت ميتاً من الجوع.

كان ذلك تحدياً؛ شرفها كامرأة شريفة ضد سحر فادينيو وطلاوة لسانة، اعتزازه بنفسه، قلّة حيائه.

- إني لا أخدعكِ، يا فلور، سألتهمكِ وحينما يكون دكتوركِ هذا أقل ظناً فإن إكليلاً من القرون سيعلو رأسه. وبالأحرى يا حبي فإنه مع رأسه الكبير والعالي كما هو حاله، سيغدو جيلاً ونوعاً ما، سيكوّن جذعاً من قرن من أفضل نوع.

تحدٍ؟ حسناً جداً، أيّها السيد زوجي الأول والفحل المشهور، دون جوان الشقق المشبوهة والمنطقة، المجرّب في إغواء الفتيات والنساء المتزوجات، إني أقول لك أيّها الغبي: مهما تعاظم شأن دهائك، لن تلتهم مرّة أخرى موضعي العاري من الشعر. مع كل دهائك، مع كل طلاوة لسانك، مع كلامك المنمّق كله، أيّها الغبي، لن أدعك تقبلني ولا أن تخدعني؛ فأنا امرأة شريفة، لن أوسخ اسمي ولا اسم زوجي. إني أقبل التحدي. وهكذا فكّرت وقررت، وعادت لتجلس على الفراش.

- لا تتكلم بهذا يا فادينيو، فهو قبيح... احترم زوجي... دع هذه الأحاديث، وهيّا بنا نتكلم في أمور جدّية. فإذا كنت قد دعوتك كما قلت أنت، فذلك كان من أجل أن أتحدث معك، أحياناً يضيّق عليّ الخناق اشتياقُ الرغبة في رؤيتك، في التكلم معك. ولم

---

(١) معناها: يا وردتي.

يكن ذلك بفكرة التجرّد من الحشمة. فلماذا تنم عن عقل رديء جداً في ما يختص بي؟

ـ أنا؟ متى تصرّفت بعقل رديء إزاءك؟

ـ كنت امرأتك طيلة سبع سنوات، وأنت كنت تسير طليقاً في الشارع وما كان الأمر في القمار فقط، كنت تعيش في أسّرة جميع النساء الضائعات في باهيّا، ولم يرضك أن تدسّ نفسك في حياة فتاة وامرأة متزوجة، بعض النسوة اللواتي هن أسوأ من البغايا... وما دمنا نتكلم عن هذه المثالب، اكتشفت الآن فقط أنك كنت تلاحق امرأة تدعى إينيس، مسلولة كانت منتسبة إلى المدرسة منذ وقت بعيد...

ـ اينيس؟ الهزيلة؟ ـ بحث عن الإسم والشخصية في الذاكرة الممتازة، ذاكرة من هو دائم الاستقراض للمال، وهناك عثر على الهيفاء إينيس فاسكيس دوس سانتوس بوجهها النهم وشراهتها ـ تلك؟ عظم خالص وجلد... ليس لها أي أهمية، لا تهتمي لهذا يا حبي، هي فقط تعطي مكافأة ومن أسوأهن. فوق كل هذا، مضى وقت طويل على ذلك، لماذا تأتين في الحال بهذه العثرة القديمة جداً، شيء مضى؟

ـ عثرة قديمة، شيء مضى لكنني ما علمت ذلك إلا في يوم قريب.. ألا تتخيّل العار يا فادينيو؟ أنت ميت ومدفون، وأنا متزوجة من جديد، وأفعالك العديمة الحياء ما تزال تتعقّبني... لهذه الأمور وغيرها دعوتك، لأنه ما تزال هناك حسابات يجب أن تُصحّح. وليس من أجل ما تفكر فيه...

ـ لكنْ يا حبي، مهما كان الأمر، فها أنذا هنا، وأي سوء في أن يتمتع المرء دقيقة صغيرة؟ هيّا بنا ننتهز الفرصة ونزيل معالم الشقاء. وأنتِ محتاجة قليلاً، وأنا لن أتكلم في هذا...

ـ كان ينبغي لك أن تعرفني، وأن تعلم بأني لست امرأة تخدع زوجها. فطيلة سبع سنوات مارست دور الشيطان معي وأسأت إليّ بكل الوسائل. جميع الناس تعلم ذلك وتتكلم عنه في الشارع...

ـ وأنتِ تولين اهتماماً لهذه العصبة من العاهرات؟

ـ لقد أسأت إليّ ولم يكن ذلك بالقدر الزهيد، كان ذلك حقيقياً. لو كنت امرأة أخرى، كنت تركتك زاخراً بالقرون والعار. أنا فعلت ذلك؟ كلا، فلقد تحمّلت بثبات، لأني امرأة مستقيمة. الشكر للرب يا فادينيو. فلمَ أتطلّع إلى أي رجل طالما كنت حياً...

ـ إني اعلم هذا يا حبي...

ـ ما دمت تعلم هذا، كيف تريدني أن أخدع تيودورو زوجي خصوصاً معك، وهو رجل مستقيم وطيّب. إنه يأخذني في راحتيْ يديه، وهو رجل رصين، ما خانني قط مع امرأة أخرى. أبداً يا فادينيو، أبداً. ذات مرّة، حتى... ـ أوقفت الجملة عند منتصفها.

ـ حتى ماذا يا حبي؟ ـ توسّل هو إليها بصوت رقيق جداً ـ أخبري البقيّة...

ـ لقد وُجدت نساء كثيرات كنَّ يلاحقنه وهو لم يعرهن التفاتة...

ـ بهذا القدر من النساء؟ لا تبالغي يا حبي، كانت امرأة واحدة، وهي ماغنوليا، أكبر عاهرة في باهيّا، وقد تصرّف هو بسلـوك معيب. أين شوهد رجل راشد، دكتور وكل شيء، يغدو أقل وجلاً من قاصر، إزاء امرأة، وما كان ينقصه إلاّ أن يطلب إغاثته. يا للعار... هل تعلمين أي اسم اطلقوه عليه بعد ذلك الإخفاق؟ الدكتور كريستيل، يا حبي...

ـ توقف عن هذا يا فادينيو. إذا أردت المحادثة بشكل مستقيم، حسناً جداً، لكنْ إذا جئت إلى هنا لتسخر من زوجي، فهذا لن يكون... وليكن في علمك أني أحبه كثيراً وأقدّر أكثر من اللازم الطريقة التي يعاملني بها، ولن أدنّس اسمه...

ـ من جرّ المحادثة هو أنتِ يا عصفوري الصغير. لكنْ قولي الحقيقة؛ مَنْ هو الذي تحبينه أكثر؟ لا تكذبي... أنا أم هو؟...

كان يضع رأسه على حضن الدونا فلور وهي تعبث بشعره. ولكونها ضائعة في نزواتها لم تجب على السؤال المحرج.

ـ لن أخونه أبداً يا فادينيو، فهو لا يستحق...

كان فادينيو يتنفّس بشكل خفيف، مع ابتسامة بريئة كطفل. ولمست الدونا فلور صدره، غابة من الشعر الأشقر، الدفء اللذيذ. فقال وكان ذلك تأكيداً وليس بعد سؤالاً:

- إنكِ تحبينني أكثر يا حبي. أنا متأكد.

- إنه يستحق أن أهبه الحب...

يد الدونا فلور على ندب الموسى؛ كانت تحب أن تستشعر ذكرى العراك السابق الذي بلغ علمها، الجرح الواسع والعميق، عراك المراهقة، فور هروبه من المدرسة، ففادينيو معتد بنفسه وزير نساء. يا له من رجل جميل!

كانت عذوبة المساء تتسرّب إلى الحجرة في ظلال ونور، في نعاس يسببه النسيم.

قال هو:

- يا حبي، كنت أتحرّق شوقاً مجنوناً إليكِ، شوقاً شديداً بحيث كان يثقل على صدري مثل طن من الأرض. وكان قد مضى وقت طويل وأنا أريد المجيء، منذ أن دعوتني للمرّة الأولى. لكنكِ قد حبستني بالموكان[1] الذي أعطاكِ إياه ديدي والآن فقط استطعت التحرر منه وجئت... ولأنكِ الآن دعوتني بشكل حقيقي، برغبة، وكنتِ بحاجة إليّ حقاً...

- وأنا أيضاً كنت مشتاقة طيلة الوقت... ما كان مجدياً أن تكون سيئاً يا فادينيو، كدت أموت عندما متّ أنت...

أحسّت الدونا فلور بشيء في داخلها، رغبة في الضحك أو البكاء من دون فرق، لكن بصمت، بشكل خافت. ومداعبة فادينيو الرقيقة جداً بيده على ذراعها، على قفا رقبتها على وجهها، على رأسها المسترخي على حضنه، ساعياً إلى موضع أكثر ارتياحاً، ثقيلاً وساخناً على أعلى فخذيها، مزوّداً إياها بحرارة وبرغبة في النوم. رأس جميل ذو شعر أشقر

---

(١) MOKAN: العمل السحري.

أخذت الدونا فلور تحني وجهها شيئاً فشيئاً، وفادينيو يرفع رأسه، وعلى حين بغتة أخذ فمها وليس رسغها.

انتزعت الدونا فلور نفسها من القبلة ومن ذراعيه حيث كانت عرضة للخور.

ـ رَبّاه! آه يا ربي..؟

ما كان تحدياً كيفما كان. ما كان بوسعها أن تسمح لنفسها بدقيقة واحدة من الهوان، بأقل قدر من عدم الحيطة، إذا لم تشأ أن يضللها الشيطان.

أخذ فادينيو يصفّر زاخراً بالزهو، ونهض بابتسامة ساخرة ومضى يعبث في أدراج خزانة الثياب. بفضول خالص أو، من يدري، لكي يترك الدونا فلور تجمع بلا قوى، في الحجرة، بقايا قوة رغبتها، قرارها المعلن.

٥

حينما وصل الدكتور للعشاء، كانت الدونا فلور قد استعادت نفسها كلياً في حشمتها الخالصة وحصّنت أكثر تصميمها على أن تبقى خليقة بزوجها، تصون، من دون تلوّث، اسمه ومفهومه، وجبهته النظيفة حيث تلمع أفكار، تغلي معارف. « لن ألطّخ أبداً الاسم الذي قدّمته إليّ، ولن أغرس قروناً في جبينك، يا تيودورو؛ أفضّل أن أموت قبل أن أفعل ذلك».

المهم هو أن لا تستهين، لا تعطي فرصاً، لا تسمح للماكر بأن يثير حواسها، حاصلاً بالتآمر على المادة الشريرة المنحطة، مادة قادرة ـ كما علّمتها دعاية اليوغا في الأوقات الجائعة من الترمّل ـ على خيانة مشاعرها غير الملوثة وأن تبيع شرفها. وإذا حاول فادينيو مواصلة رؤيتها، فينبغي لها أن تتمالك نفسها في حدود الوقار، في حدود العلاقات الأفلاطونية[1]، إذ غير مسموح للدونا فلور ولزوجها القديم بعلاقات أخرى.

لم تخف الدونا فلور ـ لم تحاول حتى أن تفعله ـ الحنان الذي تكنّه للمرحوم السابق، حبها الأول والكبير. كان هو الذي بددها في الحياة، جاعلاً من الفتاة الصغيرة البلهاء من لاديرا دو آلفو شعلة ذات ألسنة لهيب عالية، معلّماً إياها الفرح والعذاب. لقد أحسّت نحو فادينيو حناناً دفيناً، مؤثراً، شيئاً لا يمكن إدراكه، مزيجاً من الشيء الطيّب والشيء الرديء، شعوراً صعب التحليل ومستحيل التفسير بالنسبة إليها بالذات.

(١) PLATIONICA : أفلاطونية أو عذرية حسب التعبير العربي.

كانت راضية، سعيدة لرؤيته، الخبيث؛ للتكلم معه والضحك من اختلاقاته، من أفعاله البلهاء. سعيدة حتى مع تأوّهات القلب الذي يعاني الجزع من جديد، في انتظارها له الليل الطويل، يقظة لخطواته في صمت الشارع، وهي تعاني الأرق. تمرّ في ظروف صعبة كما كانت قبلاً. لكنَّ الآن ليس كل ذلك أكثر من صداقة رقيقة، من دون متطلّبات أخرى، وبلا التزامات كبيرة، بلا قلّة احتشام في السرير. السرير، آه، هنا الخطر! الأرض المزروعة أفخاخاً، قطاع الهزائم.

اليوم، هي متزوجة مجدداً، سعيدة مع زوجها الثاني، ليس بوسعها أن تقيم مع الأول سوى علاقات عفيفة، كما لو أن ذلك الهيام الخالي من الخفر والخارج على المعايير في شبابها قد تبدّل مع موت فادينيو، إلى ارتباك خجول لعشاق رومانسيين، فتجرّدت من عنف اللحم لتغدو روحاً نقيّة لا أثر للمادة فيها (التي هي بالأحرى تفرض نفسها لهذه الأسباب ولجميع الأسباب الأخرى). فالسرير والنشوة الجسدية هما فقط مع الثاني، مع الدكتور تيودورو، في أيام الأربعاء والسبت، مع تكرار وأثر لذيذ. ولفادينيو كان يفيض وقت للحلم، وهو وقت فارغ في نصف سعادة، أو مَنْ يدري؟ ذو سعادة منصرمة.

فإذا وافق فادينيو على مواجهة الموقف هكذا، محترماً هذا الاتفاق، حسناً جداً؛ إن هذا الشعور الافلاطوني زاخر بالعذوبة والحضور الرصين والمرح لفتى، وسيغدوان عطراً ونعمة في حياة الدونا فلور ذات النهج الشديد في النظام، معوّضة رتابة تافهة معيّنة تبدو جزءاً متكاملاً للسعادة. فميراندون، الفيلسوف والأخلاقي (كما تأكد ذلك هنا بشكل أخوي) أعلن ذات إنجاز في لهجته الباهيّانية الأصيلة:

ـ السعادة ذات فعّالية شديدة، إزعاج بالغ، في تلخيص: انسحاق...

ومع هذا، لم تشأ أن تخضع فادينيو لمثل هذه التمديدات، والدونا فلور لن تراه بعد الآن، ستقطع دفعة واحدة علاقاتها معه ومشاعرها إزاءه ـ حتى ذلك العطف الروحي الذي بقدر ما هو بريء، لم يبلغ به الأمر أن يغدو إثماً أو عدم تقدير، يهدد الجبين المشرق لزوجها المتكامل والمحترم.

هكذا، وهي مطمئنة لهذه التأملات، قوية الحيوية، وبعد أن مصّت قرصاً من أقراص

النعناع لتنظّف فمها من طعم الفلفل والعسل لتلك القبلة الفاضحة، استقبلت الدونا فلور الدكتور تيودورو بنفس الوداعة الودودة، بنفس القبلة الرقيقة في جميع الأمسيات، وتناولت السترة والصداري وجاءته بسترة المنامة الباعثة على البرودة. كان الدكتور يرتدي سترة المنامة فوق القميص وربطة العنق، للعشاء، للدرس فوق طاولة المكتب، لنوطات البوق. فقد كان يتصرّف على سجيّته.

أثناء الطعام، لاحظت الدونا فلور في صوت وتصرّفات الزوج رصانة شديدة بلغت حدّ الوقار. كان الصيدلي معتاداً على نمط من الشكليات، كما هو معروف. لكنْ في ذلك المساء، أظهر الوجه المقطّب، الصمت، الأكل بعدم انتباه، قلقاً وعدم اطمئنان. والدونا فلور لاحظت زوجها فيما كانت تمرر إليه طبق الأرز وتقدّم له ضلعاً محشواً (محشو بالفاروفا[1] مع البيض والنقانق والفلفل الحلو). كان الدكتور يعاني من معضلة جدية، من دون شك، والدونا فلور الزوجة الطيّبة والمتضامنة مع زوجها، سرعان ما غدت مضطربة هي أيضاً.

حينما وصل دور القهوة (مصحوبة بأقراص التابيوكا، مَنّ منزل من السماء[2])، وفي النهاية قال الدكتور تيودورو، وبجهد أيضاً:

ـ يا عزيزتي، أرغب في التحدث إليكِ بموضوع ذي أهمية بالغة، لفائدتنا المشتركة...

ـ تكلم حالاً، يا عزيزي..

لكنه تريّث، وكأن أحداً يردعه، مفتشاً عن الكلمات. أي موضوع جد صعب سيكون هذا الموضوع ـ كانت الدونا فلور تتساءل ـ ليجعل الدكتور متردداً؟ وإذ التفتت إلى انزعاج زوجها، نسيت كلياً مشكلاتها الخاصة الناتجة عن الزواج المزدوج.

ـ ما الأمر يا تيودورو؟

رمقها وسعل:

---

(١) FAROFA: دقيق المنديوكا المحمص مع الزبدة.

(٢) MANA: المن والسلوى المنزلان على بني إسرائيل حسب التوراة.

ـ أريدكِ أن تكوني كلياً على سجيّتكِ، أن تقرري كأفضل ما يبدو لكِ وترينه مناسباً.

ـ لكنْ، ما الأمر، يا ربي؟ تكلم دفعة واحدة يا تيودورو...

ـ إنه يتعلّق بالبيت... فهو معروض للبيع...

ـ أي بيت؟ هذا الذي نسكنه؟

ـ نعم. أنتِ تدرين أني كنت قد جمعت النقود لنشتري هذا البيت حسب ما كانت رغبتكِ. لكنْ حينما كنا سننهي الصفقة، وكل شيء على أتم وجه...

ـ أعلم... الصيدلية...

ـ... ظهرت فرصة سانحة في الحصول على حصة أخرى من الصيدلية، الحصة التي تتيح لي أغلبية الحصص بالضبط، ضامنة لنا ملكية الصيدلية... وما كان بوسعي التردد...

ـ لقد فعلت حسناً، تصرّفت بالصورة الصحيحة، وما الذي قلته أنا لك؟ «يبقى البيت إلى ما بعد»، أليس كذلك؟

ـ الذي حدث الآن يا عزيزتي، هو أن البيت عُرض للبيع وبثمن بخس...

ـ عُرض للبيع؟ لكنْ الأفضلية كانت لنا...

ـ كانت، نعم...

فصّل الموضوع: المالك تورّط في مزرعة في كونكيستا، وصمم على تربية قطيع من الماشية، دافعاً مالاً وفيراً على العجول والبقرات، ودخل في مضاربة. هل كانت الدونا فلور تعلم ما هي المضاربة؟ حسناً، في هذه المضاربة سيذهب ايضاً البيت الذي تحلم به ملكاً لها... فالمالك وضعه برسم البيع وبمبلغ متدن. وبالنسبة إلى الأفضلية، حسب قوله، فإن المستأجرة القديمة والممتازة، تخسر أي حق في الادعاء بعدما تنحّت عن الشراء، وقد أُغلق ملف الصفقة في دائرة السجل العقاري. ليس بوسعه البقاء منتظراً انتهاء الدكتور تيودورو من الاستيلاء على جميع حصص ورثة الصيدلية، لكي يفكر آنئذٍ في البيت. كان ينوي بيعه في

الحال. ماذا يساوي العقار ذو الإيجار الباعث على الضحك، حيث آل مادوريرا يعيشون بالمجان تقريباً؟ العمل الجيد كان في تربية الثيران، الثور المقاوم، ذلك الذي هو من لحم يساوي مالاً كثيراً. وإذا تورّط في المزرعة، سلم أمر بيع البيت إلى قسم العقارات في مصرف صديقه سيليستينو. ولن يعدم مرشحين للشراء بالتأكيد، إزاء الثمن المغري.

كيف علم الدكتور تيودور كل ذلك؟ إنه لأمر بسيط جداً: أخبره سيليستينو بأمره، في المركز الرئيسي للمصرف. استدعى الصيدلي بالهاتف، «دع هذه العقاقير وتعال على وجه السرعة»، وعرض عليه الموقف، منتهياً بسؤاله: لماذا لا تقوم يا تيودورو بجهد وتشتري البيت؟ صفقة ممتازة، مستحيل عقد صفقة أفضل، فالمجنون يقدّم العقار عملياً مقابل لا شيء، اللازم لحصة من العجول، في تلك العملية الحمقاء.

ـ حين تتوقف المضاربة عن الجري، فإن أناساً طيّبين كثيرين يا معلّم تيودورو سيخسرون... من هنا من المصرف لن يخرج أي فينتين من أجل هذه المضاربة... إشترِ البيت يا عزيزي، ولا تناقش.

لدى البرتغالي الحق في ما يقول حول البيت والمضاربة، والدكتور بدوره كان مرتاباً من تلك العملية المجنونة في اقتناء عجول وبقرات وثيران. لكنْ من أين يتدبّر رأس مال إذا كان قد أنفق منذ فترة قصيرة جميع توفيراته في حيازة حصة في الصيدلية وأخذ نقوداً من المصرف مقترضاً من سيليستينو بالذات سندات ذات مهل محددة؟.

المصرفي اعتبر الصيدلي نمطاً شريفاً من الناس، زاخراً بالاستقامة، غير قادر على إلحاق الإساءة بأي كان. ما كان رجلاً ليقترف المجازفة في عملية مصرفية من دون أن يكون له تأكيد بالتغطية المطلقة ـ الدكتور تيودورو لم يقامر أبداً. ابتسم سيلستينو: كيف أن الحياة مفاجئة! فالدونا فلور، الوديعة ذات الحضور الحيّ والمزاج الذي لا يمكن التغلّب عليه، تزوّجت من الرجلين الأكثر تضاداً، أحدهما نقيض الآخر. تخيّل نفسه مقدّماً نقوداً على سبيل القرض لفادينيو، مثلما يفعل الآن الصيدلي. اليدان المتوترتان للفتى وهما يتناولان قلم الحبر ويوقّعان أي ورقة توضع أمامه، ما دامت مثل هذه التواقيع ستدرّ عليه بعض الأوراق النقدية من فئة الألف ريس في الروليت.

ـ تدبّر قليلاً من المال لتكملة الثمن المطلوب وأنا أضمن لك الباقي على رهن البيت ذاته. أنظر...

أخذ قلم الرصاص وأجرى حسابات. ليحصل الدكتور على بعض الكونتوات[١] من الريس، ولن يقلق بشأن الباقي؛ رهنٌ على مهلة طويلة، فوائد منخفضة، جميع التسهيلات. إن ما اقترحه البرتغالي كان عملاً تجارياً من والد إلى ابنه: كان سيلستينو يعرف الدونا فلور منذ زواجها الأول، أكل من طعامها، ويكنّ لها تقديراً. وكان يقدّر أيضاً الدكتور تيودورو، الرجل الخيّر، ذا الشخصية المستقيمة. في خطابه القصير، لم يشر إلى فادينيو، في تقدير منه للزوج الثاني ولكون السافل ميتاً. لكنْه في تلك اللحظة تذكر وجهه الجانبي وقلّة حيائه، وهذه الذكرى جعلته يبتسم راضياً ويؤخر مهلة الرهن لستة شهور أخرى.

ـ أشكر لك تقدمتك، ولن أنسى كرمك يا صديقي النبيل، لكنني في هذه اللحظة لا أملك أي مال قيد التصرّف لكي أكمل رأس المال اللازم. وليست لديّ الوسيلة للحصول عليه أيضاً. وإنها لحسرة كبيرة، إذ إن فلوروبيديس ترغب كثيراً في حيازة البيت. لكنْ لا توجد وسيلة...

ـ فلوروبيديس... ـ همس سيليستينو، «اسم عبثي» ـ قل لي شيئاً أيها السيد الدكتور مادوريرا، هل أنت في البيت تدعو امرأتك فلوريبيديس؟

ـ في العلاقة الحميمة، كلا. أدعوها فلور مثل الجميع بالأحرى.

ـ حسناً... ـ حال دون توضيح الدكتور بحركة منه، فوقته كان وقتاً ثميناً كمصرفي ـ إذ إنه يا عزيزي، حسب ما أخبرت، لدى الدونا فلور أو الدونا فلوريبيديس مثلما تفضّل حضرتك، بعض التوفيرات المعقولة جداً في صندوق التوفير... أكثر من أن تكون كافية لتكملة المبلغ، مع الرهن، اللازم لشراء البيت...

لم يتذكر الدكتور نقود زوجته:

---

(١) CONTO: ورقة نقدية تساوي مائة ألف ريس.

ـ لكنْ هذا المال مالها، ثمرة عملها، ولن ألمسه أبداً، فهو مال مقدّس...

قاس المصرفي مرّة أخرى الصيدلي في مقعده أمامه؛ كان فادينيو يأخذ نيكلات امرأته ليقامر بها، وأحياناً ينتزعها منها بالقوة، في وحشية. حتى أنه كان يضربها، كما نُمي إليه.

ـ مشاعر جميلة يا دكتوري، خليقة بالبلادة التي تتحلّى بها... ـ كان البرتغالي يستاء كثيراً من الخشونة الإجمالية ـ حمار هو أنت، حمار مثل أي مواطن من هؤلاء الذين يحملون بيانو ويكسرون الحجارة في الشارع... قل لي إذن: في ماذا يفيد مال الدونا فلور هذا الموضوع في دفتر الصندوق؟ فهي ترغب في أن يكون لها بيتها الخاص، والفارس[1] هنا من أجل الاحتفاظ ببعض المحاذير الشبيهة بالغائط، بالغائط ـ أجل ـ أجل ـ يترك فرصة وحيدة تفلت منه... ألستما متزوجين مع التزام المشاركة في الممتلكات؟

ابتلع الدكتور تيودورو بجرعة ناشفة بلا ماء، الخشونـة، الحمار والغائط، فقد كان يعرف البرتغالي وهو مدين له بفضائل فوق كل شيء.

ـ لا أدري كيف أتكلم معها...

ـ لا تدري ماذا؟ إذن، اغتنم ساعة السرير إذ إنها الأفضل لمناقشة الأعمال مع الزوجة يا عزيزي. فأنا لا أناقش هذه المواضيع مع السيدة[2] إلاّ حينما نكون نحن الاثنان راقدين، وأكون دائماً على ما يرام. إسمع، إني أمنحك مهلة أربع وعشرين ساعة. وإذا لم تأتِ غداً في نفس الوقت، سآمر ببيع البيت لمن يعطي أكثر... والآن، دعني أعمل...

ليس في السرير، لكنْ على المائدة، مع أولى ظلال الليل، أمام أقراص التابيوكا البيضاء المبللة بحليب[3] جوز الهند، روى الدكتور تيودورو حديث المصرفي للدونا فلور، مقلّداً إياه في الكلمات النابية والفظاظة:

ـ ما كنت لأرغب في أن تعبثي بهذا المال الموجود في الصندوق...

---

(١) CAVALHEIRO : الرجل الشهم الذي يتحلى بأخلاق فرسان العصور الوسطى.

(٢) PATROA : المعلمة أو ربة المنزل وتعني الزوجة أيضاً، ورد ذكرها سابقاً.

(٣) المقصود: عصارة جوز الهند.

ـ وما أفعل به؟

ـ نفقاتك... الشخصية...

ـ أي نفقات يا تيودورو، إذا كنت أنت لا تدعني ادفع شيئاً؟ حتى المبلغ الشهري لأمي... إنك تدفع كل شيء وتغضب عندما أحتج أنا. وفي هذا الوقت كله، لم أفعل شيئاً إلاّ إيداع نقود في الدفتر، سحبت فقط مرّتين، شيئاً زهيداً، في مرّة، لشراء تفاهتين لك. لماذا الاحتفاظ بهذا المال بلا فائدة؟ إلاّ إذا كان لتابوتي، حين أموت...

ـ لا تتكلمي أشياء سخيفة يا عزيزتي... الحقيقة هي أنني، كزوج، أستوعب ما أنا ملزم به.

ـ ولمَ لا يكون لي الحق في المساهمة لشراء بيتنا؟ أم إنك لا تعتبرني رفيقتك في كل شيء؟ ترى هل أنفع فقط للترتيب والاعتناء بملابسك، أعدّ طعامك، وأذهب معك إلى السرير ـ كانت الدونا فلور مندفعة ـ خادم أو عشيقة؟

إزاء الانفجار غير المنتظر، أمسى الدكتور تيودورو فاقد القدرة على الكلام، وشيء ثقيل يرزح على صدره، يده تمسك بالشوكة قطعة من قرص التابيوكا. وأخفضت الدونا فلور صوتها، وفي تحسّر الآن:

ـ إلاّ إذا كنت لا تحبني، تحتقرني كثيراً بحيث أنك لا تريدني أن أساعدك في شراء بيتنا...

ربما في كل الوقت الذي مضى على زواجه، أكثر من سنة، لم يحدث ان تأثر الدكتور تيودورو بهذا الشكل البالغ، كما في ذلك العشاء. وهتف في خجل مباغت:

ـ أنتِ تعلمين جيداً أني أحبكِ يا فلور، وأنكِ حياتي. كيف تشككين؟ لا تكوني ظالمة.

وكانت ما تزال مهتاجة، فأعلنت:

ـ ألست امرأتك؟ زوجتك؟ حسناً إذاً، إذا لم تذهب غداً إلى المصرف، فإن من

سيذهب هو أنا وأغلق الصفقة مع السيد سيليستينو...

نهض الدكتور تيودورو، وقدم إليها وأخذها بذراعه الضاغطة، متيّماً. انكمشت الدونا فلور في صدر الدكتور العريض، هي أيضاً متيّمة. فجلسا على الأريكة المستطيلة، الدونا فلور في حضن زوجها، الوجه في مواجهة الوجه، في حنان شهواني تقريباً.

إنكِ الأجمل والأكثر استقامة، والأشد رصانة من بين الزوجات...

- الأجمل، لا يا عزيزي تيودورو... رمقته بعينيها الطافحتين بالطيبة والمبللتين بالسعادة.

- جميلة، كلا... لكنني أؤكد لك، آه! هذا أؤكده لك، أني رصينة، وأني امرأة مستقيمة.

وبعد أن قالت هذا، سعت بشفتيها إلى فم الدكتور وأخذته بفمها في قبلة حب؛ فزوجها الطيّب هو الوحيد الذي يستحق حنانها ونشوة جسدها.

خيّم الليل كلياً على القاعة وفي منتصف عتمتها رمق فادينيو المشهد. ثم وضع يده على جبينه، قلقاً، وأدار ظهره، وخرج إلى الشارع.

٦

بدءاً من ذلك الحديث بين الدونا فلور والدكتور تيودورو، شرعت الأحداث تترسّب في إيقاع يغدو في كل مرّة أشد خفّة وإرباكاً.

حدثت آنئذٍ في المدينة تلك الأمور القادرة على إرعاب (وأرعبت) حتى المخلوقات الأكثر إلفة مع المعجزة والسحر، مثل الراجة بالغيب آسباسيا الحديثة الوصول كل صباح من الشرق، موطنها الحقيقي، إلى بورتاس دو كارمو، حيث كانت «وحيدة في استخدام نظام العلم الروحاني في الحركة»؛ مثل الوسيط[1] المشهور جوزيتي ماركوس («ظواهر السيالات[2] والإيكتوبلاسما»[3]) حيث الحميمية فوق كل هذا معروفة بشكل مستفيض: مثل رئيس الملائكة القديس[4] ميغيل دو كارفاليو، في خيمته الخاصة بالمعجزات في بيكو دو كالافاتي؛ مثل الدكتورة نايير ساكان «الحائزة على دبلوم من جامعة جوبيتر»، في شفاء جميع الأمراض بالخطوات المغنطة في شارع كينزي ميستيريوس؛ مثل مدام ديبوراه، من ميرانتي دوس أفليتوس، الحائزة على أسرار رهبان التيبت في حبَل متواصل ناتج عن الملجأ الروحي مع بوذا الحي، وحسب قولها هي بالذات «إظهارٌ سامٍ للمستقبل قادر بمعطياتها على

---

(١) الرجل أو المرأة الذي يجري الساحر أعماله السحرية من خلاله.

(٢) LEVITAÇAO: قدرة الروح على النهوض والتقمص في أجساد أخرى، حسب المعتقد الروحاني.

(٣) ECTOPLASMA: معتقد روحاني يقول بانتقال الروح إلى الوسيط.

(٤) SANTO: القديس، لكنها تعني أيضاً الكاهن ـ الساحر في معتقدات الزنوج البرازيليين الوثنية التي يخالطها السحر.

التنبؤ بـالـرؤيـة المسبقـة وضمان زيجات ثـريّـة بمهلـة قصيرة وإظهـار الأرقـام الرابحة في اليانصيب »، من دون الكلام عن تيوبالدو أمير بغداد، وقد صار هرماً خرفاً.

ولم ترتعب فقط هذه الفعاليات. فقد بلغ الذهول حتى أولئك الحميمين لغموض باهيّا، أولئك الذين رعوه وحافظوا عليه، وكانوا يودعون عنده ودائعهم عبر الزمن؛ أمهات وآباء الكهنة ـ السحرة؛ يالوريشا [1]، بابالوريشا [2]، بـابـالـو [3] وأيـاكيكيري [4]، أوبـان [5] وأوغان [6]. حتى ولا الأم الربة ذاتها، الجالسة على عرشها في آشيه دو أوبو أفونجان [7]، ولا مينينينيا دو كانتويس، في بلاطها في آشيه يامازيه [8]، ولا العمّة ماسي دا كازا برانكا، في آشيه إيان ناسو [9] المحترم، ولا هي بالذات مع المعرفة المستقاة من مائة وثلاث سنوات من العمر، ولا أولغا ده يانسا الراقصة برشاقـة في التيريـرو [10] الخاص بها في آلا كيكـو، ولا نيزينيا ده إيوان، ولا سيمبليسيا ده أوشوماريه، ولا سينيا ده أوشوصي، إبنة التمديس من أبيها المتوفى بروكوبيو دو إيلليه أوغونجان، ولا جوانجيزينيو دو كابوكلو بيدرا بريتا، ولا إيميليانو دو بوغوم، ولا ماريبتا ده تيمبو، ولا كابوكلو [11] نيفـي بـرانكـو دا آلميـدا ده زومينو رينازارو غانغاجتي، ولا لويس دا موريسكوكا، ولا أي واحد منهم استطاع السيطرة على الموقف وتفسيره بشكل مرضٍ.

لقد رأوا حرب القديسين تضطرم، في منعطفات الدروب، في ليالي الماكومبا، في أماكن التيريرو وفي اتساع السموات، في أعمال السحر من دون سوابق، أعمال سحر لم تُر أبداً، أعمال سحر تحمل الموت، شيئاً قبيحاً وسحراً في كلّ زاوية. آلهة الأوريشا غاضبة، كلها مجتمعة في جانب واحد بالذات، متكاملة في أنواعها وأممها، وفي الجانب الآخر، الإلـه إيشو يدعم بمفرده ذلك الرب إيغون المتمرّد، الذي لم يقدّم إليه أحد ملابس ملوّنة ولا دماء الديوك والبقر، ولا ثوراً بأكمله، حتى ولا رداء من آنغولا، فيرتدي ملابس الرغبة مع الذهب الزائف للهيام الذي لا يموت وفي تضحية كان يرغب فيها فقط بضحك وعسل

(١ ـ٦) أسماء آلهة في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.

(٧ ـ ٩) أسماء ساحرات مع أمكنة يقطنها الزنوج البرازيليين.

(١٠) TERREIRO: مكان تمارس فيه عبادة وثنية يقوم بها الزنوج البرازيليون مع طقوس يتخللها السحر مثل الماكومبا والكاندومبليه وغيرهما.

(١١) في الأصل CABOCLO: الهجين من اب زنجي وآم هندية.

الدونا فلور وحدهما.

حتى ولا الربّة يانسا (إيباهيه) التي تطرد الأرواح، والتي لا تخشى آلهة الإيغون وتواجهها، التي تأمر الأموات، المحاربة ذات الزعيق الذي ينضج الثمار ويدمّر جيوشاً، حتى ولا هي تمكنت من فرض جبروتها وجسارتها، فذلك الكاهن ـ الساحر التابع للرب إيشو أخذ منها سيفها. كل شيء بشكل مناقض، كل شيء بالمقلوب، كان ذلك زمن التناقض، زمن منتصف النهار في الليل، الشمس في الفجر.

الآلهة التابعة ليالوريشا وبابالوريشا سجدت في ساعة اداء الطقوس، فبدءاً من لحظة معيّنة لم تشأ التدخل بعد، فيكفي الآلهة الفرحة أن تعثر على القرار في نار العراك. بابالو ديدي وحده فقط، لأن آسوبا ده أومولو، ساحر إيفان، حارس بيت أوسايين، وفوق كل هذا لكونه أخذ مركز كوريكوي أولوكوتوم في تيريرو الإله إيغون في آموريرا، حاول مرّة أخرى أن يلفّ نفسه بقش موكان فيما الإيغون مستيقظ من نعاسه بواسطة الحب. فطلب منه تحقيق-رجاء ديونيزيا ده أوشوصي لكنّ ذلك ذهب عبثاً كما لو أنه يرى ما سوف يأتي.

لا يقال إن كاردوزو وإس أ [1] قد ارتعب، فليس هو المواطن الذي يرتعب ولا تعتريه المخاوف والاندهاشات اليسيرة. لكنه عانى انفعالاً، آه! هذا ما عانى منه، فليس ثمة أفضل من إخفاء الواقع والقول إن المعلم كاردوزو وإس أ بوغت كلياً وهو ما قيل بشكل قطعي وأعطى الخارق للمألوف معياراً بحاجة إلى معيار، حيال جو المدينة العبثي. حدث في تلك الأيام أن هاجم الشعب، في صحوته وغضبه، مركز الاحتكار الأجنبي للطاقة الكهربائية، مصرّاً على تأميم المناجم والنفط، وجعل الشرطة تركن إلى الفرار وأنشد المارسيلياز [2] من دون أن يعرف الفرنسية. كل هذا كانت بدايته في تلك المناسبة.

لم تعر الدونا فلور انتباهاً فورياً للوضع، خلافاً لبيلانتشي مولاس، الذي أدرك من خلال دمه الكالابري [3] الأمر وبعد ذلك على الفور وجّه حاسته واتجاهه إلى الإنجازات

(١) حرفان يختصران اسمي عائلتي الأب والأم.
(٢) النشيد القومي الفرنسي، نشيد الثورة الفرنسية.
(٣) نسبة إلى منطقة كالابريا في إيطاليا.

الحاصلة في تلك الليلة ذاتها في لعبة الإياسكينيه. فإن بضعة أيام كانت كافية لإقناع بيلانتشي. لقد ارتعب ـ أجل، ارتعب هذا الرجل الذي لا يخاف والعديم التأثر الحميمي، قاطع الطريق هذا القادم من كالابريا[1]، رجل العصابات[2] العصري[3] هذا على طريقة شيكاغـو، هذا المقامر الصعب ـ كان يبعث بسائق سيارته آوريليو، وهو يتمتع بثقته الكاملة، إلى تيريرو الأم أوتافيا كيسيمبي، من أتباع يالوريشا وهي من أمّة الكونغو، وذهب هو نفسه يبحث عن الفيلسوف المتصوّف والمنجّم كاردوزو وإس أ، وهما الكائنان الوحيدان القادران على إفادته في مثل هذه الحالة الطارئة المرعبة، فينقذان المملكة والجلالة.

جلالة ومملكة، إذ إن بيلانتشي مولاس كان عاهلاً على أقوى الاحتكارات في باهيّا، ملكاً للقمار والأعمال غير المشروعة، مموّلاً بشكـل غير شرعـي الروليـت، لعبـة الأرنـب الفرنسية، الباكارا، الإياسكينيه في بالاس، في التاباريس، في آباشادينيو، في البيوت الكبيرة والبيوت الصغيرة حيث مديرو أعماله يبقون يقظين إلى المعطيات والورق، إلى مديري الألعاب ورؤساء القاعات ويجلبون إليه حصيلة يومية وسمينة من الدورة، من لعبة الواحد والعشرين، من لعبة السبعة والنصف. وبيوت نادرة جدا أُنقذت من سلطته، بيت واحد أو آخر فقط؛ الدوقيات الثلاث، مينينجيتي، كهف باراناغوا فينتـورا. وفـوق جميـع البيـوت الأخرى كان يبسط المخالب الشرهة والمقـوسّـة (وتعتني بها جيـداً مقلّمـة الأظـافـر[4] الخصوصية الخلاسية الصغيرة التي صنعها الهرم باريروس أبو المحامي تيبورسيو ذاك، وهو اختصاصي في هذا الأمر؛ فقد صاغ سبعاً وثلاثين خلاسية في أمهات مختلفات وكل منهن رائعة وفاتنة.

هل هي الامبراطوريـة الواسعـة غير الشرعيـة (في المظهـر) لقمار البيشـو[5]؟ وحـده

---

(١) إحدى مقاطعات إيطاليا. ورد ذكرها سابقاً.

(٢) GANGSTER، في الأصل كلمة انكليزية.

(٣) MODERN

(٤) MANICURA: التي تقلم الأظافر وتطليها بالمانيكور.

(٥) JO GO DE BICHO: مقامرة تعتمد المراهنة على أسماء الحيوانات في لوحة تحمل صورها، شائعة في البرازيل.

بيلانتشي كان مسموحاً له أن ينشيء بضمانة الشرطة، وإذا استبدت بأحد ما من فاقدي الوعي الوقاحة فقام بمنافسته، فعلى الفور تمارس السلطات الضابطة دورها على الهامشي التعس، بالقسوة الصارمة.

لم يوجد في كل ولاية باهيّا رجل أكثر منه سلطاناً، مدنياً أو عسكرياً، أسقفاً أو كاهناً ـ ساحراً. فقد كان بيلانتشي مولاس يأمر ويبطل أوامر.

إنه مدير، حاكم على أشد الإمبراطوريات تعقيداً والأكثر ثراءً، إمبراطورية القمار، على رأس جيش من التابعين، معلّمي القاعات، مديري الألعاب، المفتشين المصرفيين، اللاعبين لحساب البيت [1] صاحب اللعبة، القوّادين، الجواسيس، رجال التحريات في الشرطة وحرسه الخاص، كان البابا لطائفة دينية لها ألوف المؤمنين الخاضعين، العبيد المتعصبين. بإكرامياته [2] كان يدعم ويثري شخصيات لامعة في الإدارة الرسمية، وفي الوسط الثقافي وفي القطاع العام، بدءاً من رئيس الشرطة، مساهماً بأعمال الخير ومموّلاً بناء الكنائس.

ماذا كان يساوي أمامه كلّ من الحاكم، المحافظ، آمري القوى البرّية، الجويّة أو الغواصات، المطران بتاجه وخاتمه؟ لم توجد سلطة في الأرض قادرة على إصابة بيلانتشي بالخوف، الإيطالي الهرم ذي الشعر الأبيض، والضحكة البشوش والعينين القاسيتين، الصارمتين تقريباً، وهو يدخّن لفافة أزلية بفم [3] من العاج، يقرأ فرجيليو [4] ودانتي [5]، إذ أنه علاوة على القمار، كان لا يحب إلا الشعر والخلاسيات بالذات.

---

(١) FAROL: شخص يرتاد أندية القمار كزبون ويلعب لحساب النادي.
(٢) PROPINA: حلوان، بقشيش في العامية.
(٣) PITEIRA: أنبوب يضع المدخن في فوهته السفلى اللفافة، «بز» في العامية.
(٤) من الشعراء الرومان، نظم شعره باللاتينية.
(٥) أهم شعراء إيطاليا في العصر الوسيط، أول من نظم بالإيطالية.

٧

كان الزنجي آريغوف يسير مسحوقاً، منحوساً وهذا كان أكثر من اللازم. فقد التزم ركنه منذ شهر تقريباً، حينما هبط وهو مفلس سلالم المنزل ذي الطبقتين حيث تقبع حجرته كشخص عازب، ورفس الصرّة التي فيها السحر. لحية رجل من الماندينغا [١]، شيء مُعَدّ له وُضع في طريقه لتأخير مسار حياته. مـزّق الورقـة، ونثر الفـاروفـا [٢] الصفـراء، الريش الأسود للدجاجة، الأوراق الطقوسية، قطعتين نقديتين من النحاس، وقطعة من ربطة عنقه مازالت جديدة، من النسيج المسرود. لقد زوّدته ربطة العنق بالأثر الصحيح؛ الانتقام من زايبرا، الهجينة عديمة القلب، غير القادرة على المعاناة من تصرّف خارق للمألوف من دون أن تعطي مقابلاً.

ذات ليلة، افتقد آريغوف الهدوء والأناقة اللتين يتمتع بهما كشخص نبيل، وصفعهـا صفعتين في التاباريس، لكي تألف هي تصرّفات الناس، ولا تعود وتفقده صبره. كانت زايبرا من أمّة الموسورومين، لكنها تمارس السحر كواحدة من الكابوكلو [٣] والأنغولا [٤]

---

(١) جنس من الزنوج ذوي أصول حبشية ـ بربرية قدم أجدادهم إلى البرازيل كعبيد وهم مشهورون بأعمال السحر.

(٢) مسحوق المندبوكا (ورد ذكرها سابقاً).

(٣) CABOCLO: في الأصل الهجين من أب أسود وأم هندية والعكس، صفة تطلق على فلاحي السرتون شبه الأرقاء.

(٤) نسبة إلى أنغولا في أفريقيا.

ولديها قدرات إلى جانب الانكيسي[1].

إنه سحرٌ من أشد الأنواع قوة، مقامرة عنيفة، مَنْ أعدّ لزايبرا عملاً سحرياً مميتاً بهذا القدر؟ بالتأكيد أحد ما يفهم في الكتابة، جيد في الأوراق وقوي في الشر. لم توجد تعويذة أشد من هذه الوسيلة، فعمل السحر حبس حظ الزنجي في قعر بئر وهو يجرجر نفسه متسولاً في بيوت القمار، خاسراً في جميعها. فقد وضع في الثقب[2] أفضل ممتلكاته؛ الخاتم الكبير من الفضّة الحقيقية، السلسلة الذهبية مع الأصبع ـ الرقية[3] المستوردة من غينيا، وقرن صغير من العاج، والساعة التي حصل عليها من بحّار أشقر من إحدى البواخر، ربما هي مسروقة من قمرة مليونير، جد جميلة وقوية بحيث أن الإسباني من «سيتي»، مع كل معرفته بالمجوهرات، صفّر من الانفعال عند رؤيتها، عارضاً عليه أكثر من خمسمائة ألف ريس إذا باعها الزنجي له بدل أن يرهنها.

زايبرا، الزنجية المنتمية إلى الماندينغا، المولودة في أعمال السحر، جعلت حظه جافاً. وآريغوف القلق، تساءل أين هي بقية ربطة عنقه المصنوعة من النسيج المسرد؟ بالتأكيد مربوطة بقدم كابوكلو أو قدم أحد الإنكيسي، إلى جانب صورته، تلك الصغيرة، المعدّة لبطاقة الهوية؛ الزنجي يبدو فيها مبتسماً مظهرا السن الذهبية. فلقد قدّمها آريغوف لها برهاناً على الحب الذي يكنّه للهجينة العديمة القلب ويتخيّل الآن وجهه المثقوب بالدبابيس في المخبأ الذي يعتمده الكاهن ـ الساحر في الغابة، من أجل أن يتفاعل السحر كل صباح ويطفىء بضربة وإلى الأبد نجمته الحسنة[4].

لقد استحمّ بالأوراق وصلّت من أجله إيبيتانيا ده إيغون. وكان على إيّامورو أن تعيد جمع الأوراق ثلاث مرّات، إذ كانت تسقط ذابلة حالما تلمس الجسد ذا الحمل الكبير جداً من الشرّ في آريغوف الشبيه بالخنزير.

---

(١) إحدى قبائل الزنوج الأفارقة البرازيليين، فئة تتعاطى أعمال السحر.

(٢) المقصود: أضاع أو خسر.

(٣) FIGA: أداة من المعدن على شكل الأصبع الباهم بين الاصبع السبابة والاصبع الوسطى، تستخدم كرقية ضد السحر وللوقاية من الأمراض والحظ السيء.

(٤) المقصود: حظه السعيد.

في انسحاقه الباعث على الشقاء الشديد، مضى الزنجي في شارع تشيلي مفكراً في مرارات الحياة. فقد قدم من المطعم وكانت وجهته الفورية بيت تيريزا. فقد أخذه فالـدوميرو لينس إلى العشاء بعد المساء المنكوب، في كهف زيزيه دا مينينجيتي، حيث خسر الزنجي آخر نيكلاته. وآريغوف الزاخر بالغضب، أكل دفعة واحدة الغداء، العشاء ووجبة الليل [١].

ـ إنك جائع إلى حد التضوّر يا آريغوف، ماذا بك؟ ـ سأله الآخر إزاء هذه الشهيّة المفرطة.

أجاب الزنجي بتشاؤم حاسم:

ـ لست أعلم إذا عدت وأكلت بعد الآن...

ـ هل أنت مريض؟

ـ من النحس يا أخي الصغير. فقد أوثقوا حظي بقدميْ شخص راضٍ بهذا، قدميْ كابوكلو، إذا لم يكن تابعاً لأوريشا آنغولا، فإن ذلك الشخص الشرير هو من أناس الإينكيسي. إني مستَهْدَف أيها الشقيق.

أخبره بالنحس الذي يعانيه، تذوب هواجس أكيدة، ولا يصيب أيّ منها. يراهن على المكعّبات [٢] أو على الورق [٣]، وفي مائدة الروليت، فيخسر دائماً. وقد بدأ مشاركوه في اللعب ينظرون إليه بطرف أعينهم، كما لو أنه تحوّل إلى نحس:

ـ إن نحسي يقيّدني يا شقيقي الصغير...

الرواية زاخرة بالتفاصيل، في الأمل بأن ينجده فالدوميرو لينس، وهو شاب ذو إمكانات ورفيق مرح، من الحرج، قارضاً إيّاه بعض المبالغ للعب الليل. وأخفق المسعى إذ بدلاً من المال، خدمه الصديق بتقديم النصائح إليه: لا توجد إلاّ وسيلة واحدة للفرار من

---

(١) CEIA، وجبة الليل، غير العشاء، بين العاشرة ومنتصف الليل وهي ليست وجبة رئيسية كالعشاء.

(٢) DADO: قطع مكعبة من العظم أو العاج تستخدم في ألعاب القمار.

(٣) المقصود: ورق اللعب.

نحس جد أسود كهذا، هو في الهرب من القمار لبعض الوقت. أن يترك جزر الحظ العاثر يمضي، فيميّز قوة الإيبو[1]، إذا لم يكن مجنوناً. وإذا عاند، فلسوف ينتهي به الأمر أن يغدو مفلساً، فيرهن سراويله الداخليــة. فهــو، فــالــدوميرو لينس، تعلّـم أن يحترم الحظ والنحس وحملته واقعة معيّنة إلى أن يبقى أكثر من ثلاثة أشهر من دون أن يرى ورق لعب، مكعّبات أو مائدة الروليت.

وفي ارتقائه شارع تشيلي، استصوب آريغوف رأي صديقه؛ فالعناد لن يغدو أكثر من حماقة خالصة، عناد رجل مخبول، والأفضل زيارة تيريزا دا جيوغرافيا، وهي بيضاء مشتهاة من قبل زنجي قوي، وكان ذلك دافع تلك الصفعات التي وجهها إلى زايبرا. في بيت تيريزا، وهو مضطجع على السرير إلى جانب البيضاء، يجرع على مهل عرقاً مع ليمون حامض، بوسعه نسيان هزائم كثيرة، وأن يريح نحسه على السجادة. نعم، ففي هذه المرّة هُزم الزنجي آريغوف، ولم يبق له إلاّ الفرار المجلل بالعار. إن فالدوميرو لينس لمصيب، وهو رجل مجرّب يسدي النصيحة الحسنة.

مع أنه مستعد لأخذ طريقه في الجغرافيا المتحللة لتيريزا، فما كان آريغوف راضياً كلياً. فما كان من عادته ولا من دواعي سروره الفرار من معركة حتى ولو كان قانطاً، مهزوماً بالإدراك المسبق. تذكر فالدوميرو الآخر، صديقه المثالي والذي لا يمكن لأحد أن يخلفه؛ فادينيو ميت لسوء الحظ، وكان فعّالاً وجسوراً، لا يضاهى في مادة القمار وبشكل عام. هو، أجل، كان بوسعه أن يكون مفيداً لو كان حيّاً.

فمن سنين كثيرة، في ليلة إثر أسابيع من النحس العبثي، حينما بات بلا فينتين ومن دون أن يكون له مورد للحصول عليه، دخل آريغوف إلى التاباريس وتحادث مع فادينيو، وهو متشامخ في السموْ والفيشات، يراهن بأرقام مرتفعة. فأخذ منه الزنجي فيشاً وكنموذج على الفوز، كسب ستة وتسعين كونتو في بضع دقائق، ولم يُر من قبل أبداً أمر مشابه. كانت ليلة هذيان؛ أمر آريغوف بتفصيل نصف دزينة من البذلات دفعة واحدة، قاذفاً مبالغ بخمسمائة بوجه الخيّاط. ليلة خيالية زاخرة بالقصف الشديد في شقة كارلا، دفع هو التكاليف جميعها، إنها ليلة أسطورية في ذاكرة القمار في باهيا.

---

(١) EBO: أحد الآلهة السحرة في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين، مثل أوريشا ORIXA وغيره.

يا له من شخص طريف، تذكر فادينيو في نبرته المتشامخة وما كان يبدو له أنه يسمع بجلاء ذلك الصوت المشحون بالسفاهة.

إذن، أيها الزنجي الفار، أين دسست أقدامك؟ في مؤخرة البيضاء؟ إن من لا يتعقب الحظ لا يستحق الكسب، وأنت تعلم هذا. منذ متى أنت تلميذ فالـدوميرو لينس؟ ألم تكـن أنت أستاذاً حينما قدم هو ليلعب القمار للمرّة الأولى؟

حدا الأمر بآريغوف أن توقف في منتصف شارع تشيلي، كشخص أبله، كم بدا له صوت فادينيو شديد الحيوية وقريباً في سمعه. وإذا وُلد القمر من البحر، شرع يغطي بالذهب والفضة مدينة باهيّا.

ـ دع عظام البيضاء إلى ما بعد، أيها الزنجي الجبان، إنك خائف من السحر، إذن فأنت لست ابن شانغو؟ دع البيضاء إلى ما بعد أن تشطر النحس في منتصفه، فالليلة ليلتك في الاحتفال.

فادينيو المشاغب، كانت لديه هواجسه الأكثر جنـونـاً، كـان متسـاويـاً في الحظ وفي النحس، نفس الابتسامة الماكرة والسليطة. من يدري، فكر آريغوف، أن يكون فادينيو في أعلى القمر ناظراً وهو يدير ظهره إلى النحس متجرّداً من السلسلة الذهبية، من الخاتم الفضي، من الساعة التي طمع بها الإسباني من «سيتي»؟

ـ أين شجاعتك أيّها الزنجي؟ أين آريغوف الفحل ثلاث مرّات؟

فالدوميرو لينس، الحذر والمقامر الرفيع المستوى، نصحه بألاّ يثابر ضد النحس وان ينكمش مختبئاً في سرير العشيقة المشرقة جداً والحكيمة جـداً؛ كـانـت تيريـزا تحفـظ في الذاكرة أنهار الصين، براكين الأنـدس[1]، قمم الجبال. عندما شاهدت الزنجي آريغوف هائلاً وعاريا، حيّت، وهي زاخرة كلياً بالـدلـع، في الوقـت نفسـه قمـة هيمالايـا ومحور الأرض، تيريزا قليلة الحياء! مع الشقاء الشديد ومع تيريزا التي تنتظره، وحده المجنون كان سيعود في تلك الليلة إلى لعب الورق.

---

(١) جبال بين الأرجنتين والتشيلي.

ـ إذهب فأنا أضمن لك أيها الزنجي الرخو... ـ صوت فادينيو في سمعه.

بحث آريغوف في ما حوله، إذ بلغ به الأمر أن يحسّ نفخة نفسه. كان كما لو أن صديق الماضي يأخذه بيده ويقوده إلى سلالم آباشادينيو القريب جداً.

ـ ما خفت من لعب الورق قط... ـ قال الزنجي.

كانت تيريزا تنتظره وهي تمضغ الشوكولاته مغلّفة بالبحيرات الكندية، في روافد الأمازون. وبلا أي توستون في الجيب، تسلل آريغوف إلى آباشادينيو، ومضى يعلّق نفسه أمام مائدة الإياسكينيه.

كان أنطونيو ديدينيو، مساعد مدير اللعبة، يعدّ مجموعات لست حزم من أوراق اللعب ليبدأ اللعب. والأشخاص حول المائدة كانوا من الخاسرين، ولم يعكسوا حماساً، فالحظ كله للبيت [1]. لم يكن ثمة ولا صديق واحد يستطيع آريغوف الحصول منه بالتدليس على فيش أو مال. أعلن أنطونيو ديدينيو حصيلة لعب بمائة كونتو وقلب ورقتين على المائدة: الداما والملك.

ـ في الداما... ـ سمع آريغوف أمر فادينيو.

لا أحد يقرضه حتى ولا خمسة آلاف ريس. كان هناك رجل أنيق، مزدهياً ببذلة بيضاء، وفي يده فيشات، ينم عن كونه معتادا على جو البيت، لكنه مجهول هناك، ربما هو من المنطقة الداخلية. سحب آريغوف من ربطة عنقه، الدبوس الملحوظ؛ مفتاح يخترق قلباً، هدية من تيريزا. إنما الذهب كان معدناً مطلياً بالذهب والأحجار اللامعة كانت زجاجاً بلا قيمة، هكذا حطّ من شأنها الإسباني من «سيتي»، رافضاً تقبّلها كرهن.

وإذ عرض الهدية، إتجه آريغوف إلى المثري ذي البذلة البيضاء:

ـ يا عزيزي المحترم، اقرضني فيشاً، أي فيش، واحتفظ بهذه الجوهرة كضمانة. ولسوف أدفع لك في الحال، إسمي آريغوف والجميع هنا يعرفونني.

---

(١) المقصود بالبيت مكان لعب القمار.

بسط له اللورد [١] فيشاً من ذات المائة:

ـ إحتفظ بدبوسك [٢]، وإذا ربحت إدفع لي وأرغب لك حظاً.

الفيش فوق الداما. وانتظر آريغوف بمفرده، حيث إن أحداً من الحلقة لم يشأ المجازفة، وسط فتور. حتى ولا الرجل ذو الرداء الأبيض، مفضلاً النظر إلى اللعب. قلب أنطونيو ديدينيو الورقة الأولى وكانت على الفور الداما [٣] جمع آريغوف الفيشات، وقلب ديدينيو ورقتين جديدتين، وبالمصادفة، تكررت الداما والملك. ومجدداً وضع آريغوف ماله بيديْ الداما.

سحب أنطونيو ديدينيو ورقة من المجموعة، ومصادفة كبرى بعد، فهذه الورقة الأولى كانت من جديد الداما. أوراق جديدة والمصادفة تتزايد، وباتت الآن جديرة بالملاحظة. فللمرّة الثالثة شوهدت على المائدة الداما والملك. وآريغوف ثابت على الداما وإلى جانبه راهن الرجل ذو الرداء الأبيض. ووصل الفضوليون الأوائل، سحب أنطونيو ديدينيو الورقة من المجموعة، وكأمر لا يمكن تصديقه، كانت الورقة الأولى وللمرّة الثالثة هي الداما. وعلامة الذهب ذكرته بتيريزا. وقالت إحدى البغايا وهي متوترة: «ربّاه!».

لم تكن متوترة لكونه قد كرر ثلاث مرّات الداما وحسب، إنما لأنها كانت دائماً الداما الورقة الأولى، إضافة إلى كونهم كرروا لثلاث مرّات فوق مائدة المراهنات دائماً ذات الورقتين: الداما والملك.

ليس ثلاث مرّات، لكنَّ اثنتيْ عشرة مرّة سقطت الداما والملك فوق المائدة واثنتيْ عشرة مرّة أسعفت الداما المدعو آريغوف وكانت دائماً الورقة الأولى التي تُقلب. ولم يعد الآن الرجل ذو الرداء الأبيض وحده، لكنَّ آخرين عديدين راهنوا على هاجس الزنجي الذي كان يضع ثلاث أوراق نقد من فئة الكونتو على كل مرحلة من اللعب، وهو الحد الأقصى المسموح به.

---

(١) هكذا في الأصل والمقصود الرجل الثري الذي يشبه اللورد.

(٢) BROCHE

(٣) DAMA: في ورق اللعب «البنت».

كان أنطونيو ديدينيو شاحباً شحوب الموت، والخوف في قلبه، فأعدّ من جديد مجموعة أوراق اللعب. وكان لولو مفتش القاعة، إلى جانب ديدينيو الآن ويتابع خلط الأوراق يقظاً. وحول المائدة نما جمع مهتاج. لقد أتى أناس من الباكارا والروليت.

عرض أنطونيو ديدينيو مجموعة أوراق اللعب على اللاعبين، ومنها سحب ورقتين؛ تزايد شحوبه وارتعدت يداه إذ أن الورقتين كانتا الداما والملك. وابتسم آريغوف. لقد كسر النحس وقطع دابر الإيبو ومضى يسعى إلى الحظ بيديه وبأسنانه وبذكرى فادينيو. فإذا وُجد عالم آخر، إذا بقي الأموات ها هنا وفوق، متسكعين في السماء أو في الفضاء، كما يقول أخصائيون في الموضوع، فإن فادينيو قد يكون مشاهداً من فوق القمر الذي يسيل ذهباً وفضّة فوق البحر والمنازل. وهو فخور بالتأكيد بإقدام صديقه آريغوف الزنجي الفحل، المنتصر على النحس والسحر.

لكنْ بطريقة ما، فادينيو كان موجوداً هنا في القاعة ذاتها، لصق آريغوف. ولكون الزنجي قد قرر، بعد أن أجرى حسابات عميقة ملتبسة، تغيير الورقة والمراهنة على الملك (كان محالاً أن تتكرر الداما بعد، من المستحيل كلياً) فسمع الصوت الغاضب لصديقه، في أمر قاسٍ:

ـ على الداما، أيها الزنجي ابن العاهرة.

وأودعت يد آريغوف، مستقلّة عن إرادته، كأنها تطيع قوة عليا، الفيشات الداما.

سحب أنطونيو ديدينيو مطبقاً أسنانه وعيناه مرتعبتان، الورقة الأولى: الداما. حركة عامة، هتافات، ضحكات متوترة وكان يأتي في كل مرّة أناس آخرون ليروا المستحيل.

جيلبيرتو كاشورون، مدير الوكر وهو بملامحه المرتابة ككلب يحرس القطيع، انتصب إلى جانب لولو، مستعدّاً لكشف القناع عن المكيدة (ليس بوسعها أن تكون شيئاً آخر إلاّ عملية غش وغش خشـن) وفي وجهه تكررت وبشكل عبثي مرّات عديدة، فحصيلة المائة كونتو انفجرت. كانت الداما المتحمسة والمرحة، دائماً هي الورقة الأولى. أين هي عملية

الغش، الخشنة أو الرفيعة، يا كاشورون[1]؟

التفت أنطونيو ديدينيو مغلوباً إلى المدير، منتظراً أوامره لكنْ كاشورون اكتفى بالتطلّع إليه بارتياب ولم يقل شيئاً. فأعدّ مساعد مدير اللعبة أوراق لعب جديدة متمهلاً، أمام نظر الجميع وبضيق شديد:

ـ حصيلة اللعبة مائة كونتو...

قلب ورقتين: داما وملك. كان ثمة صمت مثل صمت الموت والجميع الآن يريدون المراهنة على الداما. قدم أناس من الشارع ومن التاباريس، حيث وصل النبأ المذهل. ولم تدم حصيلة اللعبة طويلاً.

إزاء أمر من جيلبيرتو كاشورون، خرج لولو مندفعاً إلى الهاتف. وفي القاعة تحوّل المستحيل واقعاً مكرراً؛ الداما تتكرر ودائماً الأولى. قال رجل المصرف[2] بصوت مرتفع:

ـ إني منصرف وإلاّ سأصاب بشيء ما، فقلبي لن يقوى. أنا ألعب منذ أكثر من عشر سنوات في إيليوس وإيتابونا، في بيرانجي وفي آغوا بريتا. ولقد رأيت أعمال غش كثيرة، غشاً من جميع الأنواع، لكن مثل هذا ما رأيت قط. وأقول أكثر من ذلك: إني أرى ولا أصدق.

أراد آريغوف أن يدفع للرجل الفيش ويدعوه إلى وجبة الليل في بيت تيريزا، لكنه رفض.

ـ لينجني الله ويحفظني. إني أخاف السحر. وهذا لا يمكن أن يكون إلاّ من عمل السحر. فابق على فيشك، إذ إنني سأحصّل قيمة فيشاتي قبل أن تختفي أو تفقد الحياء.

عاد لولو ثانية ولم يلبث أن اجتمع إليه وإلى كاشورون الشخص الرصين الذي هو من

(١) الاسم CACHORAO يعني الكلب الكبير.
(٢) المقصود خزينة نادي القمار.

أصل زنجي، الطاعن في السن؛ ذو نظارتين، شديد الهدوء، إنه الأستاذ ماسيمو ساليس، وكيل أعمال بيلانتشي مولاس الرئيسي، ورجله المتمتع بثقته.

عند تلقيه المخابرة الهاتفية من لولو، رفض الرجل المهم أن يصدّق القصة التي ليس لها قدم ولا رأس[1] بالتأكيد عاد لولو إلى معاقرة الخمرة ويفعل ذلك الآن خلال أوقات العمل، في سوء تصرف لا يغتفر. الرأس الأشيب يرتاح في دفء ثدييْ زولميرا سيمونز ماغونديس، في حميمية عذبة، وكان بيلانتشي قد أرسل ماسيمو ساليس لكشف خفايا الخبر الغريب. والأصح هو أن كل ذلك لا يعدو كونه أكثر من سكر لولو:

ـ إذا كان سكراناً أيها الأستاذ، فلا تتردد، في عمل الخير: قطّعه إرباً في الحال، وأخبرني هاتفياً بالنتيجة...

ـ وما كاد وكيل الأعمال يحظى بالوقت المتاح للإلمام بالظاهرة وجدّية لولو المعتدلة حتى كانت حصيلة اللعبة ذات المائة كونتو تذهب في الهواء، بين أصابع آريغوف.

تطلّع أنطونيو ديدينيو، وهو يمسح العرق عن جبينه الذي لا يسري فيه الدم، إلى الثلاثي في مواجهته. كان لديه أبناء ليرعاهم وهو لا يصلح لوظيفة أخرى، أوّاه يا ربي! كان الثلاثة يرمقونه بأطراف أعينهم، وهمس الأستاذ: «تابع». كان ماسيمو ساليس بملابسه الزرقاء، ونظارتيه اللتين هما بلا إطارين، وخاتمه ذي فص الياقوت، يبدو أستاذاً جامعياً محترماً بشعره الجعدي الذي صار أبيض من الدراسة والمراقبات العلمية. إنه محب للشكليات ووقور بحيث أن الجميع كانوا ينادونه بالأستاذ، بمن فيهم بيلانتشي، كما لو أنه حقاً متخرّج في المخالفات، في الفيشات وأوراق اللعب. ففي هذا المقعد الجامعي كان في الواقع قمة، فعّالية كليّة، علماً ملحوظاً، دكتوراً ملائكياً.

أعدّ أنطونيو ديدينيو، ضحية القدر، مجموعة جديدة من ورق اللعب وتكرر كل شيء ككابوس. وكما قالت آميسينا (اسمها الجميل كان مشكلاً من آمي ده آميريكو، أبيها، مع سينا ده روزينا، أمها) وهي مومس تتعاطى قراءة «تقويم[2] الفكر» وغيره من المنابع

(١) المقصود: غير المعقولة.

(٢) ALMANQUE: روزنامة.

الإيكزوتيريكية[1]، وتعتني بـ « العلاقة المرتقبة لنهاية العالم ». وجّه ماسيموساليس بضعة أسئلة لكاشورون ولولو (الذي كان يزفر نفساً بريئاً)، وإذ ترك الوابل الغزير للدامات، توجه إلى الهاتف.

هنا السبب في ظهور بيلانتشي مولاس في القاعة، مع زولميرا. شقّوا ممراً ليمرّ وهكذا يرى بشكل جيد عن كثب ماله يذوب مع الإياسكينيه. وقد انفجرت حصيلة لعبة المائة كونتو في وجهه.

أبعد بيلانتشي مولاس أنطونيو ديدينيو، بإشارة منه كملك، وعلى مرأى من جميع الحضور أجرى فحصاً على مجموعة أوراق اللعب؛ أوراق الملك الإثنتا عشرة كانت مكدّسة في قعر العلبة، كانت هي الأوراق الأخيرة. الموظفون الثلاثة ـ ماسيمو، بوضعيته كدكتور، الكلب الحارس للقطيع جيلبيرتو ولولو مفتش القاعة ـ تبادلوا نظرة عليمة. وأنطونيو ديدينيو رأى نفسه بريئاً ومداناً. رمق بيلانتشي مولاس، وعيناه باردتان، زرقاوان من القسوة، مساعد مدير اللعبة أولاً والموظفين الثلاثة، وبعدها الجمهور حوله، وجوهاً شرهة ومشدودة العضلات، لاعبين في الحدود النهائية للعبث وأمام الجميع الزنجي آريغوف؛ جبل هيمالايا، ارتفاع هائل، محور العالم، في القول الفاهم لتيريزا، جغرافيا وزنوجة. كان آريغوف يبتسم وهو مغطى بالعرق والفيشات.

ابتسم أيضاً بيلانتشي مولاس لزولميرا، للقسم الخلفي من جسدها، وأعدّ هو نفسه مجموعة جديدة من ورق اللعب وأعلن حصيلة اللعبة كأنه ينشد قصيدة:

ـ حصيلة بمائتيْ كونتو.

حتى ولا لكونه هو بيلانتشي مولاس، سيّد القمار، سيّد الأنشوطة[2] والسكين القاطعة، صاحب الجلالة وكل ما يُعرف عنه، لم يساو شيئاً تكراره، حتى ولا لهذا غيّر الحظ الذي لم يعد حظاً، بل هو أعجوبة؛ فهناك جاءت ورقتا الملك والداما وحلّت الداما ورقة أولى.

---

(١) ESOTERICA: منهج فلسفي سري يحظر الاطلاع على مضمونه لغير التابعين.

(٢) BARAÇO: حبل يستعمل للشنق.

وعندما انفجرت[1] الحصيلة قبل أن تصل مجموعة أوراق اللعب إلى منتصفها، تفحّص بيلانتشي مولاس العلبة مع بقية أوراق اللعب؛ هناك في النهاية (« نهاية العالم... » كررت آميسينا، النبوءة) كانت معاً الأوراق الاثنتا عشرة للملك غير النافعة.

وإذ ترك أوراق اللعب، همس بيلانتشي مولاس بشيء ما وترجمه جيلبيرتو كاشورون بصوت عالٍ:

ـ يُعَلّق اللعب لهذا اليوم...

انسحب آريغوف بين تظاهرات من التعاطف، متبوعاً بـالمعجبين وببغـايـا ملتهبـات ومتشوقات للتعاطي الجنسي. استحصل على قيمة الفيشات وابتاع شامبانيا، وأخذ طريقه إلى بيت تيريزا البيضاء المثيرة لشبق زنجي ذي طاقة في الجغرافيا وفي لعب الداما. مضى الزنجي زاخراً بالخيلاء والاعتزاز؛ معه لا يستطيع كل من النحس ولا السحر، حتى ولا غضب الهجينة المنتمية إلى الموسوروين أن يفعل شيئاً.

استسلم بيلانتشي مولاس إلى التأمل. وكان لولو يهزّ يديه، وجيلبيرتو كاشورون يحسّ أنه غير قادر على الإيضاح، لكنه متوافق مع ماسيمو ساليس: كانت هناك عملية غش، قذارة، سفالة ضخمة. وأنطونيو ديدينيو الغارق في بحر من الدامات، احتفظ بالعقوبة. كان لازماً جلاء كل شيء، قال الأستاذ المهيب. وقلّص بيلانتشي مولاس كتفيه: إفعلوا اللازم، تحقيقات واستقصاءات، استدعوا الشرطة إذا لزم الأمر. بالنسبة إليه كان مرتاباً، وكان دمه الكالابري حسّاساً إزاء الغموض، الانبعاثات البعيدة.

وبدورهما كانا ثديا زوليرا سيمونز فاغونديس، البرونزيين والمخمليّين. فالسكرتيرة الأولى، السيدة الأولى[2]، الأثيرة لدى بيلانتشي مولاس، تلوّت على حين بغتة في ضحك وغنج:

---

(١) تعبير مستخدم في لعب القمار يعني: لم يبق شيء من حصيلة اللعبة.

(٢) PRIMA-DONA في الاصل: المطربة الأولى في الأوبرا.

ـ شيء ما في صدري، أوّاه يا بيكيتو، يوجد شيء ما يدغدغني، أوّاه، يا له من أمر شديد الخبل... حتى لكأنه يبدو شبحاً...

رسم بيلانتشي مولاس علامة الصليب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨

كانت تلك أياماً مضطربة، ذات تراكض مرتبك وإرهاق، أيام انفعالات. الدكتور تيودورو والدونا فلور في ارتباك، ومن جانب إلى آخر، من المصرف إلى دائرة السجل العقاري، ومن دائرة السجل العقاري إلى مكاتب مختلفة في البلدية. هي وجدت نفسها مضطـرة لتعليق الدورس حتى نهاية الأسبوع، وهو لم يظهر تقريباً في الصيدلية. لقد أنذر سيليستينو الدونا فلور، بصراحته البرتغالية الاعتيادية:

ـ إذا أردتِ حقاً شراء البيـت، دعـي لبضعـة أيـام هـذه القـذارة، الدروس. وإلاّ فوداعاً...

لقد ظهر مرشح آخر، ولولا رغبة المصرفي الطيّبة لخسرا، مرّة أخرى، الفرصة في تحقيق الصفقة. وأيضاً كانٰ كل شيء الآن عملياً، منتهياً، ولا يبقى إلاّ توقيع المستند النهائي؛ فالدائرة العقارية ستتأخر بضعة أيام لتجهيزه. لكنَّ العربون قد دُفع للمالك القديم ولهذا استخدما مال دفتر صندوق التوفير، توفيرات الدونا فلور.

جابت الدونا فلور، وهي متأبطة ذراع زوجها، مدعومة بقوته ومعرفته، نصف باهيّا في نهاية ذلك الأسبوع. إنها لم تتوقف في البيت تقريباً، فقط في ساعات الأكل والنوم، حتى في هذا الوقت الضئيل بالذات لم تستطع الإخلاد إلى الراحة. كيف تفعل ذلك وفادينيو حاضراً قابعاً إلى جانبها، لمجرّد ان تأتي، وفي كل مرّة هو أكثر وقاحة، على استعداد لأن يحملها على الفحش، الخيانة الزوجية؟

خيانة زوجية؟ خيانة زوجية؟ كيف؟ ـ كان الشرير يتساءل، إذا كنت أنا زوجكِ؟ أين شوهدت امرأة تغدو خائنة لكونها استسلمت لزوجها الشرعي؟ ألم تقسم هي على الطاعة أمام القاضي والقس؟ أين شوهدت، يا وردتي الماراكوجا[1]، فالزواج هكذا أفلاطوني. عبث...

لدى الملعون كلام كالسكر، لسان راقٍ، منطق وبلاغة، يحسن التذرّع بحجج قادرة على تشويشها ويغدو صوته محموما:

ـ يا حبي، أليس لننام معاً، قد تزوجنا؟ إذن؟

كانت الدونا فلور ما تزال تجلب في ذراعها ثقل ذراع الدكتور، وتشمّ أيضاً رائحته الناضحة بالعرق في لاديراس[2]، في السعي إلى موظفي الدولة. كانت صوت فادينيو يقضّ مضجعها ـ كيف ترتاح إذا كان ينبغي لها أن تبقى يقظة، إذا لم يكن في وسعها التخلّي عن نفسها ثانية واحدة وإلاّ فإنها تتعرض للخطر؟ خطر الانسياق مع الموسيقى الكامنة في صوته، فتدوّخها كلماته، وتلمسها يده الغادرة، بشفته. وعندما تنبّهت إلى الأمر، كانت حبيسة ذراعيه، وكان ينبغي لها أن تفلت نفسها بعنف. فما مكنته منها ولن تمكنه أبداً.

لم تعطه ما يبتغيه، أو على الأقل، لم تعطه كل شيء، لأنها سمحت له بشيء ما في هذا الوقت الزاخر بالأيام المتعبة؛ دغدغات خفيفة وبريئة. هل ستكون هكذاجد خفيفة وبريئة؟

ذات مساء، على سبيل المثال، وقد وصلت مرهقة من دوائر الدولة ودائرة السجل العقاري (الدكتور ما زال خارجاً في الصيدلية يحضّر وصفات طبيّة)، تجرّدت الدونا فلور من فستانها، وقلعت حذاءها وجوربيها وتمددت على السرير الحديدي، وهكذا بقيت فقط بحاملة الثديين[3] والغلالة[4]. كان هناك صمت ونسيم في البيت وتنهدت الدونا فلور.

---

(١) الوردة معناها: فلور في البرتغالية، والماراكوجا: نبات استوائي ذو ثمر.

(٢) LADEIRAS: جمع LADEIRA وهي المنحدر والمرتفع من الأرض أو «النزلة» و«الطلعة» في التعبير العامي.

(٣) المنهدة أو الصدرية في العامية.

(٤) COMBINAÇAO: القميص الداخلي الذي ترتديه المرأة تحت الثوب.

ـ تعبة، يا حبي؟ ـ كان فادينيو مضطجعاً إلى جانبها.

من أين جاء، أين كان مختبئاً بحيث أن الدونا فلور لم تره؟

ـ تعبة جداً... فمن أجل اكتشاف ورقة في إحدى الدوائر الرسمية تفقد فترة ما بعد الظهر... ما فكّرت...

لمس فادينيو وجهها:

ـ لكنكِ راضية يا حبي...

ـ أردت دائماً أن يكون لي بيتي...

ـ أنا أردت دائماً أن أعطيكِ هذا البيت...

ـ أنت؟

ـ ألا تصدقين؟ لديكِ الحق... إعلمي إذن، كان ذلك هو الأمر الذي رغبته أكثر من سواه؛ أن أستطيع إعطاءكِ هذا البيت ذات يوم. فكان لابد أن أكسب يوماً كثيراً من المال في الـ ١٧ بحيث أتمكن من الشراء... وكنت سأصل إلى البيت مع مستند التمليك، من دون أن أقول شيئاً قبل ذلك... إنما لم يتح لي متسع من الوقت... وإلاّ... إنكِ لا تصدقين، أليس كذلك؟

ابتسمت الدونا فلور:

ـ لماذا ينبغي لي ألاّ أصدقك؟

أحسّت بفم فادينيو على ارتفاع وجهها، فأرادت تحرير نفسها من ذراعيه اللتين تحيطان بها:

ـ دعني...

لكنْ لكثرة ما تضرّع إليها سمحت للرأس الأشقر بالبقاء إلى جانب رأسها ورضيت

بأن يرتاح في كنف صدرها. بشكل بريء، هذا واضح.

ـ أقسم على ألاّ تحاول...

ـ أقسم...

كانت لحظة عذوبة، والدونا فلور تتحسس نَفَس فادينيو في رقبتها ويداه تانك تدافعان عن راحتها، إحداهما تدغدغ وجهها، تلمس شعرها، تخمد تعبها. ولشدة ما هي متعبة نامت.

حين استيقظت، كانت عتمة الليل قد خيّمت وأيضاً الدكتور تيودورو:

ـ نمتِ يا عزيزتي؟ يجب أن تكوني ميتة من التعب، مسكينة... علاوة على إنفاق توفيراتكِ، هناك أيضاً هذا الشغل الشاق...

ـ لا تقل أشياء بلهاء يا تيودورو... خجلى، غطّت نفسها بالملاءة.

في شبه العتمة المخيّمة على الحجرة، بحثت هي عن فادينيو، فلم تره. بالتأكيد قد غادر عند إحساسه بخطى الدكتور. تُرى هل يغار من تيودورو؟ سألت الدونا فلور نفسها بابتسامة. لقد نفى فادينيو ذلك، هذا واضح، لكنْ لدى الدونا فلور ذات ريبة.

ارتدى الدكتور تيودورو سترة المنامة، وارتدت الدونا فلور الرداء ناهضة. وتناول زوجها يديها:

ـ يا له من شغل مجهد، هيه، يا عزيزتي؟ لكنَّ الأمر يساوي الجهد، فالآن نمتلك بيتنا. ولن أرتاح أنا، مع هذا، ما لم أدفع الرهن وأودع في الصندوق كل المال الذي وظّفته أنتِ في الصفقة.

معاً، وهما متأبطان تقريباً، يد الصيدلي على خصر الدونا فلور، خرجا من الحجرة إلى قاعة الطعام. وهناك التقيا الدونا نورما الملهوفة لسماع المستجدات حول شراء البيت.

قالت الجارة عند رؤيتها لهما متحابين هكذا:

ـ تشبهان حمامتين صغيرتين... وفي الحال، ابتعد الدكتور عن زوجته وهو خجل.

في اليوم التالي، صباحاً، عادت الدونا نورما لتناقش الدونا فلور شؤون الخياطة. وتندّرت مشيرة إلى العنق العاري:

ـ مغازلتكِ هذه مع زوجكِ تغدو فاضحة...

ـ هيه؟ ماذا؟

ـ ألم أرَ إذاً البارحة، أنتِ والدكتور في ذروة الهيام، قادمين من الحجرة، وكنتما ما تزالان متماسكين؟

ـ إنكِ تتكلمين عني وعن تيودورو؟ سألت وهي ما تزال جزعة.

ـ وممن يجب أن تكون؟ إنكِ تصبحين كاذبة؟ والدكتور ما يزال يتصرّف برصانة... وقبل العشاء، هيه؟ والوظيفة تواصلت بعد ذلك؟ وأيضاً كان عليكما أن تحتفلا بشراء البيت...

ـ أي حديث هذا يا نورمينيا... لم تكن ثمة وظيفة ما...

ـ آه يا قديستي، هذا لا. فأنتِ مع كل هذه العلامات على الامتصاص في العنق، وكل واحدة أكثر جمالاً، وتقولين لي إنه لم يحدث شيء... ما كنت أعلم أن الدكتور من النوع الذي يمتص الدماء...

مررت الدونا فلور يدها على عنقها وركضت إلى مرآة الحجرة. علامات حمراء تعتريها الزرقة، احتلت جانباً بأكمله من العنق. فضيحة.

آه! فادينيو، الناكث بيمينه، الأشد جنوناً والأشد طغياناً.. أحسّت دغدغة في الشفتين واحتجت. لكنه سألها أي سوء أتاه في لمسه عنقها، إذا لم يكن أكثر من قبلة، إنه أزهر البشرة بفمه. ففي الدغدغة نامت الدونا فلور، آه يا فادينيو يا لك من امرىء لا تنفع معه أية وسيلة!

انتزعت نفسها عن المرآة، وارتدت بلوزة ذات ياقة مرتفعة تخفي لها العلامات المتهمة. ماذا سيقول الدكتور لو رأى هذه العلامات ذات اللو ن الأحمر الذي يخالطه زرقة، دلائل على شفتين أخريين ليستا شفتيه، وهما بالأحرى غير قادرتين على مثل هذه التهتكات والتصرّفات الماجنة؟ عادت إلى القاعة:

ـ نورمينيا، يا ابنتي، حباً بالله لا تقومي بالتنكيت مع تيودورو حيال هذه الشؤون.. فأنتِ تعلمين كيف أنه خجول كلياً... إنه جد رصين...

ـ من الواضح إني لن أذهب في التنكيت مع الدكتور، لكن يا فلورزينيا[1] ما دام يتصرّف بجدية، فإن هذا... الرصين كان هو في أوقات أخرى يا قديستي، والآن قد تحرر... حتى ليشبه فادينيو، ولم يتبق له إلا أن يفعل الأشياء على مرأى من الجيران...

أحسّت الدونا فلور برنة ضحكة وحضور ما، ولم تعر الدونا نورما انتباهاً، لحسن الحظ؛ فالشرير ظهر في الهواء وإلى أعلى مستوى مرتدياً ذلك القميص ذي النسوة العاريات الذي جلبته الدونا جيزا من أميركا للدكتور. لم يغط القميص إلاّ الصدر فقط، والباقي ظاهر، وبلا احتشام أيضاً.

---

(١) تصغير لاسم فلور.

٩

أي سوء في هذا ، يا حبي؟ ماذا بكِ؟ دعي يدي تبقى ههنا ، فلن أنتزع منكِ قطعة ، ولن أستنفدكِ ، إن يدي متوقفة ، فماذا بكِ؟ ـ كان يُبقي على يده بشكل رصين على أعلى العجيزة المستديرة ، لكنْ حالما حصل على الموافقة الخرساء ، لم تتمالك اليد إرادتها ، فقامت جيئةً وذهاباً من الوركين إلى الفخذين ـ قطاع أرضي شاسع يغزوه شيئاً فشيئاً .

هكذا ، مع اليدين ، النَفَس ، الشفتين ، الكلمات السلسة ، مع النظرة ، الضحك ، الاستنباط ، الظرف ، مع التحسّر ، المشادة ، التدلّه ، حاصر فادينيو القلعة التي هي ثروة الدونا فلور غير المنقوصة ، واضعة في أسفل أسواراً من الفضيلة والحياء . وفي تقدّم متواصل وراسخ ، في حصار عنيد ، اختصر ميدان المعركة ساعة فساعة .

كان في كل لقاء يحتل موقعاً جديداً ، فتسقط التحصينات ، مستسلمة بالقوة أو بالحيلة ؛ اليد العليمة أو الشفة ذات الوعود الكثيرة ، وكلها بلا قيمة ـ « قبلة واحدة يا حبي ، قبلة واحدة. . . » لقد تلاشت ؛ الثديان ، أعلى الفخذين ، العنق ، الردفان ، المؤخرة ذات الساتين [1] . فكل هذا كان الآن له ، قطاعاً أرضياً حرّاً من الرقابات على اليد ، على القبلة ، على دغدغة فادينيو . وحينما تنبهت الدونا فلور للأمر ، كانت كرامة وشرف الدكتور قد حُجر عليها في آخر معقل ، هو كل ما بقي سليماً منها . أكثر من ذلك ، أرض المعركة المتقدة هذه ، قد استولى عليها هو تقريباً من دون أن تدرك هي هذا .

---

(١) CETIM : نوع من النسيج الرقيق الأملس .

جاءت الدونا فلور وهي مستعدة للاحتجاج على العلامات ذات اللون الأحمر البنفسجي في العنق، وهي علامات متحللة، مرعبة، جاءت مستعدة لمنع أي حميميات، لكنه غلّفها باحتضانه لها، موشوشاً بإيضاحات أو هاتكاً حياءها ورصانتها، وفي وقت يسير كان يعضّها من أذنها، في دغدغة تجعلها تقشعرّ.

كان يفعل ذلك بسرعة وبغير دقة، دفعة واحدة ودائماً لمحصّلـة تلك العلاقات الملتبسة التي صارت جد بعيدة عن التقدير الرقيق للصداقة الغرامية البريئة، وللمشاعر الأفلاطونية التي كانت الدونا فلور تتصوّر أنها ممكنة حينما عاد فادينيو. وعند قياسها للخطر، امتلأت الزوجة الفاضلة بالخوف والهمّة، معدّة نفسها لوضع مكان لها في ذلك الموقف العبثي. أين شوهدت امرأة مع زوجين؟

فكرت الدونا فلور وهي جالسة على الأريكة المستطيلة[1] في حساسية الموضوع ـ يجب أن تسوق النقاش بمرونة شديدة كيلا تؤلم فادينيو، كيلا تسبب له الإهانة، وفي النهاية هو قدم تلبيةً لندائها ـ عندما ظهر الشيطان واحتضنها، فيما الدونا فلور تبحث عن مادة لبدء الحديث، دسّ فادينيو يده تحت ملابسها، محاولاً بلوغ ذلك المعقل الأخير بالضبط، والذي كان لا يزال سليماً، خزانة متينة تودع فيها عفتها كإمرأة وشرف الدكتور.

ـ فادينيو!

ـ دعيني أرى الموضع الخالي من الشعر، يا حبي... إني أموت اشتياقاً للفرج الصغير... فهو جزء مني...

نهضت الدونا فلور في تفجّر الحنق، في عنف وغضب. ففادينيو أيضاً كان كريهاً وكلامه الفارغ[2] كان فظّاً وغير سارٍ. وربما لم يكن فادينيو يتوقع بعد ردة فعل جد خشنة من الدونا فلور، ظانّاً أنه قد غزا كل شيء.

ـ إبعد يدك عني، لا تلمسني بعد الآن... وإذا كنت مازلت تريد أن تراني وتتحدث

---

(١) SOFA

(٢) في الأصل BATE-BOCA: طق الحنك في العامية.

معي، فيجب أن يكون من بعيد، كشخصين يعرفان بعضهما ولا شيء أكثر... ها قد أنذرتك بأني امرأة شريفة وأني سعيدة جداً مع زوجي...

أجاب فاديِنيو ساخراً:

- زوجكِ، هذا الأحمق، هذا الأبله.. لا يملك إلاّ الحجم... ما الذي يفهمه هو من هذه الأمور، هذا الإنسان العنين؟...

- تيودورو ليس جاهلاً مثلك، ليس سافلاً، إنه رجل كثير المعرفة...

- كثير المعرفة... قد يكون لصنع دواء سائل[1] عنده قدرة... لكنْ من أجل ما هو حسن، من أجل المتعة، يجب أن يكون أكبر رجل بليد في العالم... يكفي النظر إليه، فهو خصي...

واجهت الدونا فلور فاديِنيو بعينيها، ما رآها قط جد ساخطة:

- ليكن معلوماً لديك أنك مخدوع جداً، فمن يستطيع أن يعرف عن قدرته سواي؟ وإني لأكثر من راضية... ولا أعرف رجلاً أفضل منه. في كل شيء وفي هذا أيضاً... وأنت لا تصل إلى قدميه...

- بوف! - فاه فاديِنيو، برنّة تنم عن عدم احترام وسوقية.

- دعني بسلام، إني لا أحتاجك بشيء... ولا تلمسني أبداً بعد...

كانت مقررة؛ لن تسمح له بعد بحميميات، ولا عناق، ولا مثل تلك القبلات غير البريئة، حتى ولا أن يتمدد إلى جانبها من أجل «التحدث بشكل أفضل». إنها امرأة شريفة، زوجة رصينة.

- لو كنتِ قانعة جداً، لماذا دعوتني؟

---

(١) XAROPE: شراب لمكافحة السعال.

سبق وقلت لك إنه لم يكن من أجل هذا... ولقد ندمت على استدعائك..

بعد ذلك وهي وحيدة، سألت نفسها إذا لم تكن فظّة وعنيفة أكثر من اللازم. ففادينيو بات مغتاظاً، مُهاناً، حاسر الرأس. فخرج من الباب وخلال ما تبقى من النهار كله لم تره. حينما يعود في ساعة الغسق ستوضح له أسبابها بكلمات طيّبة. إنه دنيء وسفيه. لكنْ فادينيو، مع هذا، لديه أحياناً ردّات فعل غير متوقعة، فكان قادراً على إدراك وساوس الدونا فلور وعلى اختصار علاقاته عند الحدود المفروضة من اللياقة والشرف.

كانت الدونا فلور في جميع فترات ما بعد الظهر، بعد أن تنهي المهمات اليومية وبعد الحمام، وهي مضمّخة بالعطر والمسحوق[1] تتمدد على السرير من أجل بضع دقائق من الراحة. وعندئذ، وبشكل لا يتغيّر، كان فادينيو إلى جانبها ممدداً، وتحادثا حول أمور مختلفة (وفيما هما يتحدثان، كان هو يمضي مهدّماً تحصينات، يجتاحها بصدره، مثنياً إرادتها). وحينما يفترض أنها سوف تحتج، يلهيها بالكلام عن الأماكن التي قدم منها، والدونا فلور ذات الفضول الكليّ، الزاخرة بالأسئلة، ما كانت لديها قوى للمحظورات:

ـ والأرض، مرئية من هناك، كيف هي يا فادينيو؟

ـ زرقاء كلها، يا حبي.

كان المغوي يهبط بيده إلى الورك أو يرفعها إلى الثدي، والدونا فلور تريد أن تعرف:

ـ والله، كيف هو؟

ـ الله سمين.

ـ إبعد يدك من هنا، إنك تخدعني...

يضحك فادينيو، ويده تقبض على الثدي المنتفخ، وشفته تسعى إلى فم الدونا فلور، كيف تعرف إذا ما يقوله حقيقة أم كذباً؟ نَفَس من الجمرات، نَفَس حارق مثل الفلفل،

---

(١) TALCO: البودرة في العامية.

عذوبة النسيم، ريح البحر العليلة، أواه يا فادينيو الكذاب والعديم الحياء ... هكذا كان هو يفترسها شيئاً فشيئاً، ولم يبق إلاّ المعقل الأخير، عفتها الأخيرة.

في ذلك اليوم انتظرته بلا جدوى، فهو لم يأت. وتدحرجت الدونا فلور على السرير قلقة، تتداول الأمر في قلق وشك. هل ارتحل، في طريق العودة، متألماً يعاني في كبريائه، مُهاناً؟ هل انصرف إلى الأبد؟

ارتعدت الدونا فلور لهذا التفكير. كيف تحيا مجدداً بلا حضوره؟ بلا جنونه، بلا ظرفه، بلا إغوائه؟

مهما يكن، فعليها أن تحيا من دونه، إذا شاءت البقاء شريفة، إمرأة مستقيمة. كان هو الحل الوحيد الممكن، فهذا المأزق ليس له باب لمخرج. إنه معيار مرعب، موقف صعب يفوق كل حجم، لكنْ ما العمل؟ افترضت مآل القطيعة المريرة؛ إذا واصل فادينيو بقاءه ههنا، فلن تكون لها قوة الاحتشام ولا التصميم على الفضيلة القادران على منع الجاحد. لن تُخدع الدونا فلور؛ ما هي الأحاديث غير كونها ذريعة للمداعبات، من أجل ذلك الصراع المرعب جداً واللذيذ جداً؟

كيف تقاوم طلاقة لسان فادينيو؟ إنه لن يقنعها، ولن تترك الدونا فلور نفسها تقتنع، بأنه إزاء استثناء الامتلاك الكامل فكل شيء ليس أكثر من مزاح بلا سوء، ألعاب بريئة لا يترتب عليها الإخلال بالشرف ولا انعدام الاحتشام؟ فلن يكون هناك امتلاك، ولن يكون هناك إخلال بالشرف، وستحتفظ بكرامتها وبجبين الدكتور الشهير من دون أن يمسّا. للمرّة الثانية خدّر فادينيو هواجسها بالأغنية القديمة ذاتها الباعثة على النوم، الأهزوجة نفسها التي نوّمتها في أزمنة بعيدة من أزمنة الحب في ريو فيرميليو وفي لاديرا دو آلفو. كانت محمومة وحينما فتحت عينيها كان قد التهم ثمرة الكاباسو وشرف البنت العذراء قرب بحر إيتابووا.

ومن جديد وصل فادينيو الآن إلى رصيف مينائها الأخير، إلى الثنية الخفيّة جداً من كيانها. وأقل عدم احتراس من الدونا فلور، في أية لحظة من اشتياقها الذي لا يمكن

الإمساك به، سيأكل، ليس ثمرة الكاباسو لفتاة عذراء وحسب، إنما شرف زوج وحشمة زوجة.

حشمة نموذجية، شرف زوج مثال الأزواج الطيّبين. وحينما يكون المسكين أقل تفكيراً في هذا الأمر، ستزهر جبهته بالقرون، وسيكون هذا ظلماً شديداً. وقد زُرعت بذور هذه القرون غير العادلة بيديْ فادينيو، بفمه ذي القبلات، بحرارته كرجل يشعل في الدونا فلور شهيّة وإثماً. أجل، كان هناك فقط حلّ وحيدٌ وصحيحٌ؛ ليعد فادينيو إلى حيث قدم، هكذا فقط ستكونان مضمونتين؛ فضيلة الزوجة وجبهة الصيدلي. الدونا فلور كانت ستمزق قلبها، كانت ستتألم أكثر من اللازم، لكنْ أين هو الطريق الآخر، الباب الآخر للخروج؟ لقد أوضحت له بلطفٍ أسبابها، «أغفر لي يا حبي، من المحال أن نستمر هكذا، فلم أعد أستطيع. أغفر لي إذا دعوتك، كان ذلك كله بجريرتي، فوداعاً، دعني بسلام ...».

في سلام؟ أم في يأس؟ ليكن أي شي، فعلى الأقل هي شريفة، إمرأة مستقيمة وفيّة لزوجها.

لم يظهر فادينيو. لا في الحجرة في ساعة الغسق، ولا في ما بعد في القاعة، في ساعة العشاء. كان معتاداً على المجيء ليأتي بتصرّفات السعادين، مجبراً الدونا فلور على أن تعضّ شفتيها كيلا تضحك حينما يكون داسّاً نفسه في القميص ذي النسوة العاريات، فيخرج راقصاً وعارضاً نفسه؛ أو كيلا تثور وهي تراه خلف مقعد الدكتور يضع له قروناً على جبينه بأصابعه، المفسد!

قرون غير موجودة، إذ أنها لم تمكنه منها، فاستبقت المعقل سلماً حيث الشرف الحقيقي محفوظ (الباقي كان مجرّد هراء، كما كان فادينيو يقول لها وكما تعامل مع كثير من هذه الأمور).

انتظرت حتى ساعة الرقاد ولم يأت. بالتأكيد غادر فادينيو مُهاناً، فقد كان فخوراً بنفسه وقاسياً، قادراً على مواجهة أشد المواقف صعوبة برأس مرتفع. من يدري، لقد ارتحل إلى الأبد. أوّاه يا ربي، حتى إنه لم يودعني.

١٠

حدث اختفاء فادينيو يوم الأربعاء عند الصباح وقضت الدونا فلور النهار مشوّشة الفكر، في حزن ناتج عن عدم رؤيته، في الخوف من أن يكون مجدداً ضائعاً في تناقض الرغبة كما كان، إذ أنها تعرفه، وهذا الرحيل التهائي وحده فقط، إلى الأبد والذي لا عودة منه أبداً، كان قادراً على إنقاذ البيت السعيد.

في ليالي الأربعاء، وكذا في ليالي السبت، كما سبق وقال وكرر الدكتور المنهجي الذي يشرّف الزوجة ويخدمها، قائماً بواجباته الزوجية وهو مسرور؛ مهمة مجانية. مع التكرار في أيامّ السبت (لن ننسى) وبنفس الطقوس الدائمة، حيث الانبساط لا يستثني الاحترام، إنبساطٌ مغلفٌ بالخفر، مغطّى بالحياء (وبالملاءة).

بعد بلاهة عيد الزواج، ليلة عودة فادينيو، استعادت العلاقات الخاصة بالسرير بين الدونا فلور والدكتور تيودورو وضعها الاعتيادي، فتسلّم الدونا فلور نفسها لزوجها بخفر ورقّة، وتتلقى منه رضى غامراً وكلياً، في أيام السبت المتكررة.

بالأحرى، ما كانت الدونا فلور قط جد حيوية في المتعة مع الصيدلي المندفع كما هي حالها مؤخراً؛ في الحقيقة كانت تسلّمه نفسها الآن برقّة أكثر من الخفر، والدكتور يشعر بها وهي تتأوّه وتتنهد، في اهتياج. وكان الدكتور يبتهج بمثل هذه البراهين على الحب والرضى. فكان حبه لزوجته يتعاظم مع مرور الوقت، وكان هو أيضاً يحبها أكثر، إذا كان ذلك ممكناً.

وكانت ثمة ليلة من الراحة الإضافية، خارج نطاق التقويم الصارم، الليلة من ذلك النهار الذي أكملا فيه الإجراءات، في مصرف سيليستينو وفي دائرة السجل العقاري الخاصة بمارباك، من أجل شراء البيت. فهذا الحدث الاحتفالي نفّذه الدكتور سعيداً، مرتئياً أن من الصواب أن ينتهك، لمثل هذا العامل، التدبير المنظّم للحياة الليلية لدى الزوجين.

فهو بالذات، عند خروجه من الحجرة إلى القاعة في ذلك المساء، وذراعه على خصر الدونا فلور، ورأس الزوجة على كتفه منحن، وإزاء إدراكه الابتسامة الخبيثة من الدونا نورما، أحسّ بنداء الحب متناثراً في الوسط، آتياً من الدونا فلور ومتيراً إياه. هو نفسه فكر في الاحتفاء باليوم المشهود معتبراً أن « شذوذاً لمرّة واحدة في الحياة والأخرى في الموت لن يصل إلى حد الإساءة ولا أن يغدو تهديداً للصحة البدنية أو الخلقية للزوجين (ما دام غير مبدّل في العادة بكل وضوح) ».

إذا كان شراء البيت قد أثّر على الدونا فلور، حاملاً إياها على تحريض الزوج والحصول على موافقته ومعاونتها في ذلك الإنجاز الإضافي، فهي لم تعر انتباهاً للأمر. فالنار التي تحرقها لم تُطفأ بالمعاملات المصرفية، بالرهن، بالإيصالات والمستند. إن شراء البيت يقيّدها أيضاً أكثر بالدكتور بلا شك، وتغدو عاطفتها أقوى. والذي كان يحملها أيضاً لأن تلحّ على المتعة والإمتلاك في غير أوانه، كان هو اللهب المتصاعد من قبل فادينيو، دغدغاته، يده ذات الرقّة، فمه ذو القبلات، قلّة الحياء عند الغسق، العلامات الحمراء التي تخالطها الزرقة في العنق. أما الآن، حينما يعتليها الدكتور، متدثّراً بالملاءة، مع إطباق عينيْ الدونا فلور فلا تبصر الطائر العملاق، بل فادينيو يمتلكها أخيراً، فيجعلها تئن وتتنهد. إنه لأمر مرتبك من أعمال الشياطين.

كانت الدونا فلور تحتفظ لنفسها بالتأمل حول هذه المواقف المعقّدة، وقد بات لديها منها الكثير لاستنفادها. أما بالنسبة إلى الدكتور، فيفترض أنه وضع برنامجاً بصورة جدّية، وإضافياً من أجل كل فترة تعدادها خمسة عشر يوماً.

في ذلك الأربعاء يوم المشادة مع فادينيو، شعرت الدونا فلور أنها حائرة ومهتاجة، وبحاجة تماماً لتهدئة الأعصاب. فكّرت في فادينيو المختفي، ربما إلى الأبد. كانت هي

بعودة إلى الوجود الهادىء، نهاية الأيام المتوترة، حينما وجدت نفسها بين زوجين، كلاهما لديه الحق في حبها وهي لا تعرف كيف تتصرّف، بلغ بها الأمر في لحظات معيّنة أن تمزجهما وأن تربكهما، في أشد ضروب التعثّر.

مَنْ يدري، بوسعها الآن أن تعود ثانية إلى الرتابة الهادئة التي كانت قبل عودة فادينيو، حينما كان يستيقظ جسدها فقط أيام الأربعاء والسبت؟

هكذا، في ذلك الأربعاء ليلاً، وهي مخبّئة تحت الملاءات علامات قُبلات فادينيو في عنقها، ومغلقة قلبها على الخوف الناجم عن غيابه، ألجأت الدونا فلور زوجها إلى كنفها، فمعه تبدأ الطقوس المحتشمة واللذيذة. وحالما اعتلاها الدكتور، تلك المظلّة المريحة، رنّت ضحكة فادينيو في أذنيْ الدونا فلور وجعلتها ترتعد.

أولاً كان ثمة فرح لرؤيته هنا، متوازناً في شباك السرير، فلم يرتحل إلى الأبد كما خشيت الدونا فلور. بعد ذلك صار الفرح حنقاً، وهي تتبيّن ضحكته ذات الخيلاء، تلك الهيئة الزائفة ذات الإشفاق على الوجه الزاخر بالسخرية والاستهزاء.

كان يبهج نفسه بالشيء الرديء، رافعاً طرف الملاءة ليقيّم ويسخر بشكل أفضل. وكانت الدونا فلور تسمع صوته داخل صدرها، ضحكته المتهتكة، ذات السخرية والهزوء.

ـ أهو هذا الذي تسمينه متعة؟ أو هذا الدكتور العليم بكل شيء، معلّم العاهرات، ملك النذالة؟ هذه القذارة، يا حبي؟ ما رأيت قط شيئاً أكثر حمقاً... فلو كنت أنا أنتِ، لطلبت منه، بدلاً من هذا، قارورة دواء من الشراب؛ يشفي من السعال ولذيذ أكثر... لأن ما يفعله، يا حبي، هو الشيء الأكثر تفاهة الذي رأيته...

كانت تريد أن تقول: «حسناً، إني أحبه وكثيراً» لكنها لم تستطع. فالدكتور بلغ النهاية وهي قد ضاعت في ضحكات فادينيو، ميتة من العار (ومن الرغبة).

١١

الدونا فلور في محنة، فقدت رشدها، وهي خائفة على شرفها وعلى بيتها السعيد، وكلاهما في خطر. ماذا يُقال إذاً عن بيلانتشي مولاس؟ إنهارت امبراطوريته كأنها تحت زلزال أو ثورة.

لم يُر شيء ما مشابه منذ بدء العالم والمراهنات. فقد حدث، إنه مؤكد، حظّ خارق للمألوف، كما هو نحسٌ جماعي، وأكثر من مرّة، فجرّ مقامر لديه ثروة وتصميم، حصيلة اللعب في كازينو. إنها أحداث نادرة ودائماً محدودة. كانت من هذه الأحداث عملية غش. لكن الغش أيضاً سرعان ما يكتشف، خصوصاً إذا أُصِرّ عليه وتكرر. في هذا العالم ذي الأمور غير المؤكدة، لا شيء أكثر ضمانة من عائدات وكسب ملتزمي الكازينوهات والبيشو وألعاب القمار؛ يكسبون كثيراً، ويخسرون لبعض الأشخاص القليلي العدد، إنهم السادة الكبار، يحيون منتفخي الأوداج. إنه أفضل عمل، سرقة أكثر كسباً، وحدها فقط رئاسة الجمهورية أكثر كسباً.

لقد ارتفعت أوراق لعب ضد بيلانتشي مولاس أيضاً، ومكعّبات وألعاب روليت، حدث كل شيء مما يعصى على التفسير. العبث الذي لا يمكن تصديقه، المستحيل، وكان من الضروري أن يرى المرء ليصدّق، ومع هذا رأى بعينيه أن الأرض تُستنفذ، وأن أناساً كثيرين يكررون كلمات ذلك الرجل من إيليوس، وهو يشاهد دورة دامات آريغوف: «إني أرى ولا أصدّق».

في مادة القمار، رأى الأستاذ ماسيمو ساليس كل شيء في حياته، بما فيه أحد الرجال يموت معانياً من قلبه وهو يصيب حصيلة الروليت، وآخر يقتل نفسه مبتلعاً قرصاً من السم، إنه موت بشع. وما ظنّ قط أنه سيتعرّض لما هو غير قابل للتفسير، فقد كان عملياً، قدماه على الأرض ورأسه بارد. حينما كان مراهقاً باع بطاقات قمار البيشو في بورتو أليغري[1]، وفي ماناوس[2] كان مديراً لحانة تعمل خفية، ومساعد مدير لعبة قمار[3] في الريو، وعامل منجم في رسيفي، وأدار لعبة قمار في ماسيّو، عاش من البوكر في مناجم الماس، وكان يعرف جميع الأسرار، وكل عملية غش.

ـ إذن أيها الأستاذ، ما الذي تقوله لي؟ ما هي نتائج تحقيقاتك؟ ما هو الشيء المحسوس؟ ـ صوت بيلانتشي، وعيناه شريرتان ويعتريه خوف.

لا شيء محسوساً، وماسيموساليس لن يعطي يده لتناول القصاص. فالمكعبّات وأوراق اللعب قد عانت الفحوصات الأكثر دقة، وأيضاً الموائد والعلب، ولا أي دليل. وجاءت الشرطة، مفوّض ذو شهرة للكفاءة عالية، رجال تحرّيات عديدون، استجوبوا الموظفين، بإرشاد من ماسيمو. وبشكل مستنفد، دونما أي اعتبار للمركز، للعمر، حتى العلاقات الحميمة مع رب العمل. حتى ولا دومينغوس بروبالاتو، الأخ بالرضاعة لبيلانتشي، وُفّر في هذا الشأن. وحدها زولميرا نجت من الإهانة، لكنْ مهما كان المرء، فإن الأستاذ لا يبرّئه:

ـ سنرى وهذا الشخص هو شخص ينتمي إلى عصابة لصوص.

بالنسبة إلى ماسيمو ليس إلاّ عصابة لصوص ومن أكثر العصابات تنظيماً، تستطيع تركيز ذلك الغش الخارق للمألوف. عصابة دولية، فالغشاشون المحلّيون تنقصهم كفاءة لمثل هذا. حتى ولا يحوزها غشاشو الريو أو سان باولو. وحدهم إختصاصيون أوروبيون أو أميركيون، من مونتي كارلو أو من لاس فيغاس، قد يكونون قادرين على عملية فساد مثل عملية الباكارا. فخلال ليلتين متواليتين، على مائدة الباكارا نفسها في التاباريس، أصابت

---

(١) عاصمة ولاية ريو غراندي دول سول، في الجنوب.

(٢) عاصمة ولاية آمازونيا في وسط البرازيل.

(٣) CRUPIE، كلمة فرنسية.

المراهنة حظاً في جميع المرّات وليس مرّة واحدة، وكسب الهرم آناكريون ثروة. هو وجميع الناس، إذ رافق جمهور حقيقي ضربة الحظ. ضربة حظ؟ بالنسبة إلى ماسيمو كان آناكريون مجرّد متورّط في جريمة لصوص.

أدار ألعاب القمار، باسم البيت، أفضل مدير للباكارا في المدينة، ربما في شمالي البرازيل، هو دومينغوس بروبالاتو. ليس هو مجرّد موظف، إنما مواطن، إشبين، الأخ في الرضاعة لبيلانتشي مولاس. فقد وُلد في نفس القرية، مع فارق أيام، فأم دومينغوس أرضعت بثديها الوفير مليونير المستقبل. وبروبالاتو القادر على أن يقتل ويموت من أجل الأخ، كان فوق أية شبهة. وأمامه فإن الهرم آناكريون أكثر من مشبوه.

من أين يتدبّر الهاجس والمال للعب؟ فالجميع يعرفون الحالة البائسة التي انحدر الهرم إليها؛ جد سفلى بحيث اقتصر على بيع بطاقات قمار البيشو في مقهى رايموندو بيتاليا.

أكثر من ذلك ـ كان ماسيمو يجمع بأصابعه ـ فالهرم يتمتع بجرأة وخبرة. وقبل أن ينشىء بيلانتشي مولاس امبراطوريته في باهيّا، كان آناكريون شخصيةً شعبية في حلقات القمار السرّي، مُطَارداً وكثير الغش. إنه مرن في تعقّب أثر أوراق اللعب، في سقوط الأصابع، من هو أقدم منه وأكثر منه مثابرة على مائدة الروليت، أمام الباكارا في لعب الحلقة، في الواحدة والعشرين، في السبعة والنصف؟ إنه بطريرك[1].

كانت تمرّ السنين، تظهر أجيال وتختفي، والهرم آناكريون وحده بقي كما كان، في أطوار رفيعة ومتدنية بالتأكيد، أطوار حسنة ورديئة، من دون أن يكون قد مارس أبداً مهنة أخرى غير القمار.

فتيان جعلوا من أنفسهم ظلاً له، لم يعودوا يلعبون القمار، فقد تحوّلوا أشخاصاً رصينين ومحترمين، مثل زيكيتو ميرابو، غيريرو، نيليتو كاسترو، إدغار كورفيلو، وحتى جيوفاني غيمارايس. وأحد رفاقه الأوائل، بيتنكورت، وصل بسرعة لمنصب مدير مصلحة المياه، وهو مهندس كفوء. لم ينس صديقه، فاقترح عليه وظيفة مستديمة، ضمانة لأيام الشيخوخة.

---

(١) المقصود أنه قادر في لعب القمار.

وإذ تأثّر آناكريون بكى وهو يحتضن بيتنكورت، لكنه لم يوقع أبداً العقد ويتسلّم مركز عمله:

- إني لا أنفع إلاّ للعب القمار، وليس لشيء آخر...

البعض (قلّة لحسن الحظ) يشغلون مناصب مهمّة أو هم متزوجون من نساء ثريات، ما كانوا يجرأون حتى على تذكر تلك الأوقات من أوقات الشباب والبوهيمية. آخرون ماتوا في شرخ الشباب وآناكريون يعيش متذكراً أسماءهم وأفعالهم؛ المزح جو، أمير الظرف، ذو الطرافة والنكتة الرفيعة؛ ديفالدو ميراندا الجميل. وهو ثري وأنيق مهجّن[1]، البدين روسي، فتى رشيق، مجنون بالسامبا والكاشاسا. ذات مرّة وقد اعتراه السكر، بال في وسط قاعة بالاس، أمام مرأى السيدات، ولم يُشنق إلاّ لأن آناكريون انقلب، وهو يشهر موسى وحشاً ضارياً وضمن انسحابه؛ فادينيو الذي لا يُنسى، صديقه الأعز، الأشد جنوناً وتسلية، الأفضل، الأكثر استقامة، شخصٌ ذو فعالية.

ذو فعالية، أجل، الأكثر فاعلية! حتى مع كونه ميتاً ومدفوناً منذ أكثر من ثلاث سنوات، ما كان يتحمّل رؤية الهرم آناكريون يسجل ملاحظات على بطاقات البيشو في قعر المقهى، يعاني بؤساً شديداً. فقد ظهر له في المنام - حلمٌ يبدو واقعاً أكثر منه حلماً، إذ إن آناكريون لم يكنْ حتى نائماً، إغفاءة بعد الغداء الهزيل - ونصحه فادينيو بالذهاب بلا تردد إلى التاباريس في ذلك اليوم بالذات وفي اليوم التالي، وعلى مائدة دومينغوس بروبالاتو يراهن على النقاط وعلى النقاط[2] فقط، طيلة الليل. دائماً على النقاط وإيّاك من المراهنة على حصيلة اللعب. كيف يتدبّر نقوداً؟ كان يأخذ بعض النقود اقتراضاً من رايموندو، على حساب العمل؛ شخصٌ طيّب صاحب المقهى ولا يهتم ببضعة آلاف ريس. إضافة إلى ذلك، ففي الصباح التالي سيغدو آناكريون المغطّى بالذهب، من جديد زبوناً من زبائن البيشو وليس مستخدماً في بيع بطاقات البيشو يستفيد من فوائد نيكلات القرض في مراهنات مقهى رايموندو.

---

(١) CABO-VERDE: من كان والده زنجياً وأمه هندية.
(٢) PONTO: طريقة معينة في لعب القمار.

مقامر قديم ومجرّب، كان آناكريون يحترم الأحلام، معطياً قيمة صحيحة للهاجس الصالح، فكيف بالحري إذا كانت مقدّمة من صديق جد وفيّ مثل فادينيو. في نهاية فترة ما بعد الظهر، عند إعطاء الحسابات، تدبّر أمره فأخذ بعض البقايا [1] ورايموندو الطيّب لم يقل شيئاً.

وبعدها حدث ما عُرف، الباعث على اندهاش وتعليقات المدينة، ذلك الانطباع عن الباكارا، لعبة النقاط المتكررة ليلتين بلا ارتياح، ودومينغوس بروبالاتو يفقد هدوءه للمرّة الأولى في مهنته المديدة، وماسيمو ساليس بهيئة رجل أبله، لا يزال يركض ساعياً إلى بيلانتشي مولاس.

آناكريون نفسه في كل تاريخه المجيد كمخالف للقانون، لم ير ما يضاهي حظه هذا ونحس خزينة الكازينو. لكنه لم يكن مجدياً له مناقشة ما حدث؛ فهاجس فادينيو هو لكي يكون مشرّفاً وليس ليكون مبدداً في مناقشات بلهاء. إنه رجل ذو آفاق رحبة آناكريون، الذي كان يؤمن بالقدر وبالنجوم الحسنة، وبالنسبة إليه في ما يتعلق بالفيشات وأوراق اللعب، فالمستحيل غير موجود.

حالما تسلل بيلانتشي مولاس إلى القاعة، قرأ الهلع في عينيْ دومينغوس بروبالاتو الحائرتين. وإذ قدم ليتركز إلى جانب أخي الرضاعة، سمع صوته في وشوشة وفي يأس، كان كمن يسمع إدانته بالموت:

– DIO [2] CANE, PECCHICCIO! SIAMO FUTUTI!

بروبالاتو المؤمن البسيط بالقدرية، قلب ورقة اللعب، فأعطت الحظ بالنقاط.

---

(١) في الأصل: TROCO: الفراطة في العامية.

(٢) في الإيطالية ومعناها: رب الكلاب إرأف بنا وإلا فنحن هالكون.

١٢

« أنا خرب ، أنا مستَنْفَد ! »[١] كرر بيلانتشي مولاس ، حينما وصل دور ميراندون إثر آناكريون .

من بين جميع فتيان ذلك الجيل ، كان ميراندون الوحيد في الاستمرار ، نفس الفتى البوهيمي الجذل ، كما لو أن الزمن لا ينقضي ، فيجوب الليالي بين انفعالات القمار .

ذات يوم أحد ، صباحاً ، إذ كان في البيت يرعى العصافير في أقفاصها ، سمع ميراندون بوضوح رسالة فادينيو : في تلك الليلة ، في روليت بالاس ، الرقم ١٧ .

لم يكن ميراندون يحوز صديقاً أفضل منه ، وهو وفادينيو كان كشقيقين توأمين لالتصاقهما ببعضهما بعضاً . وأيضاً ما كان اسم فادينيو يخرج من فمه ولا من ذاكرته الحافلة بالذكريات ، فكيف ينساه ، إذا لم يتواجد صديق مثله ؟

كان ذلك اليوم بالأحرى مختلفاً فذكرى فادينيو تحتفظ بتماسك الحضور ، كما لو أنه كان هناك يساعد ميراندون لصق الأقفاص مطلقاً بالصفير غناء الكوريو[٢] والكاناري .

كان ميراندون مدعوّاً من قبل الزنجية أندريزا إلى الغداء على طبق ساراباتيل[٣] في

---

(١) في الأصل وردت في الإيطالية : SONO FREGATO, SONO FUTUTO

(٢) CURIO : عصفور صداح شبيه بالشحرور .

(٣) SARAPATEL : طعام معد من أحشاء الخنزير أو الخروف .

بيتها . وفي الطريق كرر الصوت الهاجس . وفعل الشيء ذاته أيضاً وهو إلى المائدة ذات الخوان ذي القماش الأبيض حيث يتوهّج السارابوليو [1] وصلصة الفلفل . ١٧ كان هو رقم الحظ لدى فادينيو ، لكنه ما كان قط في مصلحة ميراندون .

في تلك السنوات الثلاث ، واحتفاء بصديقه المتوفى ، جازف ميراندون بعض المرّات برأس ماله الزهيد على الرقم ١٧ ، ودائماً بالخسران . وسيفعل ذلك مجدداً إذا رغب فادينيو ، فالصديق كان يستحق أكثر من ذلك بكثير .

إنما في ذلك الأحد لم يكن لديه أي رأس مال ومن بين مدعويّ أندريزا النجّار فالديمار ، زوكا وهو مستخدم في المصلحة الريفية ذو مرتبات متأخرة ، عامل البناء روفينو والمعلّم باستينيا ـ وحده روباتو فيليو ربما يستطيع أن يتدبّر بعض النقود ليقرضه إياها . وحينما جيء على ذكر اسم فادينيو ، أنشد روباتو وهو يرفع كأس الجعة ، قصيدة الشاعر غودوفريدو الغنائية ، لكنه في ما خص النقود ، كان مفلساً ، لا يملك فينتيناً واحداً .

بمعدة ممتلئة ، وبروح خفيفة (لا شيء يضاهي ساراباتيل طيّباً لغسل الروح في يوم أحد) جاب ميراندون الشوارع من دون طائل ، وراء النقود . فلو تدبّر نقوداً كافية لكان عليه أن يخسر بعضها على الرقم ١٧ . رقمه كان ٣ ، لكونه رشيقاً مثل ٣٢ . اللعب على الرقم ١٧ كان تبديداً للمال ، وهو سيفعل ذلك كما لو أنه سيودع ضريح فادينيو زهوراً .

لكنْ ما دام اليوم هو الأحد ، أين يحصل على نقود ؟ فكل الناس في كرة القدم أو في السينما ، لا أحد في الشارع . صديقان أو ثلاثة من ذوي الفاعلية رفضا تمويل حظه ، إنهم بعض المتشائمين .

وحينما بات بلا آمال ، تذكر إشبينته ، الدونا فلور . ما هرع إليها قط من أجل مسائل الميسر ، إنما من أجل الاعتناء بصحة الأولاد وذات مرّة من أجل تصليح في سقف مسكنه حيث رفض المالك الوفاء بالتزاماته كمالك ، مظهراً نفسه شخصاً شحيحاً وقاسياً :

ـ تمطر داخل البيت ؟ فوق الأولاد ؟ بالنسبة إليّ يا سيد ميراندون ، بالوسع أن تمطر

---

(١) SARRABULO : كبد ودم الخنزير عند الطهي .

متى شاءت فوق أي كان؛ بالوسع أن يتداعى الجدار، السقف، أعلى السطح، فماذا يهمني؟ هل هو بيتي؟ إذ إن البيت يبدو من ممتلكاتك يا صديقي العزيز. وها قد انصرمت ست سنوات وأكثر وأنا لا أرى لون نقودك...

وإذا التقى الدكتور تيودورو؟ بعد الزواج الجديد للإشبينة، لم يزرها ميراندون إلاّ مرّة واحدة، فلم يشأ فرض حضوره على الصيدلي الذي لم يحب بالتأكيد رؤيته، هو الشديد الشبه بفادينيو، نسخته أو صورته، ليس جسدياً ـ فأحدهما أشقر والآخر خلاسي ـ لكنْ في الخلق أو كما يفضل البعض القول، في انعدام الخلق.

في فترة ما بعد الظهر تلك، لم يكن لدى ميراندون وسيلة أخرى؛ فإما إزعاج الإشبينة أو التخلّي عن اللعب.

ـ أنظري من يأتي إلينا... ـ قالت الدونا جيزا للدونا فلور وهما جالستان على مقعدين على العتبة.

ـ ربّاه! لقد أظهر نفسه لميراندون... ـ فكرت الدونا فلور في جزع إذ إن فادينيو المتوفى السابق قدم إلى جانب الإشبين، مرحاً وعارياً كلياً (تخلّى عن القميص ذي النسوة المثيرات).

كلا، فميراندون ما كان يبصره. مايزال الأمر حسناً. وبعد أن حيّا الدونا فلور والدونا جيزا، سأل الإشبين عن صحة الدكتور.

ـ إنها ممتازة. ذهب لاجتماع في الجمعية الصيدلانية...

ـ وأنا الذي ما كنت أعلم أنكِ كنت ههنا بمفردكِ... ـ قال فادينيو، إنما وحدها الدونا فلور سمعته ولم تبالِ للأمر.

تحدثت الدونا جيزا قليلاً، لكنها سرعان ما اعتذرت، متذرّعة بفروض اللغة الانكليزية لتصحيحها. فجلس ميراندون على المقعد الفارغ:

ـ أعذريني يا إشبينتي، جئت إلى ههنا لأزعجكِ لكنني في عوز مخيف...

ـ هل ثمة أحد مريض في البيت، يا إشبيني؟

كاد يختلق مرضاً، أحد الأبناء محموم، بحاجة إلى دواء وطبيب. لكنْ لماذا تكدير الإشبينة علاوة على كسب نقودها [1]؟

ـ كلا أيتها الإشبينة، ليس هو أي شيء من المرض... إنه اللعب حقاً...

ـ مازال الأمر حسناً أيها الإشبين.

شوهد آنئذٍ ميراندون على حين بغتة يروي كل شيء وبتفاصيل:

ـ ... صوته، نفس الشيء أيتها الإشبينة، يأمرني بالذهاب للمقامرة، اليوم من دون إبطاء. وإنه يجب ألاّ أتخلّف عن الذهاب...

كانت الدونا فلور تراه، جالساً هناك على إطار النافذة، تحت ضوء فترة ما بعد الظهر، ويلقي فادينيو عليها عينيْ الإغواء. وكانت تتصنّع عدم الرؤية، لكنْ ولو أنها لا تريد ذلك حقاً، فإن نظرها انحرف إلى عري الشاب، البشرة البيضاء والملساء، الوبر الذهبي، جرح الموسى، الفم السخي.

ـ كم تحتاج يا إشبيني؟

ـ شيء زهيد...

مضت لتأتي بالنقود، فرافقها فادينيو وفي الحجرة أخذها بين ذراعيه وقبّلها، ولم يكن بوسع الدونا فلور، المسكينة الصراخ، والإشبين في الباب ينتظر. وتلاشت مقاومتها في القبلة.

ـ أوّاه يا فادينيو... ـ أنّت في النهاية وهي نفسها كانت آنئذٍ تقدّم له شفتيها وقد أضاعت رشدها وحياءها.

---

(١) في الأصل COBRES: النحاسات.

كان فادينيو يجرّها إلى السرير، ساعياً إلى تجريدها من الملابس. ولو لم تسمع خطى الإشبين داخل البيت، لكانت الدونا فلور، ربما، قد تخلّت هناك، في تلك الساعة، عن شرفها كامرأة متزوجة، زوجة شريفة. فقد عادت إلى نفسها في اللحظة الأخيرة، وأغلقت ساقيها، وفكّت نفسها من القبلة ومن الغواية وخرجت من تحت فادينيو:

ـ يا له من جنون... مع الإشبين ههنا...

ـ إنه في الخارج...

ـ إنه في القاعة... دعني، يا له من عار!

سوّت شعرها بأصابعها وأصلحت من هندامها. وفي قاعة العشاء كان ميراندون يشرب ماء، فأعطته المبلغ مسحوقاً بالعرق الناضح من يدها.

ـ أشكركِ أيتها الإشبينة، حتى إنني لا أعرف كيف أشكركِ. إذا لم أكسب اليوم فلن أكسب أبداً بعد الآن. إنه لأمر مؤكد، كما لو أن الإشبين قربي ويزوّدني بالحظ.

في الباب المطل على الشارع، ضحك ميراندون وكشف مخططه:

ـ إنما هو يريدني أن ألعب على الرقم ١٧ وأنا سألعب على الرقم ٣ وعلى الرقم ٣٢، إذ إنني لست مجنوناً. فذات مرّة أيتها الإشبينة أصبت أربع مرّات متوالية على الرقم ٣٢، وكان ذلك عظيماً.

ـ أبله!

ـ هل سمعتِ يا إشبينة؟ هل سمعته يتكلم؟ أكان صوته ام لا؟ قولي لي.؟.

الدونا فلور، وجسدها رخو، قلبها فاقد الاعتدال، وفمها متقد وجاف، تكلمت بصوت خافت:

ـ لا تهتم له أيها الإشبين، لا تهتم، فهو أحياناً يتجنّى عليّ أيضاً...

لم يفهم ميراندون. وعلى أي حال كان كل شيء في ذلك النهار متعثّراً، بلا تفسير وبلا

معنى. كأن الليل يولد على حين بغتة ودفعة واحدة، في جوانب المغيب، متقدّماً على الساعة، من دون انتظار الوان الغسق الحمراء التي تخالطها الزرقة، ليلة زرقاء كلها. ساعة ميراندون حددت ساعة اللعب، وما كان بوسعه أن يخسر جوله واحدة، حتى ولا كرة واحدة

ـ وداعاً يا إشبينتي، غداً آتي وأدفع لكِ...

ـ لا لزوم لذلك أيها الإشبين. إذا كسبت إشتر أقراص حلوى [1] للأولاد، إعطها لهم باسمي...

أتى بوضع معيّن، وأكمل وهو يخفض صوته:

ـ ... وباسم الإشبين...

قبلة فادينيو أزهرت على وجهها كأنها كانت هواء تلك الليلة الزرقاء.

ـ حتى اللقاء القريب، يا حبي... إني آتٍ في الليل لأنتزعك من السرير... فانتظريني... إنتظريني بلا تردد...

---

(١) BOMBOMS

١٣

كانت ليلة الأحد، والقاعات ممتلئة أكثر من اللازم. الأوركسترا عزفت الفوكس، وخرج الراقصون ذكراً وأنثى إلى حلبة الرقص. ميّز ميراندون الأرجنتيني والدونا نانسي. وفي الصندوق أبدل المائة ألف ريس التي حصل عليها من الدونا فلدِر بفيشات ووضع إثنين في جيبه؛ من ذوات القيمة المتدنية: « هذان لرقم ١٧، رقم فادينيو، بعد وقت ». قسّم الفيشات الأخرى في مجوعتين متساويتين؛ النصف لرقم ٣، والنصف للرقم ٣٢.

على مائدة الروليت ابتسم للورنسو ماون ـ ده فاكا، مساعد مدير اللعبة، أحد معـارفـه القدامى. وبيد صائبة، قذف بفيش إلى الرقم ٣، وبفيش آخر إلى الرقم ٣٢. وهنا دار الفيشان في الهواء وسقطا كلاهما معاً على الرقم ١٧. في اللحظة ذاتها التي أعلن فيها لورنسو إتمام اللعبة.

كسب، هذا واضح، الرقم ١٧. ولم يتوقف أبداً عن الكسب. دائماً وأبداً وبالتأكيد، لو لم يأمر بيلاننشي مولاس ـ عند منتصف الليل بفترة قصيرة، بذريعة عطل في حوض الروليت ـ بتعليق اللعب.

١٤

في شقة زولميرا ، في المكان الذي ترتاح فيه الهجينة ، في عظمة تدييها الوفيرين ، كان بيلانتشي مولاس يصغي إلى تقرير الأستاذ ماسيمو ساليس : حوض ومائدة الروليت ، فُككا قطعة قطعة ، وأخضعت لجميع التجارب ، ولم يظهر أي عيب أو عطل ، ولا أي علامة للغش .

ـ كنت أعلم . . . إنه بلا طائل ـ أنّ الملك البائس .

هناك في ذلك المسكن المعروف فقط من بعض الأشخاص القلائل ، كان يختبىء الرجل العظيم ، صاحب المدينة ، رئيس الحاكم ، هارباً من الإلحاحات والإزعاجات . في مكتبه (« بيلانتشي مولاس متعهّد ») كان صف دائم ، من الصباح إلى الليل ؛ أفراد من مختلف الأنواع ، لجان من جميع الأشكال وكل منها مع لائحته ، رسالته ، طلبه ، مشكلته ، عاهته ، احتياله . كان الجميع يأتون سعياً إلى المال .

مالٌ لبناء كنائس ، شراء نواقيس ، إسهامات من أجل المستشفيات وأعمال البر ، من أجل ملاجىء العجزة وإصلاحيات الأطفال ، مساعدة لقوافل الطلاّب إلى الجنوب [١] وإلى شمالي البلد [٢] . صحافيون وسياسيون ، شرهون ، جشعون ، محتاجون جميعهم لمال زهيد من أجل

---

(١) المقصود ولايات الجنوب مثل سان باولو والريو وغيرها .
(٢) المقصود ولايات بارا وبارايبا وغيرها .

خلاص الوطن والخلق المسيحي ، الحضارة ، والنظام ، من التهديد القائم والمميت بقلب النظام والإلحاد . أدباء مع مشاريع مجلاّت ونسخ أصلية لكتب ؛ « أنت أيها السيد صديق الثقافة ، صديق الآداب والفنون ، صديق الشعر ، أنت نصير الأدب والفنون بالذات القائم من بين الأموات » . (كانت لدى بيلانتشي الرغبة في القول : « نصير الأدب والفنون هي العاهرة التي أنجبتك » ؛ وبدلاً من هذا كان يلقي مبلغاً من عشرين أو خمسين ، حسب ما يكون طالب المال ، شاباً عبقرياً أو هرماً ينظم قصائد) . مصلحون ، أخلاقيون ، كاثوليك ، بروتستانت ، أصحاب فلسفة باطنية ، جميع الذين يحاربون العادات السيئة والفوضوية ، الخطر الشيوعي والحب الطليق ، التخلّي الجائر عن قواعد علم النحو البرتغالي (الضمير المنحرف في بدء الجمل) ، وقصر المايوهات الفاضح على الشواطىء (يعرض كل شيء حتى الأعضاء الحميمة) . جمعية أمهات العائلة في مراقبة دائمة ضد الكحول ، البغاء والميسر ، حيث أن أمهات العائلة وخصوصاً أنطونيا شينيلينيا ، في بداية وظيفتهن الواعدة . الجمعية الحامية للبعثات التبشيرية في أوقيانيا . الحملة ضد الأميّة خاصة الرائد كوزمي ده فاريا . جمعية التقوى التابعة للقديس جينارو والنادي الكرنفالي لسمراوات كابولا المرحات . مرضى بجميع الأمراض ، من الجذام إلى السرطان ، من الطاعون [1] إلى البيري ـ بيري [2] من المرض الناتج عن الجروح إلى مرض القديس غويدو وكتائب العميان ، مقطوعي السيقان ، مقطوعي الأذرع ، من دون الكلام عن المعتوهين وأولئك الذين يأتون طالبين مالاً ، ببساطة خالصة بلا أية ذريعة ، بوجوه أشد نظافة من هذا العالم .

كان بيلانتشي يرتاح من كل هذا في شقة وثدييْ زولميرا ، وهي الأمكنة الملاجىء وإنها الآن أثمن مما مضى . ففيها فقط يمكن استيعاب الخوف المريع الذي يهاجمه ، يسيطر عليه . وهناك يصغي إلى مساعديه : كلام لا طائل منه ، بلاهات .

ولأن ماسيمو ساليس لا يرضى أن يكون مغلوباً ، عرض خطة جريئة وبسيطة : لماذا لا

---

(١) BUTONICA : وباء معد ينقل إلى البشر عن طريق براغيث تكون عادة في الجرذان المصابة بهذا الوباء الطاعون .

(٢) BERI BERI : مرض خطير يحدث أوراماً في الجسم .

تنتهز فرصة تفكيك الروليت ويوضع كل ذلك قيد التحكم؟ كيف؟ حسناً، كيف...
نجعل حوض الروليت معوّجاً بشكل يغدو فيه من المستحيل أن تسقط الكرة الصغيرة في
قطاع الرقم ١٧. إنها خدعة قديمة مثل لعب الروليت نفسه. بلا شك هي خطيرة، وغير
شريفة بالتأكيد. لكنْ إذا لم يكن الأمر هكذا، كيف حصلت البرهنة الأخيرة؟

كان ماسيمو يحتفظ بوضعه الأول، إن جميع تلك الافتراضات العبثية التي يرى فيها
بيلانتشي اليد السوداء للقدر الفظيع، ليست أكثر من عملية غش مخيفة، عمل عصابة
ـ أجنبية! ـ متعاقدة مع مفتشي ومساعدي مديري اللعب، مع آريغوف وآناكريون، مع
ميراندون.

أي عصابة، أي أجانب، أنا مستنقَد، أنا خرب! [١] ـ بالنسبة إلى بيلانتشي مولاس
كل ذلك الحديث الذي يقوله ماسيمو ساليس كان مضيعة للوقت ولا شيء أكثر. لا
عصابة ولا عملية غش. أسوأ من ذلك؛ فأعداؤه، من أجل تدميره، أطلقوا يد القوى
الخارقة، التي لا يمكن السيطرة عليها إنها خارج نطاق الأرض.

في طريقه الذي لم يكن دائماً سهلاً، زرع بيلانتشي أحقاداً دفينة، عداوات ميتة. وحينما
لزم الأمر، كانت يده ثقيلة وقاسية، تاركاً في مروره أثراً من اللعنات وحلف الإيمان
بالانتقام. وهو يرى نفسه الآن واقفاً حائراً وسط السحر وأعمال الشياطين.

بيلانتشي ما كان يخشى البشر، ولا العراك، ولا خصماً قاسياً. لكنَّ ذلك الغانغستر
العصري، إبن قرن الأنوار والتقنية ذاك، كان يلجأ تحت الحرامات إزاء أول شخير
للرعد، في خوف من ضوء الأشعة اللامع، مجرّد ولد من كالابريا، فلاح صغير، إبن
الخرافات والبؤس.

– MALEDETTO [٢], SONO STREGATO!

ـ حسناً جداً ـ قال ماسيمو ساليس الذي لم يكن يخشى إلاّ البشر ولا يؤمن بأرواح من
العالم الآخر، المفكر الحرّ، ساعياً إلى إيجاد تفسير عقلي ومنطقي لكل ظاهرة ـ حسناً جداً،

---

(١) وردت بالإيطالية: SONO FREGATO, SONO FUTUTO

(٢) في الايطالية ومعناها: أنا ملعون، أنا مسحور!

لندع هذا الآن، ولنجعل الروليت معوّجة ثم نرى. إنه عمل ممنوع وغير نزيه. أنا أعلم، ولا تسرّك مثل هذه الوسيلة، ولا أنا تسرّني. إن الأمر هو بصدد وسيلة متطرّفة على كل حال، وما هو أشد منها رداءة هو ما يفعلونه بك أيها السيّد، ألا يبدو لك ذلك؟ فإذا كسب الرقم ١٧ مع الروليت في وضع معوّج ـ وأنت أيها السيّد تعلم جيداً أنه مستحيل ـ أوافق أنا معك؛ إنه فعلاً شيء من عمل الشيطان ونستسلم للحل مع جماعة الماكومبيروس[1].

قلّص بيلانتشي مولاس كتفيه؛ إذا كان ذلك لانتزاع الدليل فليكن ذلك وحده، ليفعل ماسيمو ما يبدو له أفضل من سواه، ليلحق العيب في الروليت لكنْ بكل حرص وسرّية.

ـ أنا نفسي سأقوم بالعمل، أركن إلى الراحة.

ـ ولليلة واحدة فقط...

ـ موافق، هذه الليلة فقط.

غادر ماسيمو وهو يفرك يديه، لينفذ مهمته الدقيقة. وكان كل ذلك يبدو لبيلانتشي مولاس غير مجدٍ. فقد أزفّ الوقت ليضع فيه ثروته وقدره في أيدٍ أكثر فاعلية من يديْ ماسيمو وأيدي الشرطة. وإذا وُجد أحد ما قادراً على اكتشاف تفسير ذلك اللغز، فهذا الشخص هو كاردوزو وإس أ الفيلسوف صاحب الكرامة من الصالحين الذي يخطط ذهنه السامي إلى البعيد، في المتاهات اللانهائية، إشراق في الفضاء الكوني، كاشفاً الماضي والمستقبل، إذ إنه يحيا في نفس الوقت في الأمس، في اليوم وفي الغد، في القمم المضاءة وفي الهاوية السوداء.

وزولميرا بدورها كانت ذات شكوك، كان ذلك شيئاً سحرياً، الشيطان طليقاً. لم تخبره قبلاً كيلا تزيد قلقه، وسبق لبيكيتو[2] أن كانت لديه دوافع كثيرة لإثارة قلقة. ففي

---

(١) MACUMBEIRO: الشخص الذي يمارس الماكومبا، اي الطقوس السحرية الممارسة من الزنوج المؤمنين بالسحر.

(٢) اسم الدلع لبيلانتشي.

بالاس، عند العشية، ساعة تعليق اللعب، كما حدث سابقاً، لمس شخص غير مرئي ثدييها ودغدغها. ولم يرض بذلك ـ يا للرعب، ربّاه! ـ دسّ نفسه تحت تنورتها وقرصها من مؤخرتها:

ـ أنظر يا بيكيتو... إختلس النظر...

رفع الرداء. تحته كانت تشرق البشرة التي بلون النحاس: حيث استطاع أن يرى، علامة أصابع فادينيو الحمراء المائلة إلى الزرقة، وهو برهان قطعي على المجهول:

ـ حادث فظيع! ـ قال الكالابري، جاعلاً من الضعف قوة، وفي ذلك الغموض المعتم غاص.

١٥

أحمق وسفيه! دائماً كان فادينيو هكذا ولم يتغيّر في سنوات غيبته:

ـ سآتي ليلاً لأنتزعكِ من السرير. إنتظريني...

كما لو أن الدونا كانت آخر البغايا، جد داعرة لدرجة أن تستسلم للمجون أمام زوجها الذي يعتريه النعاس. فعلى السرير الحديدي ينام الدكتور تيودورو النوم المشهور للعادلين، الشخص النبيل في هجوع مطمئن، تنفّسٌ منتظم، كأنه يغطّ على إيقاع البوق.

الدونا فلور تتأمل الوجه المشرّف للزوج وتسيطر عليها موجة من الحنان؛ لا يوجد رجل أفضل منه، إنه زوج كامل. حيوي، قوي، خُلقٌ نقيٌّ، ويقال أيضاً إنه شبيه بالماس، والدونا فلور مصممة على أن تقطع دفعه واحدة وإلى الأبد تلك الخدعة المزدوجة والتي لا أساس لها، غير الخليقة بظروفه وشرفه.

من الأفضل أن تنتظر في القاعة، تنتقل إلى هناك احتراسها، وهذا أيضاً أكثر ضمانة. فلن تتعرّض للمجازفة برؤية نفسها بين ذراعيْ فادينيو في ذات الحجرة حيث ينام الزوج الآخر (الطيّب والنزيه). لأنها هي عبدة الحواس، وجسدها متحلل، مادة شريرة، تخشى الدونا فلور أن تستسلم على حين بغتة. لم تعد رغبتها تطيعها، وتختفي قواها حالما يظهر فادينيو، وإذا اقترب هو، فإن دوّاراً يعتريها وتغدو فضيلتها تحت رحمة المغوي. إنها لم تعد مالكة جسدها، والمادة الجامحة لم تعد تطيع روحها، بل إنها رهن رغبة فادينيو.

ما زالت حتى الآن لم تمكّنه منها، هذه حقيقة خالصة، لكنْ ربما لأنه في الأيام الأخيرة كان فادينيو لا يترك نفسه يراها تقريباً، فهو مرّة أخرى مستسلم للعب، مختفٍ في حياة الفساد.

هكذا في تلك الليلة كان قاطعاً جداً، حاسماً جداً: «إنتظريني، بلا تردد إنتظريني، سآتي ساعياً إليكِ في السرير». لم يكن لديه حتى ولا اعتبار، فقد وعد بالمجيء وترك نفسه ملازماً اللعب، إذا لم يكن في بيوت النساء. الدونا فلور تمشي في القاعة، تفتح النافذة، وتختلس النظر إلى الشارع، وتعدّ الدقائق.

كثير من حلف الإيمان على الحب، هيام معلن، كلمات كاذبة. فالدونا فلور هناك وحيدة تنتظره، وهو غير قادر على أن يضحّي بلعبة قمار واحدة. ربما يأتي أيضاً، بعد الكرة الأخيرة.

لكنْ اللعب قد انتهى. فالدونا فلور تعرف جدول المواعيد، جميع تفاصيل الكازينوهات أليفة جداً لديها، وانتظار فادينيو هذا بدأ منذ سنين طويلة. أين هو، أي حفلة تحبسه، بمن أبدل الوعد المقطوع للدونا فلور؟ فادينيو، لماذا تدير ظهرك لمشاعري، لماذا لا تأتي، إذا كنت قد وعدت بالمجيء وأنا أنتظرك في قنوط كياني نفسه؟ ماذا تهمني الحشمة، الشرف، البيت السعيد، الزوج النبيل؟ إن ما يهمني فقط هو حضورك، فلماذا تنبأت برغبتي؟

في الصباح، في درس الطهي، كادت الدونا فلور وهي متوترة وغير محترسة، أن تفقد مكيال الأرز وفي قعر القاعة صوت زولميرا سيمونز فاغونديس يروي وهي شديدة، الانفعال:

ـ أيتها البنات، إنها رقية، وأنا خائفة... إنكنَّ لا تتذكرن أنني في يوم آخر ههنا في الدرس أحسست بشيء ما يمسّد ثدييَّ؟ إذ إن هذه القصة تتواصل...

ـ رأت التلميذات أنفسهن في إثارة شديدة

ـ ماذا؟ كيف؟ أخبري...

ـ البارحة ليلاً كنت في بالاس...

ـ إنكِ لا تضيعين حفلة سواريه في بالاس...

ـ إنه يشكل جزءاً من عملي...

ـ إن ما أردته أنا هو عمل كهذا ...

ـ أخبري يا زولميرا ...

ـ حسناً، البارحة ليلاً كنت أنا في بالاس مع رب عملي وكان شيء ما في الروليت، كان يكسب الرقم ١٧ فقط...

كانت الدونا فلور تصغي وهي في وضع تأملي.

ـ في الساعة ذات التعقيدات الشديدة، أحسستُ بنفس الشخص غير المرئي يلمس ثدييَّ وبعدها ... ـ أخفضت صوتها ـ... قرصني قرصة شديدة في الوركين...

ـ قرصة من الشخص غير المرئي؟ لا تقولي هذا... ـ شككت إحدى السيدات وهي قليلة التأثر بالقسم الخلفي الجاف من الجسم.

ـ ألا تصدقين؟ حسناً، مازالت لديّ العلامة.

لم تشأ زولميرا أن يُنظر إليها ككاذبة، فرفعت تنورتها وعرضت الورك الذي يثير الغيرة حتى من الزميلات المتمتعات جيداً بمادة العجيزة. كانت العلامة الناتجة عن أصابع فادينيو، وقد بهت لونها. وخرجت الدونا فلور من القاعة في صمت.

أثناء النهار بطواله، انتظرته الدونا فلور وهي حزينة فقط. لم يأت فادينيو. حتى ولا في الليلة الثانية. فكل ذلك الهيام كان كذباً، وهذيان الحب كان زيفاً ونفاقاً. الدونا فلور تنتظره وهي تعاني الأرق، وأثره واضح في القمار أو تحت تنورة زولميرا يقرص مؤخرتها. إن فادينيو شهواني وغير مسؤول، متصنّع وغير وفيّ، بلا قلب. الدونا فلور طليقة من جميع التناقضات، طليقة في نفس الوقت من الخفر والرغبة.

١٦

في ساعة النصر، لم يمتلىء الأستاذ ماسيمو ساليس زهواً. خلاف ذلك، عزا نجاحه، بتواضع، إلى المثل القديم وهي صيغة مبرهنّ عليها: « للنصّاب، نصاب ونصف ». إنه علاّمة بلا عجرفة، عالم حقيقي بالآداب القديمة.

يجب ألاّ يأتوا بعد الآن بقصص أرواح العالم الآخر واحاديث الملموسين[١] وأعمال السحر. يكفي أن توضع الروليت بشكل معوّج لكي تذوب جميع أعمال السحر في جلاء الغش، ولا يبقى الآن إلاّ أمر واحد، هو اكتشاف المسؤول، رئيس، رأس العصابة وتصفية الحسابات معه. وكان لورنسو ماون ـ ده ـ فاكا يطلق الكرة الصغيرة في حوض الروليت وهو بريء من المؤامرة؛ ففي الأمس كسب فقط الرقم سبعة عشر. واليوم لا يكسب ولا مرّة واحدة في الليلة كلها.

في وجه بيلانتشي مولاس تناقص التوتر لم يكن يخشى إلاّ القوى الخارقة، ولا شيء غيرها. لكنْ أي قوة غامضة كانت هذه، العاجزة عن التغلّب على خديعة الروليت؟ فماسيمو جرّد عملية الغش من قناع الغموض، وبيلانتشي بذراعه الطويلة وذات السطوة. سيصل إلى المسؤول، جاعلاً إياه يدفع مع الفوائد مال الآخرين، الجرأة، الوقاحة، وفوق كل شيء الساعات الزاخرة بالجبن، الخوف الظاهر، الهلع الذي يتوّج قلبه. بيلانتشي بين

---

(١) من أصيبوا بالسحر.

زولميرا ودومينغوس بروبالاتو ، وهو في سلام من جديد مع العالم ، يبتسم للاعبين ؛ فلم يعد يتواجد ابتسامة أكثر منها تودداً وبشاشة .

فيما يحدث هذا ، كان ميراندون الفار والثمل ، ينام في شقة كارلا ، في مقصورة الزينة الجميلة والعديمة الاحتشام والعابقة بالورد . في الأمس ، حينما أمر بيلانتشي مولاس ، في انعدام سيطرة مرئي على نفسه ، بتعليق اللعب ، لم يكن لورنسو ماون ـ ده ـ فاكا ، مساعد مدير اللعبة ، ودومينغوس بروبالاتو الحاضران ، وحدهما اللذين شاهدا نفسيهما متحررين من ذلك الكابوس الذي لا يمكن فك رموزه . ففي وسط بحر من الفيشات ، لم يكن الإشبين ميراندون يشعر أنه أقل منهما ارتياحاً ، لأن ذلك الشأن عبثي ومثير للرعب .

فيما كانت الروليت تنشد الرقم ١٧ ، بقي ميراندون بين الفرح والرعب . الفرح بسبب حظ الفقير المدقع والرعب بسبب غياب أي حد لحظه الشيطاني هذا . في تلك الليلة انهارت سدود الثروة ولميراندون آلت جميع الفيشات في الكازينوهات . لكنْ هل كان ذلك الحظ حظه هو ، ميراندون ، حقاً ؟

كل شيء مريب وغريب ؛ فصوت فادينيو في سمعه ، بدءاً من صباح العصافير ، في ساعة الساراباتيل وفي الشارع خارجاً . الزيارة إلى الدونا فلور ، الكلمات الغريبة ، الجمل الغامضة ، وهو يستمع إلى شتيمة المرحوم ، كأن ، إضافة إلى ميراندون والإشبينة ، كان لفادينيو أيضاً قسم من الحديث . وبعدها تلك الفيشات السحرية ، تسقط على الرقم ١٧ فيما اللعب على الرقم ٣ وعلى الرقم ٣٢ . وفي منتصف الليل أراد ميراندون ، بدافع العناد والبرهنة ، المراهنة من جديد على رقميه المفضلين وحمّلها الفيشات . لكن الفيشات مضت إلى هناك ، على حسابها الخاص ، ولا أحد يعلم كيف ، لتظهر على الرقم ١٧ . وأخيراً من كان ميراندون ؟ لاعب قمار أم لعبة القدر ؟

خرج من بالاس وهو مليونير متعجرف وذو قلب مغتم . توجه إلى شقة كارلا ، المكان الملائم لاحتفالات عظائم الأعمال مثل ذلك العمل ، وفي ساعات الحزن هو البيت الملاذ . عهد بماله إلى الإيطالية البدينة ، وهي سيدة طاهرة الذمة وذات وسواس (لقد فوّضها ، هذا واضح ، الإنفاق على الحفلة ، ما تراه ضرورياً بلا تقتير) . كان يخشى المبالغة في الحنان من

النساء أو الميل المباغت من الأصدقاء المضاعفين حينما يدور على نفسه سكران. لأن ميراندون في تلك الليلة هيّأ نفسه ليعاقر الخمرة بشكل جدّي في حياته، وفيها يغرق نهايات تلك الأحجية، أجزاء ذلك الهراء.

دخلت الحفلة التي أدارتها البدينة كارلا فترة النهار والذين قاوموا أكثر من غيرهم، مثل الأديبين روباتو فيليو وآوريو كونتريراس (دائماً مع زهرة في عروة السترة) والصحافي جوان باتيستا، تناولوا الغداء في الشقة عند الصباح التالي، فيجوادا زاخرة بالعبقرية والامتلاء من الكاشاسا والنبيذ الأخضر. بعد تلك المسيرة الماراتونية[1] فقط، سقط ميراندون من الإعياء ونُقل على محفّة من قبل البنات[2]، كجسد ميت. وجرّدته اللطيفات من ملابسه وأعددن له حماماً دافئاً، ذا حوض. وضمّخنه بالعطر والمسحوق الناعم، ثم مددنه في النهاية لينام على السرير ذي الفراش الذي ترقد عليه ذات البطن الضخم، في المقصورة المخصصة لضيوف الشرف، كلها من الساتين والورد.

لقد استشفّ ميراندون وبعض المدعوين الأشد حساسية، مثل التي ذُكرت سابقاً آميسينا ـ آمي ده أميريكو أبوها وسينا دو روزينا أمها ـ في الوسط حضور قوة لا يمكن سحقها، تدير الحفلة. كيف يصار إلى تفسير هذا، إلاّ بالوصلة التي قدمتها البدينة كارلا في رقصة الخَمْرُ السبعة، وهو مشهد سامٍ ومخيف؟

وبدوره ماسيمو ساليس، مع أنه جد واقعي، مفكرٌ حرٌ، كان لديه الانطباع بأنه مُراقب، حينما نفذ في فترة ما بعد الظهر تلك، في قاعة اللعب (بمساعدة من دومينغوس بروبالاتو فقط، الأخ بالرضاعة لبيلانتشي) بدقة وبوعي، بإتقان فنان، المهمة الصعبة في اعوجاج الروليت. أحياناً كان الإحساس جد قوي وغريب، بحيث أنه اضطر لتأجيل العمل وأن يجوب القاعة بعينيه، بحثاً عن الشاهد غير المرئي.

عند حوالي منتصف الليل، حينما بلغ اللعب انتعاشه الأكبر، وفي أعماق نعاسه الثقيل،

---

(١) نسبة إلى الماراتون، وهي المسافة البالغة ٤٢ كيلومتراً بين أثينا وسهل ماراتون حيث مات رسول اليونانيين إلى أثينا من الاعياء ركضاً.
(٢) المقصود: بنات الهوى، الجاحات.

الثقيل من الإرهاق والكحول، سمع ميراندون نفس الصوت الذي سمعه في العشية. في البدء غير دقيق، لكنْ سرعان ما بات واضحاً وشبيهاً بصوت فادينيو، والصوت كان يأمره في العودة إلى مائدة الروليت، بشكل عاجل: إلى بالاس، بسرعة، إمضِ الآن في الرقم ١٧. في الرقم ١٧ وفي الرقم ١٧ فقط. هيّا بنا!

وإذ فتح عينيه، رأى ميراندون نفسه وحيداً مع خيالات الليل وذلك الصوت. وهو منكمش بين الملاءات، ميت من الخوف، سدّ أذنيه بالوسادة، غير راغب في الإصغاء. في ذروة الحفلة، في العشية، سأله آناكريون: «أنت أيضاً سمعت صوت فادينيو موشوشاً في سمعك؟ إن صديقاً مثله لا يوجد إثنان. حتى بعد أن مات، لا ينسى الناس».

لم يشأ ميراندون الإصغاء لكنه أصغى، فسمع بوضوح؛ كان مأخوذاً، مسحوراً بإيغون مركّز في نقرة رأسه. يجب أن يذهب بأسرع ما يمكن إلى كاندومبليه[1] الأم الكاهنة من أجل الصلاة على جسده ويقدّم ديكاً للإلّهة أوريشا، وربما تيساً.

من فوق الوسادة تابع الصوت تحذيره، مهدداً على وجه التقريب، فلم ير ميراندون مخرجاً آخر، أكثر جدارة وأقل ضعة، إلاّ في رفع عقيرته بوجه الناس مستغيثاً بهم، جاعلاً الشقة في اضطراب. فاستماحت كارلا الطيّبة الأعذار من قاضي الاستئناف الشديد الوقار، وهو زبون لامع ومتباطىء راضٍ بكفاءته، ومضت تلبي طلب الضيف المرتعب. وحينما احتضنته بذراعيها وخبأته بين ثدييها، أقسم لها ميراندون بروح أمه وبسعادة أبنائه، بأنه لن يعود أبداً إلى الميسر، في حياته مطلقاً. ولن توجد قوة إنسانية (أو خارقة للقوة الإنسانية) قادرة على جعله يلمس الفيشات مرّة أخرى.

---

(١) CANDOMBLE: المكان الذي تمارس فيه أعمال السحر مثل الماكومبا.

١٧

عندما استدعى الهاتف جيوفاني غيارايس كان نائماً منذ أكثر من ساعتين. لقد اعتاد مع الزواج الرقاد والنهوض باكراً، وهي عادات صحيّة للغاية في رأي الزوجة. فلا شيء أكثر نفعاً وضرورة لصحة جيدة ولوظيفة تحظى بالنجاح، فوق كل شيء لمن أضاع قبلاً كثيراً من الليالي، عائشاً حياة شاذة مذمومة.

ههنا رجل ـ الصحافي المعروف جيوفاني غيارايس ـ تبدّلت حياته كلياً وفي وقت قصير. من يوم لآخر، كما يقال. وهو برهان على فضائل الزواج من امرأة تكرّس نفسها له وذات حيوية، قليلة الاستعداد للموافقة على الإساءات والصفاقات. واحتفظ جيوفاني بمرحه اليسير، ضحكته العفوية، أكاذيبه، مبالغاته. في المظهر كان هو نفسه، ذو اللسان الذرب. ذلك الذي يعلم جميع التفاصيل في المدينة ـ سياسيين، ماليين، خائني زوجاتهم، الجميع لكنْ في المظهر فقط، لأن البوهيمي الذي لا يُصلح شأنه، المتسكّع ليلاً، المقامر، هذا كان قد انتهى، الأمر الذي أثار استغراب الكثيرين.

ذات مرّة، فيما الأسرة مذعورة من الأنباء الواصلة من إقطاعية أوراندي، أرسلت إلى باهيّا أحد أبناء العم وهو المحصّل، المشهور بالرجعي، لتفحّص موقف الإبن المبذر. فحلّ المحصّل ضيفاً على جيوفاني في شقته كعازب، في بييدادي، ومن أجل القيام بالمهمة الدقيقة خير قيام، اصطحبه في دليل أسفاره[1] خلال أسبوع لا يُنسى. وعند عودته لخّص

(١) ROTEIRO : وصف الرحلة التي يقوم بها الرحالة، والمقصود هنا: جولاته الليلية.

التشخيص في كلمة وحيدة: « لا يمكن إصلاحه! ».

هكذا كان يبدو، على الأقل، مبدأ الرواتب وعائد الإرث في أوكار القمار وهنا وهناك، وأبدل جيوفاني النهار بالليل، ولا يظهر في الدائرة، إلاّ لقبض المرتب. إنه مثقوب بالديون، متعاطف مع الأفكار المرتابة، في ماذا كان يفيده صيت الصحافي، بريق الذكاء، الرشاقة المشعّة التي جعلت منه صديقاً لجميع الناس؟

وإذ استرجع القريب نفسه في وظيفة التحصيل، في الدين وفي الأسرة، اعتبر أن إصلاح جيوفاني مستحيل إلى أقصى حد إلاّ إذا كان أخرق بشكل كامل لكي يتخلّى عن تلك اللذائذ. وفوق كل شيء، إحداهن، الزينة اللطيفة في بيت زازا، إسمها جوكوندينا، ومعروفة أكثر باسم كويزينيا دوسي [1]. وكان المحصّل يقول للأسرة والدموع في عينيه، وفي فمه ماء:

ـ أفقدوا الآمال... إنه امرؤ فاسد... لن يغدو مستقيماً أبداً.

حسناً، لقد بات مستقيماً. فحينما اعتُبر حالة خاسرة، شخصاً لا يمكن إصلاحه، حدث له الحب وفي شهرين بلغ الزواج. ووُجد من تحسّر على العروس: « مسكينة، ستلعن اليوم الذي تزوجت فيه، فجيوفاني هذا شخص مخبول ».

هكذا كانوا يقولون لأنهم لم يعرفوا الفتاة، في خداع مظهرها الهادىء، ذات التصرّفات الخجولة تقريباً. وبعد ستة شهور من الزواج، وقد عاد رجعي السرتون [2] إلى العاصمة [3]، هزّ رأسه: « مسكين جيوفاني! » وخرج مسرعاً إلى منزل زازا، فربما ما تزال كويزينيا دوسي مستعدّة لقبول الذهاب إلى الريف للتعرّف عليه، الحياة الريفية.

كان جيوفاني شخصاً آخر، وإن أحداً ما لم يره على مائدة اللعب أو في قصف من أي نوع. كان يجازف في كل شهرين مرّة بعشرة توستونات على البيشو وهذا كان كل شيء.

---

(١) معنى الاسم: الشيء اللذيذ.

(٢) SERTAO: المنطقة الريفية في شمالي شرق البرازيل.

(٣) المقصود عاصمة ولاية باهيا، مدينة سالفادور وأحياناً يدعونها « باهيا » باسم الولاية.

فجمال المرأة لم يكن إلاّ على شاشة السينما . وخلاف ذلك فهو سيّد ذو اعتبار شديد ، موظف كامل ، أبو أسرة كما يرغب ، يسير في الشارع متأبطاً ذراع الزوجة ، وبالذراع الأخرى ابنته لودميلا ، إطار مثير للإنطباع!

ظهرت عليه بداية الصلع ، أفكار محافظة ، عادات ملكية وطموح إلى الأراضي والبقر ، كما ترى ، إنه رجل قد صلح شأنه كلياً للمجتمع ، للأسرة وللإقطاعية .

هكذا كان جيوفاني ينام منذ أكثر من ساعتين ، عندما رنّ الهاتف . فغادر السرير شاعراً بالدوّار بسبب النعاس ، وتناول الجهاز : من كان يا تُرى ؟

ـ هل أنت جيوفاني ؟ ـ سألوا من الجانب الآخر .

ـ أنا هو ، أجل . من يتكلم ؟

ـ إنه فادينيو من يتكلم يا جيوفاني . تعال راكضاً إلى بالاس والعبْ على الرقم سبعة عشر ، إلعب بلا خوف إذ إنك ستكسب ، وأنا أضمن ذلك . لكنْ تعال بسرعة ، تعال راكضاً . . .

ـ سأذهب في هذه اللحظة .

ومتجنباً إحداث ضوضاء ، ارتدى ملابسه بسرعة . الأمر حسنٌ أيضاً إذ الزوجة لم تستيقظ وليس لديه وقت للتوضيحات ، مع مثل هذه العجلة في الخروج لدرجة أنه نسي المفاتيح ، الوثائق ، محفظته مع النقود . وعند الناصية كانت تمرّ سيارة بالأجرة [1] ، فاستقلّها ، وحينما مضى ليدفع أجرة الانتقال ، عند باب بالاس ، تنبّه إلى فقدان المحفظة .

ـ نسيت المحفظة . . .

ـ لا شيء في الأمر أيها الدكتور . . . سأحصّل ذلك في الجريدة . . . ـ تعرّف جيوفاني إلى السائق ، إنه الغجري ، دائماً متواجد عند الفجر .

---

(1) TAXI

لقد عرف السائق ولم يعرف نفسه ذاتها، جيوفاني غيمارايس. أي شيطان أتى به إلى ههنا، أمام باب بالاس، في الساعة الواحدة صباحاً؟ مخابرة هاتفية أيقظته، كان هو فادينيو يوصيه بالرقم سبعة عشر. لكنْ فادينيو مات منذ بضع سنوات، قبل أن يتزوج هو، جيوفاني. إنه حلم بالتأكيد، نوع من أضغاث أحلام.

لكنْ، حلم أو كابوس، بما أنه أتى إلى ههنا، فالشرّ قد حدث ـ خرج من البيت ليلاً خفية؛ أوّاه، من المستحيل تجنّب النتائج ـ ولم يتبق له إلاّ الاستفادة من الهاجس. كان هواء الليل وهواء الحرية يغلّفانه وشعر جيوفاني بأنه بطل تقريباً وهو يرتقي السلالم إلى اللعب.

بالرغم من أن الساعة متأخرة، كانت الحركة في القاعة عظيمة، وفوق كل شيء إلى جانب مائدة الروليت. وقد حُيي جيوفاني بحماس ملكي:

ـ عيون طيّبة تراك...

ـ أي معجزة هي هذه؟

اقترب من بيلانتشي، واستشاره الصحافي:

ـ هل أستطيع تقديم سند؟ خرجت مسرعاً جداً فنسيت المحفظة ودفتر الشيكات...

ـ كما تريد... الصندوق هو صندوقك...

ـ الضروري فقط للتحقق من هاجس... حلمت بالرقم ١٧...

ـ الرقم ١٧؟

اتسعت الابتسامة في وجه ماسيمو ساليس، لكنّ بيلانتشي مولاس أحسّ بنكبة مفاجئة، بهاجس غير مسرّ. كتب جيوفاني السند، وبعد أن أخذ الفيشات وضع إثنين على الرقم ١٧.

وعلّق أحد ما:

ـ اليوم لم يكسب ولا مرّة واحدة.

وتعالى صوت لورنسو ماون ـ ده ـ فاكا :

ـ اللعبة قائمة . . .

دارت الكرة الصغيرة في حوض الروليت المعوّج ، من المستحيل أن يكسب الرقم ١٧ . وجه ماسيمو ساليس مشحون بالخطر كوجه قديس ، مشدود كوجه بيلانتشي مولاس.

وأعلن لورنسو ماون ـ ده ـ فاكا :

ـ أسود . سبعة عشر .

١٨

مساء يوم سبت، ذو اكتئاب ومطر. من الصعب جداً أن تبقى وحيدة مع حزنها. حتى ولا هذا تمكنت منه الدونا فلور. فقد مضى الدكتور تيودورو، آخذاً المظلّة ومرتدياً المعطف المصنوع من المطاط، ومعه البوق للتمرين في منزل الدكتور فينسيزلاو. اعتذرت الدونا فلـور مع صداع نصفي شديد [1] والمزعج للأحاديث حول الأزياء والاستقبالات، حول حياة الآخرين. ولم تتآلف أيضاً مع رتابة التمرين. هذا ما لم تقله له، إنه واضح، خلاف ذلك، أبدت حسرتها لعدم سماعها مرّة أخرى، التأليف الجديد للمايسترو آجينور غوميس الذي سرّها كثيراً، وهي معزوفة فالس احتفاءً بالدونا جيزا التي جعل الموسيقي من نفسه صديقاً لها: «تنهدات في ضوء القمر على الميسيسيبي».

والدونا جيزا بدورها منذ فترة قصيرة قدمت لتدعو الدونا فلور إلى عرض لأعمال الكابويرا في بعض الأراضي البور من أجل فرق الأمارالينا. أيتها الغرينغا الماجنة، دائماً تأتين بأمور جديدة. كيف أذهب، إذا كنت لم أذهب إلى التمرين، فالجسد رخو والحيوية متلاشية؟ بنفس الشيء أجابت الدكتور إيفيس والدونا إيمينا، المثابرين بإخلاص على الحفلات النهارية أيام السبت وفي نفس السينما دائماً على وجه التقريب.

والدونا نورما أيضاً أرادت أن تأخذها إلى بيتها:

---

(١) ENXAQUECA: صداع يصيب الجانب الواحد من الرأس. ذات الشقيقة.

ـ تعالي وتفرّجي على البيسكا [1]، فاللعب لا يحول دون الحديث.

ـ أشكركِ يا نورمينيا. فلو كنت على ما يرام لصحبت تيودورو. تركته يذهب بمفرده...

وافقت الدونا نورما:

ـ رأيته حينما انطلق هو في الترام. كان يسير منطوياً على نفسه، بهيئة رجل يشترك في دفن أحد الموتى. إن زوجكِ يعبدكِ يا فلور.

من الظلم ألاّ تكون قد رافقته إلى التمرين؛ فالزوج يطلب شيئاً زهيداً منها مقابل كل هذا الحب والعبادة. فيما الآخر... لا تريد حتى التفكير في أمر رديء، في أمر شرير. لماذا قلب الناس هكذا، متناقض؟ لماذا رغبت هي، في النهاية، البقاء وحيدة؟ أكبر فرح للدكتور تيودورو كان العزف على بوقه في التمارين، والدونا فلور تكون بين الحضور، تسمعه وتشجّعه. وهي إذا تركت نفسها تبقى، فلأجل ماذا، إلاّ في أمل مجيء الآخر، حتى في هروب من ليلته الأبدية في اللعب؟

ربما نعم، لكن لتقول له الحقيقة كلها، لكي تطرده، لكي تقطع كل علاقة معه أياً كانت. هل الأمر هكذا حقاً؟ لكي تقول له هذه الحقيقة، أم غيرها: «خذني يا فادينيو، خذني، كلّي، فما عدت أستطيع الانتظار». أي حقيقة من الحقيقتين ستقولها له؟ أوّاه، ففي هذه المعركة للروح مع المادة، هي مجرّد كائن بائس في قنوط.

من البيت المجاور وصل صوت ماريلدا في غناء حب. طالبة علم التربية، نجمة الإذاعة الشابة، مخطوبة تقريباً، وإذا كان الطلب الرسمي لم يتم، فلأن طالب الزواج وهو ثري من أثرياء الكاكاو ذو مفاهيم مسبقة، أصرّ على أن تتخلّى هي عن الإذاعة. الغناء له فقط ولا لأحد سواه. إنه مكلف جداً لماريلدا التي ترى نفسها أمام مكبّرات الصوت، مغطية المدينة بصوتها الصغير الرخيم. لماذا تدفع ثمناً باهظاً جداً من أجل الخطيب؟ لقد جاءت إلى الدونا فلور وهي واثقة منها تطلب نصيحتها. لكنّ الدونا فلور لا تحسن تقديم النصح لأحد، حتى

---

(1) BISCA: ضرب من ألعاب الورق.

ولا لها نفسها، الضائعة في الارتباك. فلم تعد بعد شخصاً مقرراً و دءوءاً، كاملاً ومتكاملاً؛ كانت مشطورة إلى قسمين: المرأة الشريفة والمرأة السفيهة، روحها المستقيمة في جانب، وفي الجانب الآخر المادة في الاشتياق. أمر غير متطابق.

فلقد غادر الدكتور تيودورو تحت المطر، والبوق محمي بالمعطف، أياً كانت التضحية بالصيدلية والفوائد، نظريات العلم ومفهومه في المجتمع. إنه رجل مستقيم، مثال الأزواج.

الآخر كان ماجناً، متشرّداً وليس أكثر من هذا. على استعداد لأن يسيء إلى شرفها للمرّة الثانية، ومع هذا فإنه لا يضحّي بشيء من أجل الحصول عليها، إلاّ بدقيقة من وقته البوهيمي. هكذا كان في المرّة الأولى، لم يبسط يده بشيء، لم يمنحها شيئاً ـ للدونا فلور الفائض من وقت الماجن. «انتظريني، سأذهب إلى هناك وأعود سريعاً»، وما كان يعود أبداً. إنه شيطان ذو شراك وطلاقة في اللسان.

ماريلدا ـ راكعة عند قدميْ الدونا فلور:

ـ قولي لي يا فلورزينيا ما الذي أفعله؟ الغناء حياتي، لكنَّ أمي تقول إن حياتي هي الزواج، أن يغدو لي بيت، زوج وأبناء، وأن الباقي هو نزوة بنت. وأنتِ، ماذا تقولين؟

ماذا بوسع الدونا فلور القول؟ «إنصرف أيها الملعون، دعني مجللة بالشرف وسعيدة مع زوجي»، أو، حسناً، «خذني بين ذراعيك، واخترق قلعتي الأخيرة، فقبلتك تساوي ثمن أية سعادة»، ماذا اقول لها؟ لماذا كل مخلوقة مشطورة إلى قسمين، لماذا هو ضروري دائماً أن يتمزّق المرء بين حبّين، لماذا يتضمن القلب دفعة واحدة شعورين، متناقضين ومتعارضين؟

ـ عليكِ أن تقرري بين أمر وآخر؛ المهنة [1] أو الزواج.

ـ لماذا ينبغي لي أن أقرر، لماذا لا أستطيع الزواج ومواصلة الغناء، إذ كنت أحبه وأحب الغناء؟ لماذا الاختيار إذا أردت الأمرين؟ لماذا، قولي لي؟

---

(١) CARREIRA: المهنة الفنية أو الثقافة أو السياسية أو العسكرية، كل مهنة غير احترافية.

لماذا، يا دونا فلور؟ من النافذة المفتوحة يصل صوت العاشق بحثاً عن ماريلدا، والفتاة ترفع رأسها، وتظهر جمال الميدالية، فغادرت راكضة. رافقتها الدونا فلور بنظرة؛ فادينيو هو الريح التي تنثر شعرها وتحوط ساقيها.

ـ فادينيو! مع ماريلدا، كلا. إني لا أقبل!

انحنى ضاحكاً إلى قدميْ الدونا فلور، حيث كانت ماريلدا، واحتضن بذراعيه ساقيها، مضجعاً رأسه على ركبتها.

ـ دعني بسلام... ـ قالت الدونا فلور، وصوتها ذو شكوى.

ـ لماذا أنتِ هكذا معي، يا حبي؟ دائماً حانقة؟

السافل يسألها أيضاً لماذا، كأنه لم يقل لها: «سأعود حالاً، فانتظريني بلا تردد». ليالي الأرق، نهارات المرارة، الانتظار المؤلم. الخبر الوحيد الذي نُمي إلى الدونا فلور عرضاً، كُتب بمثابة قرصات على مؤخرة زولميرا. أجل، ويسأل أيضاً.

ـ لكنْ، أما قلتِ بأنكِ لا تودين رؤيتي بعد الآن، وإن عليّ الانصراف، أما حدث هذا حقاً؟ آنئذٍ انصرفت أنا لألهو قليلاً مع بيلانتشي، إنها لتسلية، ما كان ينقصني إلاّ الموت من شدة الضحك...

ـ مع بيلانتشي أم مع سكرتيرته؟

ـ تشعرين بالغيرة يا زنجيتي[1]؟ لقد فكرت بذلك: أختفي بضعة أيام فتطلب من الله أن أعود، فهي تكاد تجنّ لتمنحني نفسها. لم تعد تطيق أكثر من ذلك...

ـ مَنْ قال لك؟ إنها لأكذوبة. فأنا امرأة ذات شرف، إبعد يدك من هنا.

يدٌ وشفة تحرقان بشرتها، شفةٌ فوق فمها، ويدٌ في فرجها المخبوء، في معقلها الأخير. في المطر تتزايد رخاوة الجسد، فتنهار المقاومات الأخيرة. وفي الوقت الذي قالت فيه إنها

---

(١) توصف المرأة السمراء بالزنجية تحبباً منها.

متمسّكة بالشرف ولا يمكن إخضاعها ، سلّمته فمها حتى من دون أن تجعله يسـدد غيـابـه وتنهدات زولميرا . فتلك الدوخة التي تسيطر عليها ، جعلت الدونا فلور بلا قوى للنهوض ضد تقدّم فادينيو ، من أجل الدفاع عن الحد النهائي لشرفها . آه ! لو كان لديها على الأقل من تطلب منه أن يغيثها ! فادينيو في عجلة من أمره ، يجب أن يعود إلى اللعب ، فقد جاء مسرعاً : « هيّا بنا نتمتع على السرير يا حبي » . فنهضت واقفة على قدميها ، وهو يحتضنها بذراعيه ، فلم تعد تقاوم ، ماذا يهم الشرف والزوج ؟ « حيثما تريد يا حبي » .

ـ هل أستطيع الدخول يا إشبينتي ؟

كانت ديونيزيا ده أوشوصي تهم باجتياز الباب ثم قالت :

ـ ماذا بكِ يا إشبينتي ؟ فأنتِ ممتقعة جداً . . .

شعرت الدونا فلور من جديد أنها أنقذت بأعجوبة ، فهمست :

ـ كان هو الله من أرسلكِ أيتها الإشبينة ديونيزيا . لا أحد سواكِ يستطيع مساعدتي . إجلسي ههنا ، إلى جانبي .

ـ ما الذي تعانينه حضرتكِ يا إشبينتي ؟ إنكِ ترتجفين كلكِ . . .

أمسكت الدونا فلور بيد متعبدة أوشوصي :

ـ أيتها الإشبينة ، أنا بحاجة إلى أحد يجد وسيلة تحررني من فادينيو ، يطرده ولا يدعه يقلق راحتي ، إذ أنه منذ وقت يسير يزعجني ، وما عدت أنا نفسي ، وما عدت أعلم ماذا أفعل ، فقد انتهت إرادتي .

ـ المرحوم ، إشبيني ؟

ـ تدبّري أمراً يعيده إلى هدوئه ، وإلاّ فلن أعرف يا إشبينتي ما الذي سوف يحدث . . . لن أستطيع أن أخبرك . . . فكل ساعة يريد أن يـأخذني ، وحتى الآن أيضاً حينما وصلتِ أنتِ كان يريد ، وأشاع فيّ بلاهة ، وكدت أمضي معه . . . وإذا استمرّ فلسوف ينتهي الأمر بأن يأخذني . . .

غطّت ديونيزيا فمها بيدها كيلا تصرخ:

ـ أوّاه يا إشبينتي، أركضي سريعاً، من اللازم أن يُفعل حالاً شيء ما. سأذهب الآن بالذات لأتكلم مع الأب ديدي، ولحسن الحظ أعلم أين هو يقوم بواجبه. هذه الأشياء عن الإيغون ليست لأي كان. إنها فقط لمن يستخدم عصا أوجيه[1]. أوّاه يا ربي، أيتها الإشبينة...

ـ ـيدي؟ ـ تذكرت الدونا فلور فجأة الزنجي المزيل في سوق الأزهار الذي أعطاها الموكان لضريح فادينيو ـ إذهبي أيتها الإشبينة، إذهبي بسرعة، فإذا كان هناك أحد قادراً على إنقاذي فهو. وإلا فأنا هالكة يا إشبينتي وستحدث مصيبة بلا علاج.

ـ الآن بالذات...

خرجت ديونيزيا محمية بعقدها الحائزة عليه من أوشوصي، إنها صغيرة كلياً تعاني الخوف من الإيغون، قوية في الوقت نفسه في الرغبة بإنقاذ حياة الإشبينة. مصيبة بلا علاج، أي شيء آخر بالوسع أن تكونه إلا الموت؟ اسرعي يا ديونيزيا، بسرعة أكثر، في الدروب المعوّجة والضيقة حتى أبواب مملكة إيفا، ففي معابرها ستلتقي الكاهن الساحر وقدراته.

ـ يا أبتاه ـ قالت المتعبدة للآلهة السحرة وهي تقبّل يده ـ المتوفى يريد أن يأخذ إشبينتي، فانقذها، قيّد الإيغون في موته ـ ثم قصّت عليه القصة، ذلك الذي تعرفه من القصة.

في تلك الساعة بالذات، عاد الدكتور تيودورو وهو مبلّل كلّياً. بسبب المطر لم يتمرنوا. احتسى قطرة من شراب روحي، حيطة ضد الزكام، وارتدى سترة المنامة، ثم أخذ البوق وعزف للدونا فلور مقطوعات موسيقية مختارة من مجموعتها المنتقاة. وإذ سمعته الدونا فلور نهضت ثانيه من وجلها وحزنها، من القرف من نفسها هي بالذات، المرأة المتزوجة ذات الفضيلة الهشة ليس لديك بعد الآن ما تخشاه يا تيودورو فأنا أحبك وأنا لك ولك وحدك

---

(١) OJE: الساحر الإله في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.

فقط، اليوم في هذا السبت مع الحق بالتكرار، وغداً إلى الأبد. فيجب على أي قلب ألاّ يحوي حبّين في وقت واحد، ولقد أمرت بانتزاع نصف كياني، وها أنذا ههنا من جديد بكليّتي متكاملة، أصغي لموسيقاك على البوق، ها أنذا ههنا يا تيودورو، زوجتك المشرّفة.

في الجانب الآخر من ليل باهيّا، أضاء نور وهّاج وفي داخله الكاهن الساحر صنع لعبة الغوص في الأعماق مع تضرّع ديونيزيا، إبنة أوشوصي. وقد تحوّل المطر آنئذٍ عاصفة، وقصف الرعد، وأُطفئت الأضواء، وماج البحر هائجاً، وآلهة الأوريشا تمتطي أشعة وشهباً، كل منها لبّت نداء الإله آسوبا. جميعها قالت نعم، ما عدا إيشو الذي قال لا.

١٩

بلغت رسالة بيلانتشي مولاس الصوفي كاردوزو وإس أ في كنيسة الباسو ، في الزيارة إلى ضريحه كما يفعل في كل عيد مئوي لموته . من موته ذاك ، حينما كان يدعى جواكين بيريـرا ، وهو باهيّاني ذو قدرات توفى في مسكنه في كوريدور دا فيتوريا ، في أحد أيام الثالث عشر [١] من أحد شهور العام ١٨٨٦ . وكان السهر على الميت عظيماً ، والدفن بمرافقة كبيرة من الأخوان الماسونيين وزملاء التجارة بـالجملـة ، مـع حـاكم المقـاطعـة ونسـاء مـن المرتـزقـة متخصصات في البكاء على الموتى ، مع قداس على الجثمان الحاضر .

لقد تضاعفت أضرحة كاردوزو وإس أ في العالم الخارجي . مومياء اكتشفت في الهرم الأكبر ، قطعة من متحف مدفونة في ثلوج الألب ، حينما اجتازها في طليعة جيوش هانيبعل ، وفي رمال الصحراء العربية ، زالومار على جواده الكستنائي الداكن . مات في فرنسا مرّتين على الأقل ، ومرّات كثيرة في إيطاليـا ، وقتلتـه محاكم التفتيش مـع التعـذيـب في إسبـانيـا ككيميائي وهرطوقي ، ثري وفقير ، متسوّل ومريض القلب ، بـاع التمـر في مصر ، في بـاب السوق عند ضفتيْ النيل ، في زمن رعمسيس الثاني ، تأمّل في الكواكب في نصف الكرة الشرقي ، عبرانيّ ذو لحية كالقطن ، الحكيم والرياضي الذائع الصيت آللهي فوشيه ، المولود والمتوفى قبل المسيح .

في باهيّا ، إضافة إلى الضريح الدائم في الكنيسة السوداء الباسو ، كان يرتاح أيضاً في

---

(١) IDOSO : يوم الثالث عشر من كل شهر في التقويم الروماني القديم .

كنيسة باياكو، في جزيرة إيتاباريكا، حيث مات في الحرب ضد الهولنديين، في الثالثة والثلاثين من عمره، في العالم ١٦٣٨، حينما كان في جلد الرجل الجميل والقوي والماجن خادم ملك البرتغال فرانسيسكو نونيس مارينيو ده إيسا، الآمر الأكبر والأول للساحل، خبير الهنديات.

كل هذه الخبرة الواسعة ـ وأكثر منها بكثير، إذ إن مجلدات عديدة كانت لازمة لرواية مضاعفات حياته أو حيواته، جميعها الملأى بالإنجازات والغراميات ـ تكدّست الآن في الهيكل العظمي الهش لأنطونيو ميلشياديس كاردوزو وسيلفا [1] (كاردوزو وإس أ بالنسبة إلى الناخبين)، وهو موظف متواضع في قسم الوثائق البلدية، معلّم في العلوم الخفيّة، ووريث مفتاح سليمان، فيلسوف عالمي وهندي [2] ونقيب [3] الأكوان.

ـ هيّا بنا يا سيّد كاردوزو، إذ إنّ رب العمل قال لي أنْ آخذك إليه بأية وسيلة. فالرجل في كومة من الأمور المعقّدة... ـ قال آوريليو.

ـ هيّا بنا، إني كنت أنتظرك...

ـ أكنت أيها السيّد تعلم أني قادم؟

ضحك الحكيم من السؤال، بقهقهة جليّة وطليقة، فلم يوجد أحد أكثر منه فرحاً ورضى، سعيداً كليّاً:

ـ ما هو الذي لا أعلمه يا آوريليو؟ فأنا أعلم بالمحظور والملحق.

بالنسبة إلى آوريليو، ما كان يفكر في مناقشة المحظور ولا الملحق، فحضور كاردوزو وإس أ البسيط قد جعله متوتراً.

---

(١) غالباً ما يحمل أبناء العائلات المهمة اسمي عائلتي الأب والأم، وحرف الواو هنا يجمع الاسمين بعطف الأخير على الأول.

(٢) في الأصل HINDUSTANICO: نسبة إلى غزاة الهند من المسلمين الذين فرضوا عليها لغتهم المتحدرة من السنسكريتية.

(٣) CAPITAO أي الكابتن في الإنكليزية.

في السيارة إلى جانب السائق، كان نقيب الا كواب يحصي وهناك من يحييه بشكل غير مرئي.

ـ مساء الخير أيها الفريق[1]...

أين هو الفريق؟ هناك كان جالساً، أمام البحر، في طراوة المساء؟ أين يا سيّد كاردوزو؟ لم يتمكن آوريليو من رؤية أي سيّد، برداء عسكري أو بسترة بسيطة. ليس متاحاً للجميع أن يروه يا عزيزي، إنما للبعض فقط.

ـ إحتراماتي يا سيدتي، إني أقبّل قدميكِ.

وكذلك تراها؟ أنيقة كلّها، قبعة ذات ريش وثوب ذو ذيل، كانت أجمل نساء زمنها، في زمن آخر. من أجلها قتل شابان بعضهما بعضاً وهما في زهرة العمر. والآن عند الحافة البحرية يذهبون ثلاثتهم، متأبطي الأذرع، في غزل وضحك. عيناها عمياوان، عينان بائستان من المادة، إذ لا ترى حتى نفسها، في إشراقة جمالها.

ـ لينجني الله ويحفظني يا سيّد كاردوزو.

ضحك المعلّم بقهقهته، فالشارع مسكون بالأشباح، والسائق متوتر أمام مقوده، لا تسرّه قيادة غموض كثير.

ـ إذن فالأمور ليست على ما يرام في اللعب؟ ـ سأل كاردوزو، فجأة.

ـ أو كنت تعلم أيها السيّد؟ تُرى هل يعلم حقاً كل شيء؟

لكن هذا هو كاردوزو يخفي وجهه ويختبىء. ممن؟ من الفتاة الشقراء والرياضية في طريقها إلى الشاطىء؟ منها فعلاً يا عزيزي؛ هل تعلم مَنْ هي؟ إنها جان دارك، وهل تعلم مَنْ هو كاردوزو وإس أ؟ حسناً، إنه ليس سوى الكاردينال الفرنسي بيار كوشون، اللصيق بالبابا، من وقّعت يده الهيّابة حكم الموت على الفتاة العذراء. إنه يراها في جميع

(١) BRIGADEIRO، في الانكليزية BRIGADIER

الأنحاء، عينيها البريئتين، وجهها الجانبي الأشقر ذو التضحية.

ـ كنت أنا متردداً تافهاً، جباناً...

في شقة زولميرا، ينتظر بيلانتشي بصبر نافذ الساحر الهندستاني، الوحيد القادر على جمع قطع المستحيل.

ـ تأخرت يا سيّد كاردوزو...

ـ إني لا أصل أبداً قبل ولا بعد، دائماً في الساعة الدقيقة.

حيّا زولميرا المتدثّرة برداء من النسيج الشفّاف الذي يهبّ الهواء في ثناياه، وكاردوزو يعرفها جيداً من حقب أخرى، عندما كانت، أمام الأمازون، تجتاز الوادي في مطاردة نزقة، الثدي الوحيد البادي للعيان، ممتلىء. ما تزال تحتفظ به ممتلئاً ـ فما الثدي الآخر وهو ممتلىء أيضاً لا يُبان، فيا لها من حسرة ـ فكر المعلّم كاردوزو، أن روحاً نقيّة على وجه التقريب تحتفل بالأمر في كثير من التجسيدات، ليست أيضاً بشكل جد متكامل لدرجة أنه لا يغدو حسّاساً إزاء مزايا معيّنة من هذه الحياة المادية القذرة حيث يسدد عقوبته.

ـ إني أبحث عنك منذ يومين...

ـ بما أنت بحاجة إليه؟ بسرعة أو بالحل؟

العينان جامدتان، مثبتتان في البعيد، العرق على الجبين العريض، السيالات حوله. التركيز شديد:

ـ جرى الكسب خلافاً للمطلوب في الروليت، ألم يحدث؟

التفت بيلانتشي إلى زولميرا كأنه يقول لها: «أرأيتِ، إنه يتنبأ بكل شيء». كانت تصل فعلاً إلى الخيمة الروحانية حيث يسكن كاردوزو مع فقره وخمسة أبناء (لم يتقاض أبداً ريالاً واحداً لقاء فعل الخير) شائعات المدينة وفي تلك الأيام لم يجر الحديث في المدينة عن مواضيع أخرى غير الأحداث في بالاس، في التاباريس، في آباشادينيو، في موائد الروليت والباكارا، والإياسكينيه. لغزٌ أو عملية غش، معجزةٌ أو عملية خداع، فلم يكن ثمة نحسٌ

شديدٌ للغاية مثلما أصاب بيلانتشي مولاس. وقد بلغت مثل هذه التعليقات أسماع المعلّم، هذه حقيقة. لكنْ لو لم يكن قد أصغى عرضاً، فهل كان هذا يمنعه من أن يعلم؟ متى احتاج كاردوزو وإس أ إلى الإصغاء لكي يعلم؟

ـ اليوم صباحاً، حينما تحادثت مع نفسي بالذات، قبل الخروج من البيت، قلت أنا: إن بيلانتشي سوف يأمر باستدعائي، فهو في العتمات، ويحتاج إلى قليل من النور...

ـ إلى القليل؟ كلا، إلى الكثير من النور... إنهم يريدون إنهائي يا كاردوزينيو، تصفيتي دفعة واحدة...

روى تلك المستحيلات؛ وأصغى كاردوزو وإس أ وهو جالس أمامه رابط الجأش، إلى رواية المذهلات. وكان يهزّ رأسه، ربما ليؤكد بعض الأفكار أو يرى مسبقاً إحدى التأكيدات. وكان كاردوزو وإس أ يرى من طرف عينه من بين النسيج الشفّاف للرداء وبشكل سرّي وينفعل أعلى فخذ زولميرا، المتنبهة إلى السرد الدراماتيكي للملك الميسر. فمثل تلك الرؤية البدنية لا تزعج كاردوزو وإس أ، إذ إن الجمال لا يزعج الحكيم، وليس هو شيء غير أخلاقي ولا يتعارض مع الروح. علاوة على ذلك فهو يريح النظر.

نظرٌ متعب؛ عيناه غير الماديتين تريان عبر الفضاء، تجوبان الزمن، مثبتتان في الوراء وفي الأمام. وحينما أنهى بيلانتشي قصته عن النحوس التي لا معيار لها، كان كاردوزو وإس أ قد استوضح كل شيء، حدود المعضلة والمجهول فيها، وصار لديه جوابٌ وحلٌ:

ـ إنهم مريخيّون[1] ... ـ قال بصورة قطعية.

ضحك على الأثر ضحكته الهائلة، كان كل ذلك ليس أكثر من مزحة مسلّية، كما لو أنه لم يكلف ثروة يومية لخزائن بيلانتشي.

ـ مريخيّون؟ أي مريخيّين؟... يا سيّد كاردوزو لا تأتي بشائعات... إني أثق بك، فلا تتخلّى عني. ما الذي ينبغي للمريخيّين أن يروه في هذا؟ إنهم أعدائي، هذا نعم. إنه

---

(١) نسبة إلى كوكب المريخ.

عمل سحر. فمن رأى مريخيّاً من قبل، لا أحد يعلم إذا كان موجوداً، إنها الأرواح الشريرة، والإصابة بالعين الشريرة...

إنك ما رأيت قط لأنه ثقلٌ على البدن... المريخيّون، لقد قلت لك... لا عدو ولا عمل سحر... فالمريخيّون جد فضوليين، يحيون غائصين في كل شيء، وبالنسبة إليهم، ذهنيات متفوقة، لا يوجد لا حظّ ولا نحسٌ....

ـ مريخيّون؟ ـ أرادت زولميرا أن تعلم، وهي جشعة دائماً في التعلّم. ـ في الأرض؟ منذ متى؟

فوق كل شيء، لن نرتبك ونقارن كاردوزو وإس أ بكاشف بخت أو منجّم من هؤلاء الذين يسعون ههنا بالأكوام، محني الظهر فوق كرّات البلّور، أو بمبصّرين ذوي علم بصريات مختصر، أو بمتنبئين لا قيمة لهم، قارئي أكفّ تافهين. إن كاردوزو وإس أ كان بروفيسور الغموض، حكيم الديجور، عالماً في ما يتعدّى فيزياء الكواكب والنسبيّة.

ـ منذ وقت بعيد هبط المريخيّون على الأرض. ثلاثة بشريين فقط شاهدوا الهبوط...

ـ وهل كنت أيها السيّد أحد الثلاثة؟

ابتسم متواضعاً، وواصل كلامه:

ـ ذات يوم سيظهرون للعيان، وعندها ستصاب البشرية بصدمة... ـ ضحك قهقهته، واجداً ظرفاً لامحدوداً في ذعر البشرية ـ حتى الآن هم غير مرئيين... فقط بعض المصطفيين...

زولميرا فضولية إلى المعرفة:

ـ أنت أيها السيّد بما إنك تستطيع الرؤية، قل لي كيف هم. هل هم جميلون؟

ـ قربهم، نحن وحوش كبيرة مقرفة.

باتت المهجّنة ذاهلة، قلقة في ضياع:

هل تريد القول يا سيّد كاردوزو إنهم المريخيّون الذين وضعوا أيديهم عليّ وقرصوني؟ أوّاه، فهم أيضاً يفعلون هذا؟

ـ هذا، ما هو؟ ـ طلب كاردوزو المعتني بالأمر تفاصيل. أي يد، أي قرصات وفي أي نقاط من الجسم[1]؟

روت زولميرا وهي ما زالت مذعورة، ضحية بريئة لهذه الدعابة عبر النجوم، لهذه البذاءة من الإيكتوبلازما.

ـ أظهرت ذلك لبيكيتو، وهو رأى العلامات. أظهرت ذلك أيضاً للزميلات في درس الطهي، في مدرسة الدونا فلور. والدونا فلور كانت ذات انطباع معيّن، كاد يغمى عليها.

أظهرت ذلك لجميع الناس، إنما لم تظهره فقط لكاردوزو وإس أ فلماذا هذا التحفّظ معه؟ من دون تفحصّ في المكان (كما كان يقول الكاردينال كوشون) من المستحيل تحديد الظاهرة. فأجاب كاردوزو وإس أ وهو شديد الإثارة:

ـ المريخيّون؟ لا أعتقد... معهم لا يمكن إلاّ في تحوّل الفكر.

في تحوّل الفكر فقط؟ أي بلاهات... قدّرت زولميرا ذلك، وهي تعود إلى تقليم أظافرها. وفي ما خص بيلانتشي كان ما يزال لديه شكوك:

ـ مريخيّون؟ وإذا لم يكونوا؟

ـ دع الأمر لي وأنا أحلّ كل شيء...

كان بيلانتشي يثق في كاردوزو وإس أ، فأتيحت إليه فرصة لاختبار العظمة العالمية لمعرفته. لكنْ لموضوع جد معقد، ربما يساوي العناء ألاّ يقتصر الأمر على الصوفي الهندستاني؛ فليستشر، من يدري، قدرات سحرية أخرى. الأم أوتافيا، على سبيل المثال.

جدد كاردوزو وإس أ تدخين غليونه، ونظرته تائهة عبر النافذة، والأفق، ثم غادر في

---

(١) في الأصل: ANTOMIA: تشريح الجسم.

شعاع الضوء، وجاء صوته من بعيد:

ـ لديّ تقدير شديد عند المريخيّين، ومنذ أربعة أيام ذهبت معهم في زيارة إلى المريخ، ومشيت في كل الكوكب، فيه مدينة من الفضّة فقط وأخرى من الذهب فقط... هناك السمك يطير في الأجواء والبحر حديقة من الزهور...

لم يعد الآن يتبيّن إلاّ فخذيْ زولميرا، الثدي الكبير في دانتيل الفتحة وفي مركبة من النور وصل إلى المريخ. «إنه في تحوّل»، همس بيلانتشي باحترام، وأصلحت زولميرا من شأن الدانتيل في الرداء.

٢٠

فُتحت أبواب الجحيم، واجتاز الملاك المتمرّد مدخل حجرة نوم (وحب) الدونا فلور، العين متقدة عهراً، الفم في دعوة وكله بأسره عارٍ. فإذا لم تقاوم حتى قديسة هذه النظرة، نداء هذه الضحكة، هذا الصدر المنبسط، كيف تستطيع الدونا فلور أن تفعله؟ أين هي الإشبينة ديونيزيا مع شهادتها الممنوحة من أوشوصي والإيبو المركّب من قبل أوجيه؟ أسرعي يا ديونيزيا مع البابالو ومع الموكان لربط هذا الشيطان في ليل رقاده الأبدي. وإذا استمرّ هو حيّاً فإن الدونا فلور لن تستطيع الإجابة عن شرفها وعن جبين الدكتور. كلها حياة مشرفة، وسلوك مثالي، الحشمة، الإحترام، وها هو رأس المال المحسود قيد الخطر؛ فغداً سيكون اسم الدونا فلور الحسن، رمز الفضيلة، في أفواه الناس، في الوحل، في الإزدراء. غداً هي امرأة أخرى يُشار إليها بالبنان، مغطّاة بالندم والعار.

الدونا فلور تحتضن نظرة العاهر في وسط كيانها، القابل للعهر، في نشوة تتجاوب مع دعوته، مقدّمة نفسها له.

وفي الوقت نفسه هي الدونا فلور الحذرة والقوية إزاء الخطر، ذات شرف، صارمة، لا تلين، وهي الدونا فلور المتسرّعة جداً لتعطي نفسها، قبل أن يغدو ذلك متأخراً. فأيها هي الدونا فلور الحقيقية؟ التي تغلق الباب بضوضاء أم التي تفتح بصمت، كوّة فكوّة باب جسدها؟ المطر على السقف.

ليلة السبت بعد مساء الإرهاق، الغيبوبة، زيارة ديونيزيا، كونشرتو البوق، كل هذا

بدا جد بعيد! وقت الدونا فلور هو وقت المعركة، لم يعد يُقاس بالساعات والدقائق، إنه وقت الرفض والرغبة، طويل ومؤلم. ليلة السبت، ليلة الدكتور مع التكرار؛ في الحمام يعدّ نفسه لحفلة الأحاسيس، الرصينة واللذيذة. كانت الدونا فلور في ارتياحها تنتظره، زوجة مطيعة ولطيفة. لكنْ آه! المكّار يرتاح عند قائمتي السرير ويأمرها، وأصبعه على قاعدة الرمح:

ـ إنكِ اليوم لن تنامي مع هذا الغائط، إذ إنني لن أدعكِ. حتى ولو اضطررت إلى إحداث ضجيج ناتج عن الكسر.

كان عبثاً، تعسفاً، هراءً، لكنْ ـ ليفهم من يريد، فالقلب بشري... ـ شعرت الدونا فلور أنها راضية لدرجة الضحك وتوجيه السؤال إليه (بدلاً من أن تطرده، شاعرة بالإهانة وساخطة):

ـ هل تغار منه، هيه؟ تشعر بالغيرة...

ـ لديّ رغبة فيكِ يا حبي ـ أجاب برقة متمدداً على السرير بارتياح ـ فلقد انتظرت أكثر من اللازم... أين شوهد قبلاً، ينبغي لي أن أغزو امرأتي الشرعية، من نمت معها خلال سبع سنوات؟ فإذا انتهى الأمر لن أنتظر بعد الآن. كيف أغار من زوجكِ الدواء هذا، إذا لم أتعارك معه ولم أتنافس؟ تزوّج منكِ، فهو زوجكِ، وخلاف المتعة التي لا يمنحها، ليس ثمة شيء أكثر من ذلك، حتى إنه زوج طيّب، إني أعترف. ولن أنتزع منه حقه. إنما اليوم فليعذرني؛ سوف يبقى خائباً، ومَنْ سيتمتع هو الفاعل ههنا، الذي يفهم معنى المجازفة وهو جيّد في الإهتزاز وفي الأمور غير المألوفة.

ـ لتنتظر، عليك الانتظار طويلاً...

كله بأسره عارٍ، الفم متقد، النظرة داعرة واليد تصعد في دروبها، إنه يسيطر عليها؛ الدونا فلور عبدة فادينيو، حرّة في الكلمات فقط، خيلاء خالصة. أما كانت هكذا دائماً؟ اعتزازها وحياؤها يختفيان في يديه، الدونا فلور مطيعة لأوامره كزوج ومالك. إعتزاز

وحياء، حشمة، أخلاق، فضيلة، ماذا يساوي كل هذا، إذا كان يرغب فيها ومن أجلها قدم (تعلم جيّداً أين، من حيث لا يأتي أحد).

ـ كنت في الأعماق، سجيناً، مقيّد اليدين والقدمين، بذلت جهداً أكثر من اللازم لأفكّ وثاقي لكي أجيء وأراكِ، يا حبي. لكنكِ دعوتني، وأنا أتيت، مجتازاً النار والبرد، اللاشيء واللاّ أصل فترفضين إعطائي الخبز، الماء لأشرب، فلماذا؟

ـ أوّاه يا فادينيو...

ـ لماذا تعاملينني هكذا، كما تعاملين كلباً؟ إنتهى الأمر يا حبي. أما اليوم وإلاّ فلا، أبد. عندما يأتي هذا الحشرة الدائخة، قولي له إنكِ لستِ على ما يرام، لستِ على استعداد. بعد ذلك سأزرع الورود في البقعة الجرداء.

ـ آه! هذا لا... إني امرأة رصينة وشريفة، فلن أخون زوجي، كم مرّة قلت لك؟

الدكتور يخرج من الحمام، نظيفاً تفوح منه رائحة الصابونة المعطّرة. مظهره مبهج، ابتسامته مخلصة، نظرته نزيهة. وفادينيو يقطف وردة الدونا فلور الزرقاء. آه! دونا فلور، كيف بوسعكِ أن تصيري حافلة بالازدراء؟

ـ تيودورو، يا عزيزي، إغفر لي اليوم، إني لست على ما يرام، فأنا متوعكة. لنترك هذا إلى الغد، إذا لم يزعجك هذا.

مريضة؟ أبدى الدكتور قلقه. فمنذ المساء وهي بادية الشكوى. ألن تكون أكثر من وعكة بسيطة؟ أين هو ميزان الحرارة؟ الشراب، الأقراص، صندوق الأدوية؟ لا يلزمني شيء من هذا، يا عزيزي، فلا تقلق، أركن إلى النوم، غداً سأكون على ما يرام، على ما يرام كلّياً...

ـ... وكما تشتهي... ـ قالت الدونا في وعد.

كيف أستطيع على حين بغتة أن أغدو هكذا، بلا أحاسيس، بلا اعتزاز، بلا احتشام، بلا أخلاق؟ ـ تستجوب الدونا فلور نفسها، شاعرة برقة لطيفة نحو الزوج المذعور وبمذاق

معيّن إزاء التمثيلية؛ قبّلها من وجهها. لكنَّ، الدكتور تيودورو لم يقتنع؛ عليها أن تتناول قرصاً، بعض القطرات، مسكّناً على الأقل لتنام نوماً غير متقطّع، فتستيقظ مطمئنة ومرتاحة. سيمضي ليجلب دواء وماء. وحالما خرج شعرت الدونا فلور أنها أسيرة فادينيو.

ـ مجنون، اطلقني، فهو عائد الآن...

اعتبر فادينيو نفسه موضوعياً ومنصفاً:

ـ ليس شخصاً سيّئاً، زوجكِ الثاني هذا... بل على النقيض من ذلك وتعلمين يا حبي، في كل مرّة أستلطفه أكثر من ذي قبل... وأنتِ في ما بيننا نحن الاثنين مخدومة بشكل جيّد. هو لإبداء الحسرات وأخذ الحيطة، وأنا للإمتاع...

أتى الدكتور بقارورة ماء بارد، كأسين وزجاجة صغيرة مع سائل عديم اللون:

ـ صبغة حشيشة الهر[1]، عشرون قطرة وسط كوب ماء وأنتِ ستنامين وترتاحين، يا عزيزتي.

رفع الجهاز الذي يعدّ القطرات بانتباه وهدوء مازجاً المسكّن بالماء. هل أبدل أحد ما الكأسين فيما أدار الدكتور ظهره للحظة؟ من هو؟ فادينيو أم الدونا فلور؟ لكنْ إذا كان هذا هو ما حصل، كيف يميّز الدكتور، وهو صيدلي وكفوء، المذاق الحاد لحشيشة الهر؟ هل حدثت المعجزة؟ إذا حدثت، على هذا المستوى من الأحداث، معجزة أكثر، معجزة أقل، فلن تسبب لأحد مفاجأة أو ضغطاً. وقد لا يكون حدث أيضاً إبدال، مجرّد كون الدونا فلور لم تشرب المسكّن والنعاس العميق للدكتور عائد فقط إلى المطر المنهمر على السطح وإلى ضميره النقي. فما كان لديه من الوقت إلاّ ليقبّل زوجته.

ـ صار ذا قرون... ـ قال فادينيو محدداً الوقت المضبوط ـ ها نحن الآن، يا حبي...

ـ ههنا، لا... ـ توسّلت الدونا فلور. مبددة آخر آثار الحياء والاحترام لزوجها الثاني ـ هيّا بنا إلى القاعة...

---

(١) VALERIANA: نوع من المستحضرات الطبية من الأعشاب. مسكن للألم.

في القاعة، فُتحت أبواب السماء، وقُطع نشيد هللويا. «أين شوهد تمتعٌ بقميص النوم؟» تجرّدت الدونا فلور كلياً من ملابسها فيما هو عارٍ في قسم منه، وفي القسم الآخر مرتدٍ ملابس ومكمّل لما بدأه. اخترقتها حربة من نار، وللمرّة الثانية التهم فادينيو شرفها، أوّلاً كبنت عذراء، والآن كامرأة متزوّجة (كانت هناك مرّات أخرى والتهمها فيها). ولقد مضيا هكذا في ميادين الليل حتى حاشية الصباح.

ما ملّكت أحداً نفسها كهذا قطّ جد طليقة، جد نارِيّة، في شراهة مضطرمة، شديدة الهذيان. آه! فادينيو، إذا كنت أنت تحسّ جوعاً وظمأ، فماذا يقال عني، أنا القائمة على نظام هزيل وباهت الطعم، بلا ملح وبلا سكر، زوجة عفيفة لزوج محترم وقنوع؟ ماذا تهمني سمعتي في الشارع وفي المدينة، إسمي المكرّم؟ شرفي كامرأة متزوّجة ماذا يهمني؟ خذ كل هذا في فمك المضطرم، من البصل النيء، أحرق في نارك حشمتي الخلقية، مزّق بمهازيك حيائي القديم، فأنا كلبتك، بغلتك، عاهرتك.

ذهبا وأتيا، استغاثا وأُغيثا، ولم يركنا إلى العودة، إذ قد غادرا مرّة أخرى، من الوصول والإياب. كم من أشواق وكم من أغراض ينبغي الوفاء بها، أدركت جميعها، وبعضها تكررت.

سفيهة ومحبوبة جداً، قذرة وجميلة، صوت فادينيو يقول لها أشياء غير محتشمة كثيرة، يذكّرها بعذوبة وقت آخر.

ـ هل تذكرين المرّة الأولى التي شعرت بها؟ كان المتنزهون يأتون إلى الساحة، وأنتِ مستندة إليّ...

ـ أنت الذي عانقني ومرر يده...

هو الذي مرر يده ويعترف لها:

ـ ردفكِ الشبيه بذيل حورية البحر، بطنكِ بلون الفخّار، ثدياكِ كالآباكاتي[1]. لقد

---

(١) ABACATI: ثمر استوائي لذيذ الطعم كبير الحجم يدعونه في لبنان: آباكاتو.

نموتِ يا فلور، وأنتِ الآن رائعة، إنكِ لذيذة من رأسكِ إلى قدميكِ. سأقول لكِ: لقد قطفت كثيراً من الثمرات في حياتي، حصيلة جيّدة؛ ولا واحدة مثل ثمرتكِ الخالية من الشعر، إنها أكبر الجميع، أقسم لكِ يا وردتي[1]...

ـ أي مذاق لها؟ ـ الدونا فلور خالعة العذار وقحة.

ـ لها مذاق العسل والفلفل، والزنجبيل...

كان يتكلم والدونا فلور في تأوّهاتها تتلاشى؛ فادينيو أشد جنوناً، أشد طغياناً، نارٌ وهواءٌ منعش. فادينيو لا ترحل، أبداً بعد. وإذا رحلت مرّة أخرى فلسوف أموت من الأسى. حتى ولو التمست منك ذلك وتضرّعت، لا ترحل، حتى ولو أوصيتك وأمرت، لا تتركني...

ـأغدو سعيدة فقط إذا لم تكن موجوداً، إذا غادرت، أنا أعلم ذلك جيّداً، فمعك لا توجد سعادة. إنما عارٌ وعذاب. لكنْ من دونك، مهما كنت سعيدة، لا أعرف كيف أعيش، ولن أعيش، أوّاه، لا تتركني أبداً.

---

(١) FLOR: تعني وردة.

٢١

كان الأحد هو يوم التأخّر في النهوض، وحينما استيقظت الدونا فلور في ذلك الصباح من يوم الأحد كان المطر لا يزال منهمراً، فشاهدت وجه الدكتور منحنياً على وجهها، يراقبها في تعبّد، ويده موضوعة على خدّها:

ـ نمتِ جيداً يا عزيزتي؟ ليس عندكِ حمى...

ابتسمت الدونا فلور، وهي تتثاءب، راضية بحيازة زوج طيّب جداً، وهي ترى نفسها هدفاً لعناية كثيرة كهذه؛ فأحاطت عنقه بذراعيها ومنحته قبلة، شاكرة:

ـ إني لا أشعر بشيء بعد الآن يا تيودورو. كانت بلاهة...

ارتخاء، كسلٌ، انشراح البطالة، رغبة في السرير، في البقاء في ذلك الحرّ وفي ذلك التعبّد من قبل الصيدلي. صباحٌ بلا التزامات، الفراش ذو الرفّاص، المطر على السقف، تعبّد الزوج، الزوج المقدّس. والتجأت إلى حمايته:

ـ يا له من كسل يا عزيزي...

ـ ولماذا لا تبقين مرتاحة؟ لم تكوني البارحة على ما يرام، فالزمي الراحة اليوم إلى وقت متأخّر. فإذا أردتِ سآتي بالقهوة إلى ههنا.

إنه يستحق كل خير، ومغو:

ـ إنما أبقى إذا بقيت أيضاً يا عزيزي. أبقى فقط إلى قربكِ.

الدكتور تيودورو بلا خبث، ولد كبير رغم المركز الاجتماعي، المعرفة والعمر.

ـ وإذا... ـ ضحك وهو خجل ـ بقيت مستلقياً إلى جانبك فلن أتحمّل أي مسؤولية إذاً...

الدونا فلور، وصوتها دلع:

ـ إني أجازفَ يا تيودورو... ـ خبأت وجهها في الوسادة.

كانت تقريباً على شيء من البذاءة، ثديٌ ينمو لصق صدر الدكتور، وانحناءة الورك منفلتة من بين الملاءات، عارضة لونها الفخّاري العتيق. عين الدكتور خجلى ونهمة، يده مطبقة:

ـ لقد اصطدمتِ بالسرير، أنظري العلامة... أكثر من واحدة... لقد نمتِ بشكل رديء.

باتت صغيرة وتوقف قلبها:

ـ أين؟

ـ هنا... يا عزيزتي المسكينة... ـ ويده المنتهزة للفرص كانت تصعد إلى أعلى الفخذين وإلى ما بعده.

أخذت الدونا فلور بين ساقيْ زوجها الكدمات الناتجة عن النوم الرديء أو النوم الحسن (أو عن عدم النوم). التقى فم كل منهما بالآخر وارتعدت هي؛ مذاق القبلة الطاهرة (لكنْ المتقدة)، السرور غير المتوقع في ذلك العناق، المطر على السطح، حرارة السرير، خفر الدكتور تيودورو، اليد العديمة التجربة وربما لهذا السبب هي أكثر لذّة، الرغبة في عينيْ الزوج الخفيضتين، في الصدر الكثير الزفرات وكل ذلك في وضح النور، أوه! يا للحرج!

من جديد ارتعدت الدونا فلور: إنها لذّة. «زوجكِ الطيّب من أجل التحسّر وإبداء التنبّه». من أجل هذا فقط؟ لكل رجل مـذاقه الخاص، قالت ذلك ماريا أنطونيا، تلميذتها السابقة الخبيرة في الذكر والسرير، «لكل واحد قوته، البعض عليمون والآخرون ليسوا كذلك. لكنْ إذا عرف المرء الاستفادة، آه! فجميعهم طيّبون...» أحسّت الدونا فلور أنها مجتاحة بالرغبة، رغبة مختلفة، وُلدت من الكسل، من خجل تيودورو، من حيائه.

ـ إنك مدين لي يا عزيزي...

ـ أنا؟ ماذا؟ ـ سأل الدكتور، وهو متهم بريء، أما كان حقاً ولداً كبيراً وأبله؟

جبينٌ عريضٌ لمثقف، جبهة شخص ذي أفكار مشهورة، رجلٌ جد أحمق! أسرعت الدونا فلور في وضع يدها على جبينه وهي فضولية، وضحكت بوداعة، وما كانت الدونا فلور أكثر وداعة ودلعاً مما هي الآن:

ـ أنت مدين لي، أجل يا سيدي، البارحة، لقد أنقصتني البارحة...

ـ لا تكوني غير منصفة، فَمَنْ هو الذي أنقص...

ـ إذا كنت أنا من هو مدين، فأنا أسدد، إذ إنني لا أحب الدين ـ الدونا فلور تخفي وجهها بيديها، ضاحكة وكلها زاخرة بالخبث.

ما الذي كان يبتغيه الصيدلي المسكين غير ذلك؟ فقد خرج حتى عن رصانته:

ـ حسناً، سأستوفي مع الفوائد...

رجلٌ منظمٌ، مستوفٍ للقوانين والطقوس، جاء الدكتور تيودورو ليغطّي الحب بالخفر والاحترام المتوجّبين بين الزوجين. لكنَّ الدونا فلـور لم تمنحه الوقت؛ فقد قذفت بالملاءة فجأة خارج السرير، مع الخفر، مع الاحترام، ورأى الدكتور نفسه بين ذراعيها. لم ينس أبداً هذا الصباح الممطر، هذا الأحد المبارك، هذا اليوم المقدس ويوم العطلة، هذا اليوم الخارق الذي لا يُضَاهى، خارقٌ وسامٍ بكل ما يعنيه القول ويحدده مع الدقّة.

بعد ذلك، لفّت نفسها الدونا فلور ككرة مصنوعة من الخرق، وعلى شفتيها ابتسامة، وفي هدهدة المطر نامت، في نعاس حسن نامت، جد مطمئنه وراضية بشكل لا يصدّق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٢

لم يتغيّر شيء، ولا أي فرق، يوم أحد مثل جميع أيام الآحاد الأخرى، والدونا فلور هي نفس الشخص كما هي دائماً، هي نفسها تماماً. لقد عانت عقوبات الجحيم، متأكدة من أنه ستكون نهاية العالم ؛ فثمة كل مفاجأة في هذه الحياة...

وبالأحرى، لكون الصيدلية العلمية هي المناوبة، تحوّل هذا الأحد مختلفاً نوعاً ما، إذ إن الدكتور كان سيلبي طلبات زبائن عديدين ـ صيدلية واحدة فقط فاتحة أبوابها لسكان كثيرين جداً. وهكذا حينما خرجت الدونا فلور من الحجرة، لم تعثر على زوجها. كان لديها، رغم هذا، صباحٌ من أكثر الصباحات حركة.

أوّلاً، ماريلدا مع خطوبتها التي في أزمة، والدونا ماريا دو كارمو، تعاني نوبات من التوتر تقريباً : إما أن تواصلي الغناء وإما الزواج؟ والجيران؛ أبدت النساء، عملياً، الرأي بالإجماع باستثناء الدونا جيزا. بيد أن الأميركية كانت معروفة بأفكارها الغريبة، ربما هي حسنة للولايات المتحدة، لكنها غريبة، إذا لم تكن خطرة للبرازيل. لم تكن تدافع عن الطلاق كما حدا بها الأمر إلى الإعلان بصوت مرتفع ومرنان، في نقاش مع الدونا جاسي والدونا إينايدي، أن العذريّة ليست أكثر من شيء مهجور وهي فعلاً مضرّة للصحة؛ فمصحات الأمراض العقلية، حسب قول ألغرينغا، مليئة بالبنات العذارى، تخيّلي!

الأخريات كنّ يكررن، بأخلاقية واقتناع، أن الزواج هو الهدف الوحيد الشرعي،

للمرأة المرسَلة من الله للعناية ببيتها، لرعاية زوجها، لإنجاب أبناء وتربيتهم، وهي راضية وموافقة، في مقدّمة هذا الجيش الغاضب الدونا ماريا دو كارمو، في رغبتها رؤية ابنتها مستقرّة، كما تقول هي بالذات:

ـ من اللازم أن تستقرّ هذه البنت، في بيتها. فالإذاعة لا تقدم ضمانات وهي خطرٌ.

خطرٌ؟ اهتاجت الحلقة: ليست خطراً واحداً، إنما أخطار مضاعفة تحيط بالمغنيّات، بالفنانات، بالأحرى هو جنس يعاني كثيراً من الالتباسات، من التصرّفات المشبوهة، في رأي الدونا دينورا، وهي شخصٌ كما نعلم، ذات أخلاق، متصلّبة وصارمة، في كل مرّة أشدّ شكيمة في مقارعة انعدام الحياء والتهتك. ولكونها واقفة من خلف سمعت فقط الكلام عن الفنان، عن المسرح، عن الإذاعة. بالنسبة إلى المدراء، المغنّين، الموسيقيين، فكانوا جميعاً أشخاصاً سفهاء، غواة نساء عيونهم على البائسات، والمخالب حادّة.

منذ فترة قصيرة أيضاً، مغنيّة شابة، فتاة من عائلة ممتازة ـ ذات قربى مع الدونا إينايدي، «أشخاصٌ مميزون جداً» ـ أُدخلت على عجل إلى أحد المستشفيات، وهي تنزف دماً، وعندما ذهب الطبيب ليرى سبب النزيف تثبّت من إجهاض وكثير من السوء أجرته امرأة فضولية في ركن من أركان الشارع. ولم تمت الفتاة لأنها سُلّمت لرعاية الدكتور زيزيتو ماغالايس من يشهد الجميع بكفاءته. لم تمت، فالطبيب استعاد لها الحياة، لكنَّ العذرية التي التُهمت، لا يستطيع حتى الدكتور الجيّد زيزيتو، مع كل كفاءته، أن يمنحها إياها من جديد. لا هو ولا أي كان، إذ كما تقول الدونا دينورا «لم تُخْتَرَع حتى الآن قطعة غيار للعذرية».

وفي المقابل ـ قدّرت الدونا نورما ـ من يخترع سوف يثري. هل سبق لكنّ وفكرتـن؟ وحالما تصل إلى الصيدلية، إلى العلمية كيلا يذهبن إلى أبعد من ذلك ويطلبن: «دكتور تيودورو، إعطني غشاءين للبكارة جديدين، واحداً لي، والآخر لشقيقتي... وواحداً أرخص، إذ أنه للخادمة في المنزل...».

ضحكن جميعهن، ولا علاقة لكل ذلك بماريلدا، الفتاة المستقيمة، في الرأي العام لدى الجيران. لهذا بالذات ما كان بوسعها أن تتردد بين الزواج من صاحب المزرعة وعائدات

العمل الهزيلة في الإذاعة.

كان الذهول عظيماً في عاقبته، عندما طلبت ماريلدا النصح من الدونا فلور مرّة أخرى، فنصحتها الدونا فلور، في ذلك الأحد، بطرد[1] الخطيب الرجعي الشديد الشكيمة، باقية في الإذاعة حيث لن يلبثوا أن يقدّموا لها مرتباً أفضل. وإذ رأت الدونا ماريا دو كارمو ابنتها القوية في ذلك الدعم غير المنتظر، مائلة إلى قطع علاقتها الغرامية، قدمت لتحصل على توضيحات، وكادت تتشاجر مع الدونا فلور:

ـ لو كانت ابنتكِ لشككت في الأمر...حتى إنكِ لا تبدين صديقتنا...

أضرم النقاش بالنار، مغلّفاً الجيران، لكنّ الدونا فلور احتفظت بوجهات نظرها:

ـ إن هذه لرجعية خالصة...

وانتهى اللغو[2] بمناحة، فالدونا ماريا دو كارمو ذاتها مترددة بين نجاح ابنتها وضمانة الزواج. وحازت الدونا فلور على رأي الأغلبية. ولخّصت الدونا نورما:

ـ وأيضاً سيغدو متسلّطاً هكذا في الجحيم. فزمن الاسترقاق قد انتهى.

مضت الدونا فلور إلى المطبخ لتحضّر الغداء ـ في أيام الآحاد التي تكون فيها المناوبة ما كانت تذهب إلى بيت الخالة والعم في ريو فيرميليو ـ وهناك التقتها ديونيزيا ده أوشوصي:

ـ الإذن، يا إشبينتي...

جاءت لتأخذ نقودا وهي في عجلة من أمرها، إذ إن الإيبو[3] كان في دورة دراسية وحلقة الإياوو[4] في انتظارها ليرقصوا عند المساء وفي الليل بطواله. وقبل ذلك قد أنجزت أشياء كثيرة، والواجبات كانت كبيرة، والفروض معقّدة. البابالو يقذف التعاويذ وآلهة

---

(١) في الأصل: MANDAR LAMBER SABAO: أن يلعق الصابون.
(٢) في الأصل BATE-BOCA: طق الحنك في العامية (ورد ذكرها سابقاً).
(٣) EBO: الكاهن ـ الساحر، ورد ذكرها سابقاً.
(٤) IAWO: المريد التابع لحلقة الكاهن ـ الساحر.

الأوريشا قد استجابت. ومن أجل أن تضمن لها الطمأنينة، تحررها من العين الشريرة، من أي مرض، من تهديدات الإيغون الموافق على إغوائها لتموت، ينبغي للدونا فلور أن تقوم بواجباتها جملة، ليس لعمل سحري واحد بسيط، ليس إيبو أيـاً كان. إيشو، رأس المتوفى موضوعاً في شكل مغاير، واقفاً على أهبة الحرب. قالت ديونيزيا لأوجيه بألاّ يقيم وزنـاً للنفقات. حيث أن الحالة هي حالة حياة أو موت، ومع إيشو مدججـاً بالسلاح، وهو بشكل ملتوٍ ورأساً على عقب، لا يحسب المال ويركض مسرعاً، مسرعاً جداً؛ فإشبينتها الدونا فلور لا تكاد تقف على قدميها. وأمام كل هذا فإن آسوبا نفسه تقدّم جماعته من أجل النفقات العاجلة جـداً؛ خروف، عنزتان، إثنا عشر ديكـاً، ستة كونكينات[1]، إثنا عشر متراً من القماش. من دون الكلام عن الباقي، سردٌ واسع مكتوب بالقلم الرصاص على ورق بنّي للصرّ. كل شراء مع كلفته وعشرين ألف ريس زيادة مرسلة إلى بيجي ده أوساين لكي يشق دروباً في الغابة حيث يختبىء إيشو.

لكنْ عندما وصلت ديونيزيا إلى ههنا، وجدت الدونا فلور مرتاحة جداً، راضية جداً، حتى لتبدو أنها ليست نفسها في الأمس عند المساء. هل فعلت سيئاً على سبيل الافتراض لكونها أجازت لنفسها كثيراً من النفقات؟

لقد فعلت حسنـاً، إذ في العشية، أمرتها الدونـا فلـور وهـي مـذعـورة بجميـع تلـك الاحتياطات. أنا شاكرة يا إشبينتي للكثير من الجهد الذي أسببه لكِ. الآن، على كل حال، لم يعد شيء مهماً، خيراً أو شراً فكل شيء قد حُلّ.

ـ وهل تخلّى المرحوم عن الإزعاج؟

ابتسمت الدونا فلور بحرج وقالت:

ـ أو انا التي تخلّيت عن الاندهاش. ما عدت بحاجة إلى شيء.

والآن؟ من المستحيل تعليق العمل. أثناء الليل وعند الفجر يكونون قد قدّموا التضحية بالحيوانات، وعند أول إشراق للنور يضعون أمام كل أوريشا المعلف بالطعام الطقوسي. في

---

(١) CONQUEN

كل يوم أحد، عند المساء وفي الليل، تتواصل الفروض مع الأوريشا الحاضرة في التيريرو. والإلغاء، التوقف في الوسط، عدم الاستمرار، لجعل العمل السحري لاغياً، مستحيل يا إشبينتي، في الإيبو ذي الفعالية. فمن النتائج المميتة وغير المتوقعة، من العقاب الصارم للمسحورين، مَنْ ينجو بحياته؟ حتى ولا هي بالذات ديونيزيا، بالرغم من أنها وسيطة بسيطة.

أما الآن، فيجب الذهاب إلى النهاية، حتى ولو أن الإشبينة تعتبر نفسها متحررة من التهديدات، فالإيبو هو ضمانة وأكثر لاطمئنانها، ما دامت النقود قد أُنفقت، وما دامت الأوريشا قد شربت الدم الساخن للحيوانات في ساعة الذبح وتقبّلت القطع المفضلة من لحمها مع انبلاج الصبح، وما دامت مغطّاة بسلاحها وشعاراتها، وصراخ يانسا يرجّع صداه في الغابة. وهذا الأمر بالنسبة إلى الدونا فلور كان التأكيد على أن المتوفى لن يعود أبداً بعد الآن لإزعاجها، وهو مقيّد بموته إلى الأبد.

عدّت الدونا فلور المبالغ، ووضعت بعض المال إضافة، ومن جديد شكرت ديونيزيا المجدّة في العمل بلا امتنان وأرادت استبقاءها للغداء؛ دجاجةٌ بالمرق الداكن اللون وضلعُ خنزير معدّ بالكونياك، أقراص البوبا، وحلوى المائدة مانغا وسابوتي. لكنَّ ديونيزيا كانت في عجلة من أمرها للعودة إلى التيريرو، حيث يطلب أوشوصي في شخير الطبول جواده المفضّل.

في أيام الآحاد ذات المناوبة، بعد الغداء (الدكتور يأكل بعجلة، حتى من دون أن يستشفّ مذاق الأطعمة المتقنة الإعداد، في قلق للعودة إلى الصيدلية، مستسلماً للأولاد ذوي الرسائل). تبدّل الدونا فلور ملابسها، من دون أن تعير اهتماماً لاحتجاجات زوجها فتقوم بمرافقته، فتسلّيه في العمل في يوم الراحة. تقف إلى جانبه وراء طاولة البيع، تساعده في تصريف العمل وهي أنيقة كلها، ترتدي ملابس الزي الشائع وتنم عن الذوق الحسن كما لو أنها في زيارة إلى الدونا ماغا باترونوسترو المليونيرة، أو حفلة في بيت الكوميندادورة إيماكولادا تافيرا بيريس. فكل تلك الأناقة، كل ذلك الجمال له وحده؛ الدكتور تيودورو كان يشعر أنه قد استعاد حسابه واستعاد بشكل حسن.

هكذا في ذلك الأحد ؛ الرشاقة والبهاء ، السحر والدلع ، والدونا فلور تتباهى بعقد من الفيروز العتيق ، هدية فادينيو. لا شيء مختلفاً ، يوم أحد شبيه بكثير من أيام الآحاد الأخرى في فترات مساء المناوبة. كل شيء مشابه ؛ الشارع ، الناس ، الدكتور وهي الدونا فلور. لا أحد يشير إليها بالبنان ، لا أحد يعرفها خائنة وخاطئة ، حتى ولا الدونا دينورا التي تعمد إلى التنبؤ والخبث. الشمس ذاتها التي كانت قبلاً ، المطر نفسه (الآن رذاذ[1] خفيف من الماء) الأحاديث ذاتها والضحكات نفسها ، التقدير الذي لا يتغيّر. لقد ظنّت أنها ستكون نهاية العالم ، في الشارع وفي داخلها ، وأنها ستغدو مخترقة القلب قبل الموت. وبدلاً من هذا ، كل شيء مشابه ؛ كم يُخدع الناس في هذه الحياة...

من وراء طاولة البيع ، تبيع إحدى الزبونات ، ويبتسم لها الدكتور تيودورو ، وهو أخرقّ بالكامل ومغترّ بنفسه لرؤيته لها وهي جد جميلة. وتبتسم له أيضاً وتختلس النظر إلى جبينه ؛ لا وجود لأية علامة لقرون. يا لها من حماقة ، يا دونا فلور ، ماذا يعني هذا التذوّق المفاجيء للتمثيلية ؟

لا شيء اعتراه التحوّل بينها وبين الدكتور على كل حال. مجرّد ذكرى الصباح على السرير ، تلحّ على جعل فترة المساء ذات المناوبة تلك أكثر حميمية. وتلحّ أيضاً ذكرى الليلة على الأريكة ، حب النهم والعنف ، امتطاء الجواد بوقاحة تحت المطر ، هللويا الصادرة من فادينيو. في المساء الساجي ، في السلام الهاديء ليوم الأحد ، إبرة الرغبة تعضّ جسدها. متى تراه من جديد ، الطاغية ، الشرير ، السافل ، زوجها الأول؟ ليلاً بالتأكيد ، حينما يكون الدكتور مرهقاً من العمل ، ينام نعاس العادلين والسعداء.

في ذلك السلام العذب ، زوجة طيّبة متضامنة مع الزوج الثاني ، تقوم بواجبها في مساعدته في المناوبة ، وفي انتظار الليلة الماجنة مع الزوج الأول ، أقلقها تفكير مفاجيء. لقد قالت الإشبينة ديونيزيا إن فادينيو لن يعود أبداً إلى إزعاجها ، مقيّداً إلى الأبد في حبال العمل السحري. ربّاه ، وإذا كان الأمر هكذا ؟

---

(١) في الأصل POEIRA : غبار.

٢٣

صلّت الأم أوتافيا كيسيمي على جسد بيلانتشي، وكما هو فإن زولميرا أيضاً استحمّت في حمام من الأوراق مع صابون جوز الهند. ووُضع ريش الديوك المضحّى بها في تقاطع الدروب. دافعت الأم أوتافيا عن بيلانتشي في الجهات الأربع وفي الأبواب السبعة وقالت له بأن ينتظر النتائج. لكنّ ملك البيشو كان في عجلة من أمره، فمضى يطرق أبواب زبائن آخرين.

الراجمة بالغيب آسباسيا، حالما وصلت من الشرق، آتية مع نسائم الصباح، وما كادت ترتدي رداءها (متهرّئاً نوعاً ما) الخاص بالتنجيم، حينما استقبلت زيارة بيلانتشي، وإن مالاً كثيراً أمامها. ومع أن العرّافة ما كانت حسّاسة إزاء الجشع للذهب ـ تحيا من نعم السموات وفي صيام كلّي عن ملاذ هذا العالم ـ كيف ترفض المبالغ، حينما يلحّ الآخرون عليها القيام بعمل صعب جداً؟

وإذ أطلقت يد «نهج العلم الروحاني في الحركة»، وهو امتياز لها تتفرّد به، غادرت إلى البعيد وأنّت بكلمات مبحوحة، متداولة مع نفسها كما لو أن أحداً يريد خنقها. لم يكن مشهداً من المشاهد المبهجة كثيراً، وكانت لدى الأستاذ ماسيمو ساليس ذي الطبيعة العقلانية، الرأس الصلب، الرغبة في الانصراف. لكنْ بيلانتشي استمرّ راسخاً في توقع متوتر، ممسكاً بيد زولميرا المرتعدة، التي كان الأمر الخارق للطبيعة يؤثر فيها بشكل هائل بعد أن أبدى اللامرئيون اهتماماً بصدرها وبمؤخرتها (ومَنْ يدري؟ بما هو أكثر).

زولميرا، السكرتيرة وموضع الثقة، إلى جانب رب العمل، ارتياح من الغم، وأي ارتياح!

متلاشية يسيل لعابها، جاحظة العينين، عادت كاهنة الشرق من المدارات الكوكبيّة، وعند تحديقها ببيلانتشي، بجسده المنتفض، مزّقت صرخةٌ صدره الناحل ـ خشبة مستوية، تثير رؤيته الحزن. طلبت مالاً أكثر، آه! إنه عمل شاق، فكل شيء شديد العتمة في الدوائر البعيدة، جد معتمة مثل حظ بيلانتشي! مالٌ كثيرٌ للشموع. ربما مع ذلك الدعم من الإضاءة، تتمكن هي من كشف القناع عن الدسيسة. خبّأت الأوراق المالية في الدرج، وأضاءت شموعا رمزية، وعلى ضوئها، ميّزت عيناها كمبصّرة اعداء بيلانتشي.

ـ أرى ثلاثة رجال عند حافة درب والثلاثة يريدون لك شرّاً...

ـ آه! ـ أنّ بيلانتشي ـ قولي لي SIGNORA [1] MIA, كيف هم...

تأخرت هي في جهد لتتبيّن، وكان بيلانتشي في عجلة منْ أمره:

ـ أنظري إذا لم يكن أحدهم أقرع وإذا الآخر ليس بديناً؟ الثالث...

ـ دعها هي نفسها تقول عن الثالث... ـ اقترح ماسيمو ساليس، وهو متدخّلٌ من أسوأ نوع ـ وفي النهاية من هو العرّاف؟

العرّافة، مع كونها في موقف مؤثّر، فجّرت نظرة على السافل الذي يجعل الإشفاق عسيراً جداً بالنسبة إليها؛ مَنْ قال إن مالها كسبٌ يسير؟ شخرت، زفرت، عضّت رسغيها، لطمت رأسها، هل كان على سبيل المصادفة، يسيراً مال بيلانتشي هذا؟ إنه عسيرٌ وباعثٌ على المجازفة:

ـ أوّل الثلاثة ـ أعلنت بصوت صادر من قبر ـ هو رجل أصلع.

ـ شيء جديد عظيم... ـ رنّ صوت ماسيمو، السافل.

ـ الثاني هو سيّد بدين، بدين جداً...

---

(١) هكذا وردت في الأصل، بتعبير إيطالي ومعناها: يا سيدتي.

ـ والثالث، كيف هو؟ ـ ألحّ المدعو ماسيمو.

ـ الثالث لا أراه حتى الآن جيداً، إنه ما يزال في العتمات. ..

لم يتمالك بيلانتشي نفسه:

ـ هذا هو بالضبط، دائماً هو مختبىء، MALEDETTO! [1] أنظري إذا لم يكن ذا شاربين والأنف مكسوراً؟...

لكنَّ العرافة بالتأكيد، لم تسمع من المسافة البعيدة، ساعية إلى أن ترى:

ـ إني الآن أتبيّن؛ يستعمل شاربين و... انتظروا، فأنا أرى... لديه أنفٌ مكسورٌ...

ـ إنهم آل سترامبي، لا يوجد شك في ذلك ـ أراد بيلانتشي أن يعرف كيف يتصرّف لإبعادهم عن طريقه، هؤلاء آل سترامبي الذين لا يرحمون.

من أجل طردهم من باهيّا، من أجل سوقهم إلى مشاعر نبيلة من التسامح، وإلى الشرق الأبعد، أصرّت آسباسيا المنهكة، على كميّة من المال باهظة نوعاً ما. وقد سحب بيلانتشي حافظة نقوده، لكنْ ماسيمو ساليس وهو بشكل حازم، شخصٌ وسخٌ عديم النفع، دسّ نفسه مرّة أخرى حيث لم يكن مدعواً، وحصل على تخفيض جوهري.

في يديْ العرّافة كانوا آل سترامبي ولكنْ ليس النحس في الميسر. فتابع بيلانتشي طريق الجلجلة الخاصة به، طريق صلبة من قبل العرّافة الراجة بالغيب.

جوزيتي ماركوس كانت على الأقل جميلة وفتيّة، اختبر ماسيمو ساليس ذلك؛ إنها استثناء في الأخوية عموماً المكوّنة من التفاهات. لماذا ـ كان الأستاذ يتساءل في شكل مخالف ـ العالم الآخر يستخدم مثل هذه الفزّاعات؟ لماذا هي جد قذرة، قاعات الاستشارة،

---

(١) في الإيطالية: ملعون.

معابد الوحي، جد قوية، الرائحة الكريهة للغموض، استحضار الأرواح؟ ماسيمو المشكك في كل شيء استنتج أن المدى هو شديد الرائحة الكريهة وقذر نوعاً ما.

أهلاً بجوزيتي ماركوس، الهيفاء والشقراء، والنظيفة! القاعة الصغيرة حيث استقبلتهم فيها زهور في أصيص وأوعية للبصاق. بعد أن أصغت إليهم، تركتهم هناك مع زوجها ومساعد لها، ومضت تصلّي في قاعة استحضار الأرواح والتنجيم. الزوج، مستر ماركوس وهو أيضاً فتي لطيف المعشر ذو دبلوم في الاحتيال، أوضح أن جوزيتي لا تتقاضى شيئاً من الفوائد التي توزعها على الشعوب عن طريق وساطتها الروحانية. كل شيء مجاناً، فالروحانيون لا يتقبّلون أي شيء وجوزيتي تتقبل فقط ما هو ضروري بشكل صارم من أجل الحقن والأدوية (كل شيء باهظ الثمن اليوم، الحياة ترتفع تكاليفها بهذا الشكل) التي بها تستعيد العافية الواهنة بعد كل جلسة؛ مع انتزاع الإيكتوبلازما ـ وهي لا تقوم بتوفيرات كما تحقق السادة شخصياً ـ فجهازها العضوي قد بات هشّاً، وبلغ أقصى درجات الوهن، مع خطر يحيق بالحياة. كان بيلانتشي المشحون بالأمل والأسى، سخيّاً ومستر ماركوس ملأ جيبه.

في القاعة الأخرى ـ الخاصة بالظواهر غير الطبيعية ـ المبطّنة بالستائر ذات اللون الأحمر المائل إلى الزرقة، كان ثمة عتمة كلّية على وجه التقريب. كانت جوزيتي المرتدية، رداء أبيض، مع سيالاتها، متمددة على أريكة، وأمر الزوج الأربعة ـ بيلانتشي، زولميرا، دومينغوس بروبالاتو وماسيمو ـ بأن لا يخفوا شيئاً لكي يتركز التفكير. هكذا فعلوا وأطفىء مصباح صغير، هو الوحيد في القاعة.

رنت في الحال أجراسٌ صغيرةٌ، وسمعوا أصواتاً مبهمة كأنها مواء وجاب ضوءٌ الأجواء حول الستائر، منتزعا: صرخة هستيرية من زولميرا. أما بالنسبة إلى بيلانتشي فلم يستطع حتى الصراخ، وكان بروبالاتو المرتجف ينضح عرقاً وأسنانه تصطك. ذلك الضوء وتلك الأصوات كانت الأخ لي أو ذاته، الحكيم الصيني من سلاله مينغ الملكيّة، وهو حقيقي بشكل مطلق. وحسب ماسيمو ساليس الذي لا يمكن إصلاحه، بدلاً من الحكيم لي أو، فإن الضوء والصوت كانا من المحنّك ماركوس، وهو شخصٌ محب للحياة يتمتع بحياة حسنة على

ظهر تلك الإيكتوبلازما الجميلة. لكنْ بما أن ماسيمو ساليس ذو لسان سليط وغير مؤمن، فلم تكن لآرائه قيمة ولا تستحق رصيداً كبيراً وهنا ندوّنها فقط من أجل الاحتفاظ بدقة السرد.

جوزيتي تستحق الصيت الحسن والثقة، وقد ذابت كلّها في إيكتوبلازما ومتكلّمة لغة غريبة، كلغة ولد، ربما لغة صينية قديمة أو أكثر احتمالاً اللغة البرتغالية في ماكاو[1]، إذ أتيح فهمها بجهد معيّن. وحسب ما يقوله الحكيم لي أو فإن سبب الإرباك كله كان سيدة إيطالية وحاقدة، من خدعها بيلانتشي.

سأل الكالابري:

ـ شقراء أم سمراء؟

ـ سمراء وجميلة، في الخامسة والعشرين من العمر...

ـ في الخامسة والعشرين؟ إنها في حوالى الأربعين، أفعى. إني لم اقترف خطيئة... إفعلي معروفاً MIA [2] CARA قولي للصيني إني لم أقترف ذنباً...

كانت تدعى آنونتشياتا، تبدو مطارَدة وآنسة ساذجة، تسعى إلى الحماية؛ أوه! يا لها من عاهرة شديدة العهر. هو، نعم، بيلانتشي، كان آنئذ RAGAZZO, RAGAZZO[3] POVERO, في السابعة والعشرين من عمره...

في اندفاع تلك السنين السبع عشرة المفعمة بالاستخفاف، علّم بزهرة من الدم وجه الخائنة، مضيفاً بعض الجروح في الذقن، بالغة ورديئة، ولكونه قاصراً، نجا بيلانتشي من السجن، فيما آنونتشياتا في المستشفى أقسمت على الانتقام، حيّة أو ميتة. والآن بعد سنين كثيرة، جاءت لتفي بوعدها من الحقد في ذلك المفجوع الإيطالي. آنونتشياتا كانت حبّة

(١) مستعمرة برتغالية في جزء من أرض الصين في القطاع الجنوبي الغربي.
(٢) في الإيطالية، معناها: يا عزيزتي.
(٣) في الإيطالية، معناها: غلام، غلام، فقير.

الأول؛ جد رقيقة وجد عاهرة[1].

وحتى اليوم لم يندم بيلانتشي على ما فعلته. فامرأته ليست أيضاً امرأة رجل آخـر. فهـي له وليست لأحد سواه. وتنكمش زولميرا في العتمة: كم يوجد من أخطار في هذا العالم!

حرر الحكيم الصيني ببعض علب أخرى من الحقن، بيلانتشي من ذكرى آنونتشياتا ومن حقدها. فمن أجل التفاصيل المادية، مثل الثمن والدفع،استخـدم كـوسيـط مستر ماركوس، وسيط الأرواح والمدير الروحاني لتلك الخيمة[2]. كانت هي آنونتشياتا مع زهرتها من الدم والجروح في الذقن، ولكنْ لم يكن هو النحس.

كبير الملائكة القديس ميغيل ده كارفاليو، متدثـراً بنوع من الملاءة وعمامة على رأسه، لم يذكر أوصاف ملامح أو أسماء، لكنه كان إيجابيّـاً وفوريّاً. وإذ تناول يديْ بيلانتشي، حدّق في عينيه؛ في الفضاء الكوكبي عدوٌ شرسٌ يطارده، رجلٌ أهانه الكالابري بشكل خطير، وتحوّل إلى العالم الروحاني منذ وقت بعيد. كبير الملائكة تبيّنه على الفور بمصباحه الملائكي:

ـ إنه واقف وراء ظهرك.

حدث تحرّك عام من التقهقر وماسيمو ساليس ذاته، عن طريق الشكوك، ركّز نفسه لصق الباب.

ـ هل مات منذ وقت قصير؟

ـ أجل. والعراك كان بسبب امرأة... ـ استطرد كبير الملائكة، منفّساً بعمق قواه السحريّة.

تحقق بيلانتشي من هوية ديوجينيس ريباس. فقد سلبه زوجته، وهي خلاسية متحذلقة جداً، ذات جمال محبط، مخطية رائعة وماكرة. ديوجينيس، وهو ملاّك رذيل ومشاكس،

---

(١) وردت في الإيطالية: CARINA, PUTANA

(٢) في الأصل TENDA: الكوخ الذي تمارس فيه أعمال التنجيم والسحر.

عرض حربته وتهديداته. وكان بيلانتشي قد صار سيّد الميسر القادر، ولكي يغلق له فمه وهو طلب الخلاسية ـ من كان ديوجينيس يتعقبها بالشتائم والافتراءات ـ أمر بضربه، محمّلاً العمل لفريق من الاختصاصيين وعند خروجه من يد الأطباء، اختفى ديوجينيس ريباس إلى الأبد، وعلم بيلانتشي عـرضاً فقط بموته المحزن والراهن، في البؤس، أما في ما يختص بالخلاسية، محور المأساة، تبيّـن أنها، مـع مضي الوقـت، لا تُحتمـل. فـأبـدلها بيلانتشي بكميّة [1] من ورق اللعب مع سويسري.

بسيفه ذي اللهب، كنّس كبير الملائكة ديوجينيس، ذا الكلام الكثير والفعل القليل، الروح البائسة من الدرجة الثالثة، الشخص القرنان. لم يقبض كثيراً من المال، إذ لم يكن مستغلاً للمؤمنين، بل هو محسنٌ للإنسانية كما قال لهم. فلقد انسحب الديوث مع قرنيه، لكنّ النحس بقي وفي كل مرّة أشدّ.

الدكتورة نايير سابا، طبيبة ذات عيادة عامة وجرّاحة، تحمل دبلوماً بتمييز وتنويه، من جامعة جوبيتر، وهي أربعينية دميمة مثل الحاجة، كانت تشفي مرضى بحركات مغناطيسيـة. في توافق النجوم ولقاء الثمن الملائم، اكتشفت على الأقل ستة أعداء لبيلانتشي عُرفت هوياتهم في الحال من دون أقل احتمال للخطأ. وقامت دكتورة جوبيتر بتصفية الستة في مهلة قياسية، وعلى سبيل الإفادة أشفت بيلانتشي من قرحة في المعي الإثنيْ عشري، وأشفت بروبالاتو من روماتيزم مستديم. إنما فقط لم تتغلّب على النحس في اللعب.

مدام ديبوراه، وهي ستينيّة، في رأي ماسيمو ما كانت تساوي المال ولا حتى المشهد؛ إيجابيّة نوعاً ما، تشكو من آلام في البطن، (حبلى منذ ثلاثين سنة. حملت وستضع مولودها المرعب [2] زفير واضح، إنه من الكاشاسا والزكام المزمن، متدثّرة بخرق كغجرية. من الأمور الجديّة تحققت من المدعوة كارموزينا، حبٌ قديمٌ لبيلانتشي مهجورة من قبله بلا تحسّر أو إشفاق، فملك الميسر ما كان يستبقي النساء الدميات.

---

(١) في الأصل GROSA: اثنتا عشرة دزينة.

(٢) في الأصل APOCALIPSE: سفر الرؤيا، تقال أيضاً لكل شيء مخيف.

وجدت مدام ديبوراه صعوبات في صرف المرأة المذكورة، لكنها في النهاية تمكنت من ذلك، بمساعدة بعض جرعات من الباراتي[1] تناولتها من قارورة زجاجية خاصة بدواء السعال. بعد ذلك أرادت أن تبيع بيلانتشي هواجس لقهار البيشو، لا يمكن أن تخيب. والنحس، هذا واضح، فقد تتابع.

الوحيد الذي لم يقبض ثمناً كان تيوبالدو أمير بغداد، وهو عجوزٌ نحيلُ الجسم، أبيض كلّه، العينان زرقاوان راسختان، الوجه عابقٌ بالطيبة، الفم ذو أحجيات. لم يرد مالاً ولا أية إكرامية من أي نوع، ولم يُظهر بدوره أي عدو مرئي أو غير مرئي، ذكر أو أنثى. فإذا رآهم يحوطون بملك الميسر أو في بُعْد الأزل، احتفظ بالسرّ. قال فقط والدموع في عينيه، مربتاً على كتف بيلانتشي:

ـ وحده معلّم اللامعقول يستطيع إنقاذك. هو وحده ولا أحد سواه.

ـ أين أستطيع العثور على هذا السيّد؟

عجوز تجاوز الثمانين عـاماً، منذ العشرين وأقل من ذلك وهو يعلن نهاية الدنيا، مقاوماً إزاء عدم الإيمان والمطاردة، السجن والمصح العقلي، ولم يُغْلَب أبـداً، نبيٌّ لا يهدأ من العهد القديم، تيوبالدو أمير بغداد أوضح:

ـ إنه يوجد حيث لا ينتظره أحد...

وإذ قال هذا، أغمض عينيه واستسلم إلى النوم.

في شقة زولميرا، وفي وحدة خليقة بمفكر، وضع كاردوزو وإس أ قيد الترتيب التفاصيل الأخيرة لمخططه في المعركة؛ فلقد عيّن موعدا لمقابلة مع المرّيخيّين، فلديه أصدقاء بينهم.

وسأل بيلانتشي:

ـ والآن؟

---

(٢) نوع من الكاشاسا تقطر في مدينة باراتي في ولاية ريو ده جانيرو.

رفع ملك الميسر، المتعب والمتشائم، كتفيه:

ـ على سبيل المصادفة هل تعلم أنت أين أستطيع رؤية المدعو معلّم اللامعقول؟ وهل سمعت شيئاً عنه؟

ـ معلّم اللامعقول؟ تريد لقاءه ـ هزّت قهقهة المتصوّف القاعة.

ـ بعجلة.

ـ إذاً لديك هو ههنا، أمامك. فأنا هو معلّم اللامعقول.

في الباكارا، في الإيـاسكينيـه، في الكبير والصغير، في الروليـت، يتـابـع آريغـوف، آناكريون، جيوفاني غيارايس، والحشد هواجسهم، يفجّرون حصيلات تلو حصيلات، ولا يخسرون أبداً. حتى ولا مرّة واحدة.

ـ أنت؟ إذا، أسرع. فإذا دام الأمر أسبوعاً آخر سأغدو مفلساً وتضرّعت ايضاً زولميرا:

ـ أسرع يا كاردوزينيو[1].

ابتسم معلّم اللامعقول إزاء التعامل الحميم وإزاء السكرتيرة الدقيقة:

ـ كونوا مرتاحين، فالأمر سيتمّ حالاً.

فكرت زولميرا، «نظرة النسرّ، لا تقاوَم».

---

(١) تصغير لاسم كاردوزو.

٢٤

وصلا من الصيدلية، الدونا فلور والدكتور تيودورو، كلّ منهما يتأبط ذراع الآخر، في ساعة العشاء. وهو بعد راحة قصيرة سيعود إلى العمل، مطيلاً المناوبة حتى العاشرة ليلاً، بشكل احتيالي.

قالت الدونا فلور:

ـ يا لعزيزي المسكين...

فأوصاها الزوج الطيّب:

ـ ستنامين اليوم باكراً يا عزيزتي، فالبارحة كنتِ محرورة.

الدونا فلور الراضية جداً، بانت على حين بغتة متكاملة ومتسقة، ولم تعد بعد متناقضة، مشطورة عند الوسط، في صراع الروح والمادة. مجرّد خشية واحدة؛ وإذا لم يعد، زوجها الأول؟ إذا لم يعد؟

لكنه عاد، وحالما مضى الدكتور إلى الصيدلية (بالمعطف الواقي والمظلّة، إذ تزايد من جديد تهاطل المطر) وها هما الدونا فلور وفادينيو على السرير الحديدي، فوق الفراش ذي الرقّاص، مع المتعة.

ـ إنك ممتقعٌ مرهقٌ، أراك نحيلاً. فأنت لا تنام في هذه الحياة من القمار والقصف. أنت

بحاجة إلى الراحة يا حبي.

هذا ما قالته في فترة استراحة من المداعبة البطيئة، بعد ارتطام النار والعاصفة. فادينيو ممتقعٌ، شديد الامتقاع، كأن الدم فارقه، لكنه مبتسم:

ـ مرهقٌ؟ قليلاً فقط. لكنكِ لا تتصورين كيف ضحكت على حساب بيلانتشي. من هنا فصاعداً...

ـ من هنا فصاعداً؟ هل ستمضي أنت مع اللعب؟ ألن تبقى معي الليل بطواله؟

ـ ليلتنا هي الآن بعد ذلك، يا حبي، هو دور زميلي، زوجكِ الآخر.

شُحنت الدونا فلور بالنشاط، معيدة توضيح قرارات مأساوية:

ـ معه لن يكون أبداً بعد... كيف سيكون بوسعي؟ لن يكون أبـداً بعد يا فادينيو. الآن نحن الإثنان فقط، ألا ترى هذا؟

ابتسم برقة، وهو ممدد على السرير بارتخاء:

يا حبي، لا تقولي هذا... فأنتِ تعبدين كونكِ وفيّة ورصينة، أنا أعلم. لكنْ هذا انتهى، فلماذا الخداع؟ وليس معي فقط، وليس معه فقط، معنا نحن الإثنين يا فلوري المخادعة. فهو أيضاً زوجكِ، له نفس الحقوق التي لي. إنه شخصٌ صالحٌ زوجكِ الثاني هذا، في كل مرّة أحبه أكثر... بالأحرى، حينما وصلت أنا أنذرتك بأننا سنتآلف جيـداً، الثلاثة...

ـ فادينيو!

ـ ما الأمر يا حبي؟

ـ إنك لا تبالي إذا وضعت لك قروناً مع تيودورو؟

ـ قرون؟ ـ مرر يده على الجبين ذي اللون الأزرق الضارب إلى السواد ـ كلا، ليس خليقـاً ببروز قرون. أنا وهو متعادلان يا حبي، الاثنان لدينا الحق وكلانا تزوّج لدى

الكاهن والقاضي ، ألم يكن الأمر كذلك ؟ إنما هو يستهلك قليلاً ، فهو أبله . إن حبنا يا حبي قد يكون حانثاً بالقسم الذي قطعه على نفسه إذا شئتِ ، ليغدو أيضاً آثماً ، لكنه شرعي ، وأيضاً حبه ، بوثائق وشهود ، أليس حقاً ؟ وهكذا ، إذا كنا نحن الاثنان زوجيكِ ولنا ذات الحقوق المتساوية ، فمن يخدع من ؟ وحدكِ يا فلور ، تخدعين الاثنين ، لأنكِ لن تخدعي نفسكِ بعد الآن .

ـ أخدع الإثنين ؟ ولن أخدع نفسي بعد الآن ؟

أحبكِ كثيراً ـ أوه ! صوت سماوي النبرة في داخلها يرجّع صداه ـ مع حب بهذا القدر لأراكِ وآخذكِ بين ذراعيّ . نقضت اللا وعدت لأكون أنا مرّة أخرى . لكنني لا أريد أن أكون في الوقت نفسه . فادينيو وتيودورو ، إذ إني لا أستطيع . إنما أستطيع أن أكون فادينيو ولكِ فقط أكنّ حباً أمنحك إياه ، أما الباقي كله الذي تحتاجين إليه فمن يمنحكِ إياه هو الآخر ؛ البيت الخاص ، السعادة الزوجية ، الاحترام ، النظام ، الاعتبار والأمان . فمن يمنحها هو ، حيث أن حبه مخلوق من هذه الأشياء النبيلة (والمزعجة) وأنتِ بحاجة إليها كلها لتكوني سعيدة . وأيضا لحبي تحتاجين لتكوني سعيدة ، لهذا الحب غير النقي ، الخاطىء والأعوج ، المتهتك والمضطرم ، الذي يجعلكِ تعانين . وهو حبٌ جد عظيم بحيث يقاوم بوجه حياتي المنكوبة ، جد عظيم بحيث إنني بعد أن لا أغدو كائناً أعود فأصير كائناً وهاأنذا ههنا . فلكي أمنحكِ الفرح ، العذاب واللذة ههنا . لكنْ ليس للبقاء معكِ ، أن أكون ملازماً لكِ ، زوجكِ اليقظ ، لكي يواظب على البقاء معكِ ، لكي يأخذك في زيارات ، من أجل يوم معيّن للسينما ، وساعة دقيقة للرقاد ـ لهذا لا يا حبي . إن هذا هو مع زميلي النبيل ، ولا يمكن للمرء أن يعثر على من هو أفضل منه أبدا . إني زوج الدونا فلور الفقير ، ذلك الذي سيوقظ اشتياقكِ ويعضّ رغبتكِ ، المخبوئين في أعماق كيانكِ ، في اعماق حياتكِ فهو زوج السيدة الدونا فلور ، يحافظ على فضيلتكِ ، على شرفكِ ، على احترامكِ الإنساني . إنه وجهكِ الصباحي ، وأنا ليلكِ ، العشيق الذي ليس لديكِ إزاءه لا وسيلة ولا جرأة .. إننا زوجاكِ الإثنان ، وجهاكِ الاثنان ، نعمكِ ولاؤكِ . لتكوني سعيدة أنتِ بحاجة لنا نحن الاثنين . عندما كنت أنا بمفردي ، كان لديكِ حبي وينقصك كل شيء ، كم تعذّبتِ ! وحينما كان هو بمفرده ، كان عندكِ من كل شيء بعضه ، ولم ينقصكِ شيء ، وتعذّبتِ أكثر . الآن ،

نعم، أنتِ الدونا فلور بكلّيتكِ كما يجب أن تصيري.

كانت الدغدغات تتزايد، والجسدان يحترقان في لهب:

- أسرعي يا حبي، إذ إن ليلتنا قصيرة. هيّا بنا، بسرعة نتمتع، فبعد قليل سأغادر إلى الضياع، إذ إنه قدري، وستكون ساعة زميلي فيكِ، شريكي، أخي. فعليّ اشتياقكِ، رغبتكِ السرّية، أرضيّتك المكوّنة من قلّة الاحتشام، صرختكِ ذات البحّة. وعليه البقايا، النفقات، والمناوبة، احترامكِ السار، الجانب النبيل. كله كامل يا حبي، أنا، أنتِ وهو، فماذا ترغبين أكثر من ذلك؟ الباقي هو خداعٌ ونفاقٌ، فلماذا تريدين مع هذا ان تخدعي؟.

كاد أن يتمكن منها، وهو ما يزال يقول لها:

- إنكِ تظنين أني جئت لأجللك بالعار، وفي الوقت نفسه جئت لأنقذ شرفكِ. فلو لم آت، أنا زوجكِ، مع الحقوق الشرعية، قولي يا فلوري، تكلمي الحقيقة ولا تخدعي نفسكِ؛ ماذا كان سيحدث لو لم آت؟ جئت لأحول دون أن تتحولي عشيقة وتجرجري اسمكِ وشرفكِ في الوحل.

(أما فكرتِ أبداً، أما تقبلّتِ أبداً مجرّد فكرة عشيق، وأنتِ امرأة متكاملة، أرملة شريفة، زوجة نزيهة، وفيّة لزوجيكِ؟ وما الذي تقولينه لي عن أمير الأرامل، إدواردو المذكور، المعروف أيضاً باسم سيّد الخطوات [1]؟ ألم تتذكريه لصق العمود؟ كنت تبقين في فتحة النافذة، ولو لم أرسل ميراندون على عجل، حول حدادي لكنتِ قد سلّمت نفسك، ولصارت حديقة من القرون في قبري!.

صوته السماوي، شهيّته والطعم الحارق من الزنجبيل، الفلفل، البصل النيء، وملح الحياة (والحقيقة الحقيقية).

---

(1) SENHOR DOS PASSOS: من ألقاب السيد المسيح.

فيا حبي ، إنسي الآن كل شيء ، فهو وقت التمتع ، وأنتِ خير من تعلمين يا فلور ، أن المتعة هي شيٌ مقدسٌ ، أمرٌ من الله ، فهيّا بنا يا حبي .

فادينيو أشدّ إزعاجاً ، فاديينيو أشدّ هرطقة ، فادينيو أشدّ طغياناً ، هيّا بنا بسرعة .

٢٥

الصوفي كاردوزو وإس أ مائل الرأس إلى ثدييْ زولميرا سيمونز فاغونديس المخمليين والبرونزيين . . .

كـاردوزو وإس أ ؟ أجـل ، فـالأمـر لا يتعلّـق بخداع أو خطـأ ، بـإبـدال أسماء ، إنما (تحسّراً) بإحلال أشخاص بدنياً بشكل واقعي ومؤقت . وما كان بيلانتشي مولاس ملك القمار ، إمبراطور البيشو ، سيّد الحكومة وزولميرا ، مَنْ ينحني ، في استخدام حقوقه الخاصة ، على ثدييْ الهجينة ، متمتعاً بحرارة وراحة مثل تلك النعم . فمَنْ يفعل هذا ، بالأحرى بـذات سجيّة مباغتة ، كان رجلنا الخارق للمألوف دائماً معلّم اللامعقول ونقيب الأكوان المقدام ، هذا الروح النقي اللامادي تقريباً .

كيف بلغ كاردوزو وإس أ تلك الارتفاعات والعظمة ؟ حسناً ، بالطلب . ففيما كان يستشفّ حلاً لمشكلات بيلانتشي مـرتاداً قاعات اللعب ، في اجتماعات متواصلة مع الرؤساء المريخيين (أجرى مقابلة خصوصاً مع المرشد العبقري ، ديكتاتور المريخ المعتم وصاحب الفضل ، مَنْ كان حتى ذلك الوقت لا يحب معاشرة أي بشري) مضى طالباً من زولميرا ، طالباً بإلحاح وتملّق وأظهرت التركيبة القديمة مرّة أخرى فاعليتها .

فلقد طلب في البدء ، بمحض الفضول العلمي وبشكل يستحق الثواب عليه ، ليرى تلك العلامات المتروكة من قبل غير المرئيين في « مؤخرتك العظيمة الأمازونية » ، ولم تعد توجد علامات ، أجابت هي ، إنما الذكرى فقط ، وحتى مع هذا ، أراد كاردوزو وإس أ رؤية

الموضع (يدرس الظاهرة « في المكان »). فمن دونه يستحيل التشخيص الكامل. إن العلم لدقيق.

أرته آنئذٍ الموضع الفسيح، ولبث (العجلة عدو العلم) يدرسه؛ اللون الصلابة، الهندسة، كل شيء في الحقيقة من المرتبة الأولى، كانت زولميرا تدعه يفعل هذا وهي مبتسمة وخجلى؛ أما كان كاردوزينيو تقريباً روحاً نقياً، متحرراً من خسّة المادة؟ على وجه التقريب.

ـ مشابه لجبال المريخ، في التركيب والوهاد ـ كشف جغرافي للكواكب.

وإذ أشبع (في جزء منها) فضوله من ذلك القطاع، طلب منها العليم بالتفاصيل المشارة إلى الثديين، ليرى مثل تلك الروائع، المنحدرات والقمم، مستعيناً من أجل الأسباب الجمالية الكثيرة، بما يتعدى المسائل العلمية. وهي المعتادة من قبل بيلانتشي في ما خص عبادة كل ما هو جميل والشعر، كيف ترفض تضرعاً جد مصرّ إضافة إلى كونه لبقاً، المتجرّد من أي بقية من سفالة، المتأصل من شخص جد مستقيم؟ ـ سألت زولميرا نفسها وتساهلت.

المعلّم كاردوزو وإس أ، فنان محترم. يتكلم فقط في تأمل خلال لحظة بتلك « الأعمال[1] الأساسية لصانع الكون الأعلى » بيد أنه إذ رآها طليقة، كان تلذذه بالجمال عظيماً بحيث أنه أضاع رأسه دفعة واحدة وكلّياً. فإذا استسلم هو الروح النقي اللامادي إلى شره المادة، كيف يتطلّب الأمر من زولميرا، الإنسانية الهشّة، تصرّفاً أشدّ صلابة؟ هكذا حدث، في هذا الطلب والمنح.

أكثر من ذلك، لو كان بيلانتشي مولاس سخياً في الواقع، لشاء إجازة الجهد الهائل للفلكي والكيميائي على عمله، كواجب، ولأعطى زولميرا هدية لكاردوزو وإس أ، وهي غير ملزمة بأي وظيفة أو التزام للقهار وسيّده، سواء أكان طباعة على الآلة الكاتبة أم تسليات. مستبقياً إياها بيلانتشي فقط للمتعة السارّة في تأكيد النفقات (المرتفعة) للثراء. لأن النقيب العظيم، الذي وفى بكلمته، حلّ معضلة اللعب، انقذ ثروة الكالابري، محرراً إياه من النحس ومن ذلك الارتباك الناشىء عن المريخيين.

---

(١) OBRA : عمل فني.

أمرٌ واحدة مؤكد ولا يقبل النقاش؛ فعلى الأقل في تلك الأيام حدث فرار جيوفاني غماراريس وهو الأخير الذي انسحب.

الأول كان آناكريون. فالبطريرك العجوز، مهذّب الأجيال، الرجل المحترم الأشيب، اتجه بخطاه إلى كهف باراناغوا فينتورا ذات ليلة، وفي ذلك المركز للقمار، حيث كل ورقة كانت معلّمة، أحسّ من جديد أنه مقامر. لأن الكسب بلا نهاية ليس لعباً، ليس صراعاً بينه وبين الحظ، معركة ضد الصرّاف[1] وكرة الروليت، ضد الورقة والمكعّب[2]. تناول الفيش ووضع الورقة على الرقم وجمع الكسب، أي مذاق لذلك، أي سحر بليد؟ ماذا فعل هو، آناكريون، اللاعب الكامل، مربي الروليت، ليستحق عقاب هذا الحظ الذي لا يتبدّل؟

كان هذا كسباً وليس لعباً. فحماس اللعب هو عدم المعرفة، إنه المجازفة، الحنق في الخسارة، الفرح في الإصابة، الربح والخسارة. إنه متابعة الكرة في حوض الروليت، في دورانها المجنون، في رقمها الذي يعرف سلفاً من الحظ، في كل مرّة رقم مختلف. وحين كان يكرره مصادفة، فيا له من حماس! فآناكريون الآن لا يتطلّع حتى إلى الكرة، فهي تمضي طائعة وتقع على الرقم حيث أودع هو الفيشات. وأوراق اللعب؟ والمكعّبات؟ فأي جريمة اقترفها ليستحق عقاباً كهذا؟

كان الهرم آناكريون مخلوقاً من قطعة واحدة، من النزاهة والحشمة، لاعباً ذا متعة باللعب، متعة اللامعرفة، المجازفة، الآن لا يجازف، عارفاً حتى قبل أن يبدأ. إنه عارٌ.

لمّ بقايا النحاسات الزهيدة ومن هناك مضى إلى لقاء باراناغوا فينتورا:

ـ هذا المكان ـ قال الزنجي ـ ليس كازينو يملكه بيلانتشي، فلا تأتني بتبجحات.

ضحك الإثنان، هنا كان لازماً ما هو أكثر من الحظ، كان لازماً شجاعة وعين حيوية لكي لا يكون المرء مسروقاً. لكنْ آناكريون في تلك الليلة ما كان يبدي اهتماماً للخسارة،

---

(١) BANQUEIRO: المسؤول عن حصيلة اللعب من الفيشات.

(٢) من أدوات القمار.

للنحس أو للغش، الذي لم يرده وحسب هو ذلك الحظ الناشيء عن معجزة، الربح بلا متعة، بلا صراع، بلا انبساط. هكذا هي الطبيعة البشرية.

ومع أن آريغوف قد بدأ قبلاً، فإنه تأخّر أيضاً بضعة أيام ليغادر إلى وكر الدوقات الثلاث، إلى وكر زيزيه دا مينينجيتي، حيث كان اللعب لعباً في الحقيقة. لماذا التأخّر؟ قبل كل شيء؛ الكسب اليسير يهدد بإفساد عريكة آريغوف المتكاملة. يؤدي إلى هوس في إعالة امرأة، في الإنفاق على عشيقة، في انقلاب كلّي على العادات الطيّبة. فملأ تيريزا بالهدايا، إذ ابتاع لها مجسماً مصغراً للكرة الأرضية وعصفوراً مغرّراً ليثير نعاسها. أراد مهما كلّف الأمر تحمّل نفقات الإيجار، المخزن والنفقات الأخرى.

شاعرة بالإحباط والإهانة، جعلته الجغرافية يري الوضع العبثي والمضحك؛ فهي، تيريزا نيغريتودي كانت تنافس على دعم البيت والزنجي الفحل، وكان لديها اعتزازها، شرفها لتدافع عنهما. هدية أو أخرى شيء غير مجدٍ. فالعصفور يتركها مضطربة أكثر ومن هنا أرادت الإسهام في الإيجار، آه! كان هراءً.

رأى آريغوف، بفضل تيريزا، ذات وقت، الهاوية أمام قدميه، فلم يعد إلى الكازينو من أجل القمار، بل من أجل المال. أين تكامله كرجل ومتعته كمقامر؟ ألفى نفسه ثانية في كهف الدوقات الثلاث، في وكر زيزيه دا مينينجيتي، ومرّة أخرى فتحت له تيريزا بحرها ذا الرغوة، اتساعها الأبيض.

أما بالنسبة إلى ميراندون، فقد عُرف ما ألمَّ به؛ إنه الوعد الذي قطعه على نفسه في ساعة رعب. فاستمر بوهيمياً، يزوّد الليالي بحكاياته وابتسامته، زجاجته الطويلة من الكاشاسا؛ ومع هذا لم يلعب أبداً بعد ذلك، فلم يشأ أن يشعر مجدداً بالحضور القريب جداً للمستحيل.

جيوفاني غيمارايس، عند عودته إلى قاعات بالاس، لم يعد أبداً المقامر القديم، فلقد جعل من نفسه موظفاً رفيع الشأن، وكان بوسعه، حسب مزاجه، أن يقضي بقية الحياة كاسباً على الرقم ١٧، واضعاً مال بيلانتشي في الأرض والعجول، في مراع زاخرة بالعشب لكنَّ زوجته والمجتمع ذمّا عودته إلى اللعب والصحافي الرشيق، العضو الحديث للطبقات

المحافظة، انثنى إلى البيت وإلى الرصيد المصرفي، عائداً إلى النوم باكراً. لم يخرج من بـالاس إلى وكر الدوقات الثلاث أو وكر زيزيه، إلى كهف باراناغوا فينتورا. مضى إلى سريره الزوجي، إلى وقاره. لقد تحركت فيه أسبابٌ جديةٌ وممتازةٌ، من دون شك، ليست على كل حال من نفس النظرية الخلقية لآناكريون وآريغوف.

هكذا جرت متوازية؛ القوى الثلاث ووصلت معاً إلى مصيرها؛ الاتفاق عبر الكواكب لنقيب الأكوان مع المريخيّين؛ لعبة الطلب والمنح، تسلية بـريئـة فيهـا تسلّـى الصـوفي والأمازونية ليختلسا الزمن؛ ونفور أصدقاء فادينيو.

لم يصدع انتصار كاردوزو وإس أ القناعات المادية للأستـاذ مـاسيمـو سـاليس النـافـر والعنيد. فكل شيء واضح بالنسبة إليه: إن كاردوزو هذا ببلاهته الجليّة وهذه الأحاديث التي تجعل الثور يستسلم إلى النوم، لن يكون بوسعه أن يغدو إلاّ رئيس عصابة وزولميرا شريكته في الجريمة. والإثنان كانا يعرفان بعضهما بعضاً منذ أمد بعيد وكان كلٌّ منهما يعشق الآخر، إنما بيلانتشي وحده، ذو القرن القديم، لم يلحظ الأمر. وإذا لم يكن الأمر كهذا فكيف يُفسَّر ما حدث عندئذٍ؟

المباغَت والغريب، كاردوزو وإس ا، كاردوزوينيو بالنسبة إلى الحميمين، مثل زولميرا؛ مَنْ كان يقول إنه جد مألوف في أمور الحب؟ ليس فقط الحب في كوكبنا البائس والزهيد الأهمية، بل أيضاً في الكواكب الأكثر تقدّماً، في المجرّات الأكثر ثراءً. إنه الأستاذ الجامعي في النظام العذب الذي يوظفه إزاء التلميذة النابهة. نابهة وكثيرة التساؤل:

ـ في زُحل، كيف هو الأمر، قل لي يا كاردوزينيو. كيف يقبّلون بعضهم بعضاً، إذا لم تكن لديهم أفواه، كيف يمسكون بعضهم بعضاً، إذا لم تكن لديهم أيدٍ...

وترجّع قهقهة معلّم اللامعقول صداها:

ـ سأريكي الآن بالذات...

كان لدى زولميرا خوف من أن يكتشف بيلانتشي ذلك الود الروحي، ذلك الارتباط

الصوفي للأرواح الشقيقة، نـاظراً إلى الشرّ والرذيلة حيث لا يوجد إلاّ الفضول العلمي ولذة الجمال.

ـ لو دخل بيكيتو الآن ورآنا هكذا؟ فهو قادر على قتلنا. لقد أقسم على ذلك ذات مرّة...

قال المضاء العظيم:

ـ أفعل هكذا بيديّ ونغدو غير مرئيين.

فعل هكذا بيده وعلّمها عادات معيّنة لقاطني نبتون، فيها كل أمر!

٢٦

في كل يوم هو أشدّ امتقاعاً، أشدّ حزناً، والدونا فلور منحنية على وجهه: ماذا بك يا فادينيو، يا حبي؟

ـ تعبٌ...

الصوت مخنوق، العينان بلا بريق، اليدان عاريتان من اللحم. بالنسبة إلى الدونا فلور كانت تلك الحياة بلا قاعدة ومن دون ضبط للوقت، فلم يكن ثمة جهاز عضوي قادراً على استنفادٍ جد عظيم ومستديم.

في المرّة الأخرى حدث الأمر على حين بغتة؛ عندما كان الجميع يعتقدون أنه قوي ومعافى، متعاظم النشاط والطاقة، سقط فادينيو بين الأقنعة في عرض الكرنفال، في ملابس تنكرية لامرأة باهيانية وبكل انتعاشها. بغتة سقط ميتاً. وكان ما يزال جد فتي وجميل، مزهواً بنفسه ومدّعياً، وفي الوقت ذاته كان القلب شظايا، وفي الداخل كان كله مستهلكاً. وقد جاءت الدونا فلور تشقّ طريقها بين المقنعين وجمهرة الناس، مدعومة بالدونا نورما والدونا جيزا، وألفته قد توفى، مبتسماً إلى الموت. وإلى جانب المولج بالمراقبة، كارلينيوس ماسكارينياس مرتدياً ملابس غجري، والكافاكينيو السامي في صمت. وكان الحداد في الساحة بكرات صاخبة[1] وأدوات الزينة وألوان زاهية.

---

(١) GUIZO : كرة معدنية صغيرة فارغة يحدث تحريكها في الهواء صوتاً، تستعمل كأداة موسيقية.

لكنّ الموت الآن يوماً فيوماً، الموت أو أي شيء كان. أولاً هو ممتقع وعارٍ من اللحم، وبعدها في الحال هو أزرق ضاربٌ إلى السواد، مائع. أجل مائع وشفافٌ تقريباً. ما كان هزال المرض، فلم يكن يعاني ألماً ولا حمى، فاقداً الكثافة، متحوّلاً إلى كائن لا جسدي، سوف يختفي.

في البدء لم تحفل الدونا فلور بالأمر، إذ كان فادينيو مهزاراً ومحبّاً لتصرّفات الصبية، شخصاً مستخفّاً بالأمور، ربما كان فقط يعدّ مكيدة ليضحك من ذعر الضحية، ويسخر من رعبها. ففادينيو لم يفقد العادات القديمة، وعاد الماجن نفسه الذي كان قبلاً، فيهزأ من كل شيء، ويلهو على حساب الآخرين. هو الذي قالته الدونا روزيلدا في هلع: مهزلة.

فلقد جاءت العجوز بصورة غير متوقعة مع حقائب كبيرة تعلن البقاء الطويل. وابتلع الدكتور تيودورو الصدمة، وفي استخدام لتهذيبه الحسن، رحّب بالحماة في نبل «إنكِ دائماً تلقين الترحيب في منزلكِ هذا». ومع انقضاء السنين صارت رداءت الدونا روزيلدا أشدّ قسوة، بئراً من السم. وحالما وصلت كان إفراز السم قد سال في البيت وفي الشارع:

- شقيقكِ شخصٌ رخوٌ، فاقدُ الحميّة، فيه دم حشرة. امرأته تتامر عليه، مثيرة القذى في العين. ولقد جئت لأبقى.

«ربّاه، امنحني الصبر...» تضرّعت الدونا فلور، وفقد الدكتور تيودورو أي أمل. ولذلك التهديد المخيف، «جئت لأبقى» كان يوجد حلاّن فقط: إما تسميم المرأة ذات الوباء، وليس لديه شجاعةٌ لمثل كل هذا، أو معجزة، وما عدنا في أزمان المعجزات. إنه خطأ الدكتور، كما نعلم ذلك جيداً وتحقق منه في الحال.

فبعد مجيء الدونا روزيلدا بأقل من أربع وعشرين ساعة، عادت إلى نازاريت، راكضة إلى الباخرة كما لو أن الجحيم بأسره عضّ كعبيها. ليس الجحيم بأسره لكنْ بالتأكيد الشيطان أو إبليس أو رئيس الأرواح الشريرة[1]، الكلب، القذر، ليس مهماً الإسم واللقب؛ الشيطان، الأسوأ في ما بينهم، ذلك الذي كان ذات يوم صهرها من أجل شقائها وشقاء

---

(١) BELZEBU: أحد الشياطين النافذة حسب العهد الجديد من الكتاب المقدس.

ابنتها. فلقد شدّ شعرها وذات مرّة أوقعها أرضـاً طيلة النهار نافخاً في أسماعها بأسماء قبيحة، بشتائم فاحشة، مهدداً إياها بلكمات ورفسات على المؤخرة، مشيراً إليها بالقمامة.

ـ هذا البيت مسكونٌ بالأشباح، وهو ملعون! لن أطأ بقدميّ بعد الآن ههنا... شكت وهي تجمع الحقائب.

حدثت معجزة، فالزمن مازال زمن المعجزات... ـ فكّر الدكتور بضعة، وهو لا يرى نفسه مستحقاً لهذه النعمة الوفيرة، لمثل هذا الإحسان.

ـ الملعون يسير طليقاً، أراد قتلي...

وإذ أكملت معلوماتها، غادرت الدونا روزيلدا بسرعة إلى الشارع خارجاً.

ـ إنها خرفة... ـ شخّص الدكتور تيودورو، بارتياح وفاعلية.

ابتسمت الدونا فلور في اتفاق مع الدكتور، متضامنة مع انفراجه، وفي إجابة مع غمز العين من قبل فادينيو. وعند الباب، ضحك الشيطان بقهقهات، بيد أنه قد بات نـوعاً ما غير مادي ومائعاً.

أخذ يبرز ذلك الامتقاع، وفادينيو في كل مرّة أقل ماديّة، غازيّاً تقريبـاً، شفّافـاً، وفي لحظة معيّنة، كان بوسع الدونا فلور أن ترى من خلال جسده.

ـ أوّاه يا حبي، إنك تتلاشى فتغدو لا شيء...

شعرت الدونا فلور للمرّة الأولى أن فادينيو بلا قوى ليتصرّف، وهو مرتبك وتائه. أين لهيبه، قلّة حيائه؟

ـ لا أعلم يا حبي... إنهم يحملونني على الرحيل... وأكثر من هذا فأنا لا أريد الذهاب. تُرى هل ما عدتِ ترغبين فيّ؟ فأنتِ وحدكِ تستطيعين طردي. وبقدر ما تريدينني، ترغبين فيّ، بقدر ما تفكّرين بي، سأكون حيّاً وههنا. فماذا فعلتِ يا فلور؟

تذكّرت الدونا فلور الإيبو. فلقد حذّرتها إشبينتها الدونا ديونيزيا، محمّلة إياها الذنب

كله، إذ هرعت إلى الهة الأوريشا وتضرّعت بأن يحملوا فادينيو على العودة إلى موته.

ـ كان هو العمل السحري...

عملٌ سحريّ؟ ـ صوت الماء متلاشياً في تقريع.

أخبرته بكل شيء، متذكّرة فترة ما بعد ظهر يوم سبت، فيما كانت بين ذراعيْ فادينيو، وقد احتفظت بشرفها السليم بفضل ديونيزيا ده أوشوصي، وفي قنوط، أوصت بالعمل السحري. فالكاهن [1] ديدي تحمّل مسؤولية العمل، وفي الحال كان ديدي هو الذي له اليد الطولى على رأس فادينيو، والده الأصغر. ماذا فعلتِ يا فلور، يا وردتي الضائعة، ومن أجل ماذا؟

ـ لكي أنقذ شرفي...

لم يفد شيء، في أي شكل حدث. وكانت قوة الرغبة المنفلتة في طلاقة لسان فادينيو أشدّ عجلة من العمل السحري. وبعدما حصل أرادت الدونا فلور تعليق الإلزام، لكنْ فات الأوان، فقد أريق الدم في التضحية.

آه! إنكِ طردتني، أوصيتِ بالعودة، ولا سبيل آخر إلاّ الرحيل. فقوتي هي رغبتكِ، وجسدي هو اشتياقكِ، وحياتي هي مشيئتكِ، فإذا ما أردتني لن أكون أنا نفسي، فوداعاً يا فلور، سأرحل، فهم يقيّدونني بموكان [2] وقد انتهى الأمر.

لقد اختفى من أمام بصرها، وذاب في لا شيء.

---

(١) BABALAO: تابع للآلهة السحرة.

(٢) MOKAN: عمل سحري، ورد ذكرها سابقاً.

٢٧

مضى فادينيو إلى هناك، أرض العراك في حرب القديسين، نفاية الأوريشا، الإيبو بلا مقبرة.

فيا دونا فلور، لماذا لا تغتنمين الأمر؟ إنها فرصتكِ الأخيرة، إنها المناسبة الأخيرة من أجل الشرف، الحشمة، الحياء، الفضيلة، الشرائع الخلقية لشارعكِ، لناسكِ، لطبقتكِ. مازال لديكِ بابٌ للخروج، والإيبو الموصى عليه من ديونيزيا جاهز من قبل ديدي والأسوبا. وإذا كان مكلفاً لنا جداً تأييد أعمال السحر والأوريشا، استغلال الشعب، إنقاذ الأخلاق التي هي في خطر، إنقاذ الفضيلة ومفاهيم المجتمع، والحضارة في النهاية، فما هي الوسيلة الأخرى؟ إن المهم يا دونا فلور هو أن تستردّي نفسكِ إزاء الله والضمير، نعجة عائدة إلى الحظيرة الطيّبة، وهي مستعيدة نقاءها. إزاء البشر ليس ذلك لازماً، إذ إنهم (لحسن الحظ) يجهلون خطوتكِ السيّئة.

إذا تركتِ فادينيو يرحل، سيكون من السهل نسيان تلك الليالي القليلة العديمة الاحتشام، الامتطاء المجنون وتأوّهات الحب. فكل هذا بالوسع أن يغدو حلماً، هذياناً من الحمى، أضغاث أحلام أو مجرّد تفكير بسيط وأبله في الساعات الفارغة لحياة بكاملها من الحشمة والسعادة. لن يستحق عليكِ شيء، لن تندمي، وستعيشين في سلام مع زوجكِ ومع ضميركِ. إنها الفرصة الأخيرة يا دونا فلور، لتمارسي الفضيلة، لتبقي دعامة في الخلق، في العادات الحسنة. دعي فادينيو في سلامه كميت، ألستِ امرأة شريفة أم لا؟

إلى اين تذهبين يا دونا فلور ، وبأية قوى ؟ من أجل ماذا تحررينه من صيرورته لا كائناً ؟

من دون حب لا أستطيع أن أحيا ، من دون حبه. الأفضل أن أموت معه. فإذا لم يكن معي ، سأمضي في اليأس باحثة عنه في أي رجل يمرّ أمامي ، ساسعى إلى مذاقه في كل فم ، وسأركض في الشوراع ذئبة زاعقة جائعة. ففضيلتي هي هو.

٢٨

ارتفعت المدينة في الأجواء وسجّلت الساعات، في نفس الوقت، منتصف نهار ومنتصف ليل في حرب القديسين؛ جميع آلهة الأوريشا مجتمعة لدفن فادينيو، إيغون متمرّد وتركته من الحب، وإيشو بمفرده يدافع عنه. الشعاع والرعد، العاصفة، الفولاذ ضد الفولاذ ودم أسود. حدث اللقاء في معبر آخر طريق، في حدود اللاشيء.

في عُرف المحيط، يمانجا [١] كلّها مرتدية رداء أزرق، ذات شعر طويل من الزبد والسراطين. وفي ذيل من الفضة وُلد لها ثلاثة أجناس، واحد أبيض بلون الطحالب، وآخر أخضر بلون الطمي، والثالث بلون الأخطبوطات السوداء. وبمروحتها المعدنية، حرّكت الإلٓهة رياح الموت. كانت تقود أسطولاً من هياكل السفن، جيشاً من السمك كان يحييها بلغتها الخرساء؛ أودويا!

الغابات انحنت أمام أوشوصي، الصيّاد، ملك كيتو. في تلك الحرب، امتطى هو ثلاث دواب؛ في انطلاقة الصباح جافالي [٢]، وحصان أبيض في القوس الأصغر، وفي الفجر حصانه كان ديونيزيا، من بناته الأكثر جمالاً، المفضّلة. حيث يمرّ، مع الأونا والإيروكيريه، تموت الحيوانات، كل ما هو موجود منها، في الحرب التي هي بلا ثكنة.

---

(١) YEMANJA: إلهة المياه في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين.

(٢) خنزير بري يعيش في الجبال.

أفعى هائلة من نوع الكوبرا ، أوشوماريه قدمت في ألوان قوس قزح، ذكر وأنثى في الوقت نفسه. مغطّاة بالثعابين، الكاسكافيل [١] والجاراراكا [٢]، الكورال [٣] والفيبورا [٤]، ومتنوعة ، بخمس كتائب من المخنثّات. دفعت فادينيو إلى طرف قوس قزح، كان فحلاً قوياً عندما دخل، وخرج فتاة منكودة الحظ، عذراء مائعة، مع إله إيشو ذي الرمح المثلث الأسنّة أزال قوس قزح. ودست أوشوماريه ذيلها في فمها ، خاتماً ولغزاً.

أوغون سقى الحديد وسوّى فولاذ السيوف. إيوا بينابيعها ، نانا بشيخوختها. ملك الحرب، شانغو محاطاً بالأوبا والأوغان، في بلاط البهاء، ناثراً أشعة وشرارات. إلى جانبه، أوشون فاتنة كلّها ، في دلع متلاشية. أونولو بجيشه المذهل، يقود الجدري الأسود وجذام الفترات الألفيّة، البلغم النتن والصديد ، جميع الأمراض، فادينيو ، مسلول ومصاب بوباء ، أعمى وأصمّ. مضغ إيشو الأمراض، واحداً فواحداً ، وهو الطبيب الساحر للقبائل الإفريقية.

أوشالا وهو يشهر حساماً فضيّاً، حربة لا تُقْهَر ، كان إثنين؛ الفتى أوشوغويا والهرم أوشولوفا. في خطوته الراقصة الجميع قد انحنوا. وجاءت يانسا تتقدّمه، مَنْ تحكم الأموات، أم الحرب. أخرست صرختها الشعب، ومثل حربة مزّقت قلب فادينيو لمعروض.

أتوا معاً في تركيب من الشمع، بسلاحهم، بأدواتهم الحديدية، شريعتهم القديمة. وإذ وجدوا أنفسهم قلّة سيغدون كثيري العدد، داعين آلهة أوريشا أمة. الغرونسي والتابعين لأنغولا ، أقوام الإنكيسي الكونغولية والمهجنين الكابوكلو، جميع الأمم من الجنوب إلى الشمال، ضد إيشو وإيغونه. غادروا إلى الصدمة الأخيرة.

عندها ، تعرّت عذارى المدينة وخرجن ليعرضن أنفسهن في الشوارع وفي الساحات. في

---

(١) CASCAVEL : نوع من الأفاعي السامة.
(٢) JARARACA : نوع من الأفاعي السامة.
(٣) CORAL : أفعى سامة صغيرة الحجم نسبياً.
(٤) VIBORA : نوع من الثعابين السامة.

الحال وُلد الأبناء بالألوف. إنهم متشابهون، إذ كانوا أبناء فادينيو جميعهم، وكلهم أعسرون وبشكل معكوس، في البحر أبحرت بيوت ومنازل من طبقتين، منارة مدخل المرفأ وقطع الأرض المخصصة للبناء في أونياون؛ قلعة البحر انتقلت إلى اليابسة، تيريرو ده جيسوس[1]، وفي الحدائق تفتحت أسماك، في الأشجار نضجت نجوم، ساعة بالاسيو سجّلت ساعة الرهبة في سماء قرمزية مع بقع صفراء. شوهد آنئذٍ صبح مذنّبات يشرق فوق المواخير وكل مومس فازت بزوج وأبناء. وسقط القمر في إيتاباريكا على المستنقعات، والعشاق التجأوا إليه وفي مرآته كانت تنعكس القبلات والإغماءات.

من جانب، القانون، جيوش الخرافة والتأخّر، تحت قيادة الدونا دينورا وبيلانتشي مولاس. من جانب آخر، الحب والشعر، صراحة كاردوزو وإس أ الضاحك من بين ثديَيْ زولميرا، عقيد الحلم.

قدم الشعب راكضاً في المنحدرات مع قاذفات النفط وتقويم بالإضرابات والثورات. وعند الوصول إلى الساحة أحرق الديكتاتورية مثل ورقة متسخة وأشعل الحرية في كل زاوية.

مَنْ قاد التمرّد كان الكلب والساعات الإثنتان والعشرون والدقائق الست والثلاثون التي دكّت النظام والتقاليد الإقطاعية. من الخلقية المعمول بها لم يبق إلاّ فضلات، جُمعت في الحال ووُضعت في المتحف.

لكنَّ صرخة يانسا أبقت البشر في رعب الموت. من فادينيو بلا يدين، بلا قدمين، بلا تعقيد، فلم يتبق منه إلاّ قليل جداً، دخانٌ قذرٌ، رمادٌ منثورٌ والقلب المثقوب في المعركة. شخصٌ ليس شيئاً تقريباً، شيء لا قيمة له. كانت نهاية فادينيو وتركته من الرغبة. أين شوهد متوفٍ على السرير الحديدي يمارس المتعة من جديد؟ أين؟

حدث التراجع في المعركة. إيشو بلا قوى، محاطاً بالأركان السبعة بلا دروب. الإيغون في تابوته الرخيص، في قبره المنبسط، وداعاً فادينيو، وداعاً حتى اللقاء الذي لن يكون أبداً.

---

(١) TERREIRO DE JESUS: مكان ممارسة عبادة السحر باسم يسوع.

حدث حينما اجتاز شخصّ الأجواء ، ومخترقاً الدروب المنغلقة جداً تغلّب على المسافة والنفاق ـ فكرٌ حرٌ من أي قيد ؛ الدونا فلور عارية. تأوّهها الصادر عن الحب غطّى صرخة الموت لدى يانسا . في الساعة الأخيرة، عندما كان إيشو يتدحرج على الجبل وشاعرٌ يصنّف كتابة تخليد الميت لفادينيو.

أضرمت شعلة في الأرض وأحرق الشعب زمن الكذب.

٢٩

في صباح مشرق ولطيف من يوم أحد، رأى روّاد حانة مينديز في كابيسا، الدونا فلور وهي في كامل أناقتها، تمرّ متأبطة ذراع زوجها الدكتور تيودورو. كان الزوجان ذاهبين إلى ريو فيرميليو حيث الخالة ليتا والعم بورتو ينتظران للغداء. الدونا فلور ذات وجه مشبع بالحيوية إنما العينان خفيضتان. رصينة وجدّية كما تتصرّف المرأة المتزوجة والشريفة، استجابت للتمنيات بصباح طيب محترمة.

قاس السيّد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى الدونا فلور من أعلى إلى أسفل:

ـ ما فكرت قط أن هذا الدكتور شراب قد يغدو قادراً على أفعال كثيرة. إنه لا يبدو من هذا النوع، وسنرى...

قاطعه بائع الإيقونات ألفريدو:

ـ من هذا النوع، ما هو؟ كصيدلي يضاهي كثيراً من الأطباء...

ـ لاحظوها... أي فتنة، أي امرأة جميلة! امرأة شهية ويبدو عليها أنها امرأة راضية، وأن لا شيء ينقصها لا في المائدة ولا في السرير. حتى لتبدو امرأة تتخذ لها عشيقاً فتياً، ناصبة قروناً لزوجها...

احتج موزيس ألفيس، فاسد الكاكاو:

ـ لا تقل هذا! فإذا وُجدت امرأة مستقيمة في باهيّا فهي الدونا فلور.

- إني متفقٌ معك، فمَنْ لا يعلم أنها امرأة شريفة؟ إن ما أقوله هو ان هذا الدكتور، بهيئته كرجل أخرق، شخصٌ مكّار. إني أنزع له القبعة، فما فكرت قط أنه خليق بكل هذا. فمن أجل امرأة جميلة كهذه، جد فاتنة، يلزم الكثير من الكفاءة.

وأكمل بعينين متقدتين:

- أنظروا كيف تترجرج. الوجه رصين، إنما الردفان - انظروا إلى ذلك! - طليقان، حتى ليبدو أن أحداً ما يحرّكها... إنه لسعيد جداً هذا الدكتور...

متأبطة ذراع الزوج المحظوظ، تبتسم الدونا فلور وهي وديعة. آه! عادة فادينيو الغريبة هذه في لمس صدرها وردفيها، وهو في الشارع، يحوم حولها كأنه نسيم الصباح، صباح مغسول من يوم أحد، حيث تتنزّه الدونا فلور، سعيدة بحياتها، راضية بغراميها.

وههنا توضع نهاية لقصة الدونا فلور وزوجيها الإثنين، موصوفة بتفاصيلها وفي غموضها، ساطعة ومعتمة مثل الحياة. كل هذا حصل، فليصدّق مَنْ شاء. جرت في باهيّا، حيث أعمال السحر هذه وغيرها تحدث من دون أن تسبب لأحد ما ذعراً. وإذا شككوا في الأمر ليسألوا كاردوزو وإس أ، وهو سيقول إذا كانت هي حقيقة أم لا. وبوسعهم العثور عليه في كوكب المريخ أو في أي زاوية فقيرة في المدينة.

سالفادور، نيسان ١٩٦٦

(تمّت)

كتب صدرت للمترجم

□ تأليف:

- « بيراندللو » (دراسة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٩.
- « الآفاق البعيدة » (رواية)، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٩
- « الرهائن » (قصص)، دار الكلمة - بيروت ١٩٨١
- « الدروب المتقاطعة » (رواية)، دار الوحدة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٥
- « المغيب في مونتيفيديو » (رواية)، دار الوحدة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٧
- « الموت المجاني » (قصص)، دار الأدب الحديث - بيروت ١٩٨٨
- « درب الجنوب » (رواية)، جائزة اتحاد الكتاب اللبنانيين لعام ١٩٨٨، دار الفارابي - بيروت ١٩٨٨

□ ترجمة

- « المعطف » نيكولاي غوغول، دار الثقافة - بيروت ١٩٦١
- « المبارزة » أنطون تشيخوف، طبعة أولى عن دار الثقافة - بيروت ١٩٦٢، طبعة ثانية عن دار الفارابي - بيروت ١٩٨١
- « السيدة والكلب » أنطون تشيخوف، طبعة أولى عن دار الأدب الجديد - بيروت ١٩٦٩، طبعة ثانية عن دار الفارابي - بيروت ١٩٨١
- « تاراس بوليا » نيكولاي غوغول، طبعة أولى عن دار الأدب الجديد - بيروت ١٩٦٩، طبعة ثانية عن دار الفارابي - بيروت ١٩٨١
- « يوميّات مجنون » نيكولاي غوغول، دار الأدب الجديد - بيروت ١٩٦٩
- « القصّة الإيطالية » مجموعة من الكتاب الإيطاليين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١
- « غابرييلا: قرنفل وقرفة » جورجي آمادو، دار الفارابي - بيروت ١٩٨٤
- « المحصول الأحمر » جورجي آمادو، دار الفارابي - بيروت ١٩٨٨
- « ساعة الرحيل » مانويل فيرّيرا، دار الوحدة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٨.





جورجي آمادو هو آخر الروائيين العالميين الذين تُطلق عليهم صفة الموسوعيين مثل أساطين الرواية الكلاسيكية؛ ليون طولوستوي، فيدور دوستويفسكي وتوماس مان وغيرهم. فلم يترك علماً أو فناً أو حرفة إلاّ وخاض فيها بخبرة المعلّم ذي العين البصيرة النفّاذة. فكان أدبه الروائي موسوعياً غنيّاً بعوالم شتى، إلى الدرجة التي يمكن الإطلاع فيها على حياة البشر في مختلف طبقاتهم الاجتماعية ومهنهم المختلفة، في نسيج تأتلف فيه الأحداث مع الشخصيات في أسلوب واقعي حتى ولو وظّف الخيال أحياناً لإثراء السرد والعوالم التي تحويها روايته، كمراقب لمسار الحياة المتنوّعة، في بيئات يصبح تنافرها موضوعاً لغنى هذه الرواية.

«الدُونا فلور» رواية الشعب البرازيلي قاطبة، بل ملحمة هذا الشعب في غناه الحضاري المتأصل من تعدد أعراقه وأجناسه وثقافات جميع الأقوام التي كوّنت على مدار القرون الخمسة، هذا الشعب العظيم.